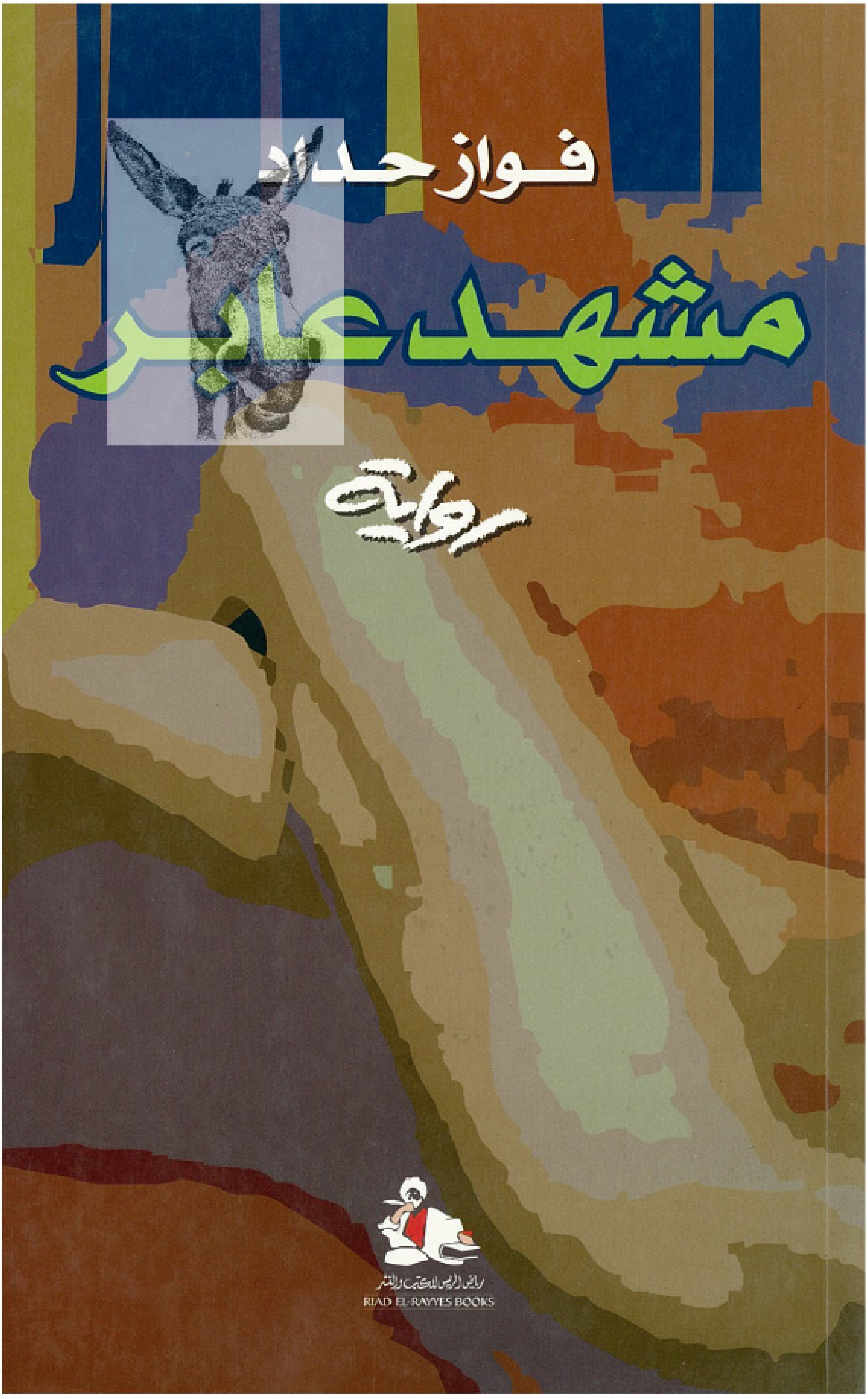
فواز حداد
مشهد عابر
رواية
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

فواز حداد

مشهد عابر

رواية

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

PASSING SCENE

By

Fawaz Haddad

(Novel)

First Published in February 2007

Copyright © **Riad El-Rayyes Books** S.A.R.L.

BEIRUT- LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-246-5

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: شباط/فبراير ٢٠٠٧

المحتويات

دعوة إلى المسرح	٩
فتاة الشامبو	٢٣
الانطوائي: عودة إلى الوراء	٣٣
الانطوائي: موظفاً في جريدة	٤٣
قاضي التحقيق	٥١
طفلة الكولا	٦٧
غرام وانتقام	٧٥
قاضي القضايا المميتة	٨٧
البروفسور	٩٥
وجه العدالة	١١١
اقضوا عليه	١١٧

المرافعة ١٢٧
الكولبة ١٣٥
قضاة ومحامون ١٤٥
الأصلع ١٥٥
بطل المداهمات ١٦٧
سعادة السفير ١٨٩
المحافظ الجديد ٢٠٩
جلاء الحقيقة ٢٢١
مناقشة حول الدولة ٢٤١
المصور ٢٥٥
العجائز الخمس ٢٦٥
قداسة البابا ٢٨١
حروب الحفلات والصور ٢٩٣
أولاد جادور ٣٠٣
السيدة العظيمة ٣٢٣
رجل لكل أوان ٣٢٩
الحب يطرق الباب ٣٥٥
عالَم صغير ٣٦٩
الشبيحة ٣٧٧
ختام الموسم ٣٨٥

دعوة إلى المسرح

صباحٌ جميل، هكذا بدا من النافذة. أطل على الحديقة العامة المجاورة، فبشَّره الضياء الرقيق واخضرار الأغصان وتمايل الخمائل بيوم لطيف. طالعه بعد قليل وهو خارج من البيت ساعي البريد، استوقفه عند الباب قائلاً، رسالة لك. منذ سنوات لم يتلق رسالة واحدة، حتى اعتقد أن مهنة سعاة البريد انقرضت، والتراسل بالرسائل ذات الظروف البيضاء قد ذهب زمانه، واقتصر شراء الطوابع على هواة جمعها.

تأمل المظروف الأبيض المختوم بفضول، وفتحه باهتمام، طالعته بطاقة دعوة في داخله، مرفق بها ورقة صغيرة زرقاء اللون سُطرت عليها كلمات بسيطة بخط منمنم دقيق؛ يلتمس صاحبها، التفضل

بمشاهدة المسرحية المحلية «عودة الزمن المجنون» التي باشرت عروضها اليوم الفائت في مسرح القباني. استغرب نسيان الرجل تذييلها باسمه، مع أنه توخى مخاطبته برسمية خالطتها ألفة محببة وصداقة لا تخلو من مجاملة.

«الصديق العزيز أحمد ربيع، يسرني تشريفك ... إلخ». لابد أنه يعرفه معرفة جيدة، وإلّا لما أرسلها إلى عنوان بيته، ليسأله بحرارة قبولها؛ إذ ختمها: «... ويهمني سماع رأيك في القريب العاجل». يعرفه ككاتب تطفل على المسرح، وشغف به منذ سنوات، تابعه عدة مواسم، وكتب عنه بجسارة وأمانة، أغضبتا نقاداً حقيرين، امتدحوا مسرحيات هابطة إرضاء لممثلات مبتدئات، وتزلفاً لمخرجين محترفين، في حين كان المسرح يحتضر.

عشقه للمسرح لم يستمر، كابد من ورائه المتاعب، وخسر من جرائه صداقات قصيرة وكسب عداوات طويلة، وتعرض للإهانة والأذى من كومبارس صعاليك بذيئين ومفتولي العضلات، أقنعهم نقاد سفلة بأنه متحامل عليهم.

طوى الدعوة، وضعها جانباً. وأحس بالزهو، لقد ترك خلفه شيئاً ما، فلم ينسوه، الدعوة تمثل اعترافاً بجهوده، وإن لم تجدِ. ابتسم مواسياً نفسه.

غالباً، يبرز في داخله خاطر يفسد عليه صفوه، هذا الخاطر لم يتأخر، عاوده في هذا الموقف الإنساني الرفيع، وكان على هذا النحو: لا تكذب، اعترف، لقد نسوك. ولهم الحق في نسيانك، لم تصمد، انسحبت بمحض إرادتك من عالم المسرح الكاذب، البراق والجميل.

تراجع عن تخميناته، صاحب الدعوة أياً كانت صفته يجهله، ولا بد أنه ارتكب خطأ، أرسل إليه البطاقة عن سهو، أو عن غير قصد، سيان، لو كان يعرفه فعلاً لما فكر بدعوته. وفي الحقيقة، لم يظفر طوال تلك الفترة بصداقة شخص واحد، وإذا كان قد خاطبه في الرسالة بالصديق العزيز، فمراعاة لأدبيات التراسل.

لن أتفاءل، لا سبب يدعوني للزهو، قال بصراحة، ورجح أنها من نمط تلك الدعوات الروتينية، دعوة اعتباطية اعتمدت قائمة قديمة، فكان أحد المدعوين.

وهذا ما أحبط عزيمته، فلم يذهب.

****

بعد أيام، اتصل به شخص وأبلغه بأدب، حجزنا لك مقعداً، نتمنى حضورك. لم يسأله من هم، أو من يكونون؟ تصرف بشرود وغباء لا نظير لهما، سمع منه دون أن يحرك ذهنه أو يستفسر. وهذا ما كان يلوم عليه نفسه دائماً. شكره دون أن يعقب بكلمة، حتى عندما قال الشخص، ستعجبك المسرحية إنها من النوع الذي يروقك، تطهر النفوس!! ثم أغلق الهاتف، بعد أن ألح على حضوره ثانية.

كالمعتاد، لا بد من أن تنكد عليه وساوسه ما يرغب في فعله، ما أدرى صاحب الدعوة بالمسرحيات التي تعجبه؟! في أي عصر نعيش؟ تطهير النفوس!! هل ما زال يعتقد أن هناك مسرحية قادرة على أن تشعرنا بالخوف على أنفسنا والشفقة على الآخرين، تطهرنا

بالدموع وتسمو بأرواحنا، حتى لو كان البطل البائس قد قتل أباه وتزوج أمه، وعاقب نفسه بفقء عينيه، ثم هام على وجهه في الفيافي والقفار؟! أين هو من ضحايا الاجتياحات الإسرائيلية والقصف الأميركي الإجرامي في أفغانستان، وتفشي الحروب الأهلية وحصدها آلاف القتلى وانحسارها عن مئات الآلاف من الجرحى والمشوهين والمغتصبات، تطالعنا بهم يومياً شاشة التلفزيون، ومن كثرتها نظن مآسيهم تمثيلاً في تمثيل، وضحاياها خيالات تتكدس على صفحات صور متحركة؟ لا يصح مقارنة أوهام المسارح، بالمذابح والمجاعات الحقيقية، إن لم تطهرنا الدماء الحقيقية، فلن تطهرنا دماء التمثيل.

استدرك تساؤلاته وغضبه، وأوقف استطراداته. لا ريب أن صاحب الدعوة يلتمس منه بشكل غير مباشر تقريظ المسرحية في الصحافة. لا محالة سيخيبه، الزمن بَعُدَ به عن التراجيديا والكوميديا، ماضيه المسرحي مضى عليه سنين، خلالها ترك الكتابة عن الدراما والأداء والإضاءة والديكورات، وانصرف إلى البطالة والخربشة على الورق، بعد أن وفق بدخل شهري وضع حداً لقلقه المادي، ووفر له رفاهية طالما حلم بها، عدم الانتظام في وظيفة وألا يمتثل لجهة أو أحد. انسحب من روتين العمل اليومي، الاستيقاظ المبكر والهرولة إلى المكتب وانتهاء الدوام في الوقت المحدد، كدٌّ بلا مقابل مرضٍ، كما ترك للغيب مسألة زواجه بعد طلاقه، ويبدو أن الغيب نسيه. أما الكتابة فحينما يشاء ويروق البال؛ مقالات أدبية لا علاقة لها بالممثلين والممثلات.

ومع هذا سيحضر المسرحية.

ولئن قرر تلبية الدعوة، فلحاجة لم تكن غامضة، ما زال للمسرح مكانة في حياته، كان من الجيل الذي آمن بمسرح يبث الأمل ويعلم شيئاً ما، بل ويغير العالم. تلك كانت أيام التفاؤل العجيبة والغبية.

****

في صالة القباني، صادف مقعد جلوسه إلى جوار امرأة، والمقعد الذي يليها خالياً. اختلس نظرة إليها، كانت سيدة في أواسط العمر، مظهرها يوحي بالرزانة والبساطة، تسريحة شعرها عادية، بلوزة بقبة عالية وأكمام طويلة، تنورة محتشمة، وشال مخرم فيروزي اللون ملقى بعناية على كتفيها. سيدة رصينة في الأربعين من عمرها، حافظت نضارة وجهها على جمالها. اختلس نظرة ثانية، ثمة عدم توازن بين وقارها الفاتر وحسنها الفائر.

التفتت السيدة إلى الخلف ورمت بنظراتها إلى المدخل، كانت بانتظار مجيء مرافقها. الستارة ارتفعت ولم يأت أحد. تخيل أن ذاك الذي تخلف، زوج أشيب، عصبي ونحيل، رئيس دائرة في وزارة ما، وفرت عليه مشاغله عناء الفرجة والتململ.

دارت قصة المسرحية حول موضوع لا يستسيغه، الحب والانتقام، التراجيديا الميلودرامية إياها المقيتة الفجة والمضجرة، فلم تستدع في ذهنه سوى السخرية. حيَّرته دائماً مقاربة هذه الفكرة الممجوجة في عوالم الأدب والفنون الجميلة. ما الذي يجذبهم إليها سوى أحداثها العاصفة ونهاياتها الفاجعة؟! قرأها قصصاً وروايات، وشاهد معالجات لها على المسرح والشاشة. الحب والكراهية يتبادلان الأدوار كطرفين متلازمين ومتناحرين، أحدهما يلي الآخر، ويحل محله

دون توان وبفظاظة.

كان رأيه القاطع هذا، أحد أخطائه التي يصر عليها وتتراكم مع الزمن دون تمحيص. أحمد ربيع لم يكن على وفاق مع الحياة، كان يراها ميلودراما مشغولة بشكل غير متقن، بل وسيئ؛ ومع أنه لم يختبرها بشكل عميق، كانت آراؤه تصيب هدفها، ليس لأنها سديدة، بل لأن الحياة تتسع لمختلف الآراء؛ وكان يقول، بوسعنا تبرير نظراتنا الخاطئة، بكل سهولة، الخطأ موجود في صلب الحياة.

لم يحاول وهو محاصر بين الصمت المهيمن على الصالة وضجيج خشبة المسرح، أن يعثر على بديل لتشخيصه الجاهز، تشخيص طالما اعتبره دقيقاً في التعبير عن أحد أمراض الأدب والفن المستديمة. إذا لم يكن الحب حقيقياً، فلا مبرر لأن ندعوه حباً على الإطلاق، وإذا كان حقيقياً فسوف ينبذ الانتقام، لا حل وسط بينهما. الانتقام فعل بشع ينطق بالقسوة، أما الحب فعاطفة حارة ومضحية في منتهى الأثرة والرهافة، ومع أنهما يتشاركان بالرعونة، لا يسوغ الحب ضغينة عمياء عنيفة ومديدة.

وبالعودة إلى بعض المسرحيات التي شاهدها والروايات التي قرأها، لا يمكن لأحمد ربيع التصور، حتى مجرد التصور، أن امرأة سواء في الحياة أو الأدب، تحمل حقدها سنين طويلة في داخلها كمرض عضال، عظيم ومقدس، لا تشفى منه إلّا بعد أن تغرز بيد ثابتة خنجراً حاد النصل معقوفاً في صدر حبيبها المخادع، أو من كان حبيبها.

****

في الاستراحة، اتسع له الوقت في الردهة ليدخن، وفي الصالة ليقيِّم الفصل الأول، فكان سلبياً، الستارة أسدلت على المرأة العانس ذات الخمار الأسود وهي تصرخ بصوت يرتجف بالضغينة: الحقد يتعيش على الذكريات!! لن يحدث العكس، مسلّمة الحب والانتقام العابثة ستفعل فعلها في مسرحية ديكوراتها هشة، ولغة تتفاصح وتسف في الزعيق. واعتبر قبوله للدعوة غير موفق، وأراد أن يغادر، فتهيأ للنهوض.

التفت فتلاقت نظراته بنظرات جارته، ابتسم محرجاً، فبادلته إياها ببسمة ناعمة. كانا في ورطة واحدة، رغم أن السيدة كانت أكثر تعقلاً وتحملاً منه. انتبه وهو يبتسم إلى أن المقعد المجاور لجارته، مازال خالياً، مرافقها لم يأت، ويبدو أنه لن يأتي. أحس بداعي المجاملة أنه لا ينبغي أن يغادر ويتركها محاطة بمقعدين فارغين. بعد قليل، أدرك أن ابتسامته كانت سخيفة ومجاملته أسخف، خشي أن تظن بأنه يحاول التحرش بها، أو يخطر لها أنه يستغل وحدتها. تصلب في جلسته محاذراً ألا يميل ناحيتها، لئلا يحتك ساعده بساعدها أو ساقه بساقها، فتذهب بها الظنون بعيداً. أدار رأسه، وذهب بعينيه وأفكاره إلى المسرحية.

أعاد الحوار الذي احتدم في المسرحية إلى ذهنه جملة قرأها منذ سنوات قليلة في رواية، كتبتها امرأة مُطَلقة، قوية الشكيمة من المناصرات لحقوق المرأة العربية والداعية للمساواة الكاملة مع الرجل ورفع الظلم الاجتماعي والتاريخي عنها بأشكاله كافة. نشرت روايتها إبان الازدهار الكاذب للأدب النسائي، حينما بات لكل امرأة روايتها التحررية والصدامية عن مراهقة مظلومة، وأسرة ظالمة، وتجربة عاطفية مكبوتة في منتهى الرومانسية، وهفوة جنسية أرغمت

عليها، أعقبتها زلة جسدية أولى مع شاب نذل ومنحط، تلتها تجارب عاثرة مع رجال تافهين؛ سلسلة من العلاقات المحبطة، توجتها بنداء إلى بنات جنسها تهيب بهن التخلص من الذكر المتسلط النرجسي المريض بفحولته. كانت الأديبة الجريئة، في جلساتها الخاصة تتمنى قتل الذكور كلهم وعلى الأخص الأزواج، ولا تستثني الآباء والأخوة. لم تكن الرواية أكثر من نزوة في حياة المطلقة المخضرمة بالرجال التي سرعان ما تزوجت ثانية شاعراً سريالياً تحمل منها اضطهاداً ينوء بثقله عدة رجال.

نسي عنوان الرواية ونسي اسم المؤلفة، لكنه لم ينس شكلها المقتبس من الشبان طويلي الشعور، مرتديٌّ بناطيل الجينز والمدمنين على القهوة السادة والتدخين. ولم ينس جملة في الرواية، بدت له في حينها حكمة مأثورة (لا تمنحنا الذكريات سوى التعاسة) كانت آخر سطر في الرواية، تقولها البطلة الأرملة التي أثخنتها جراح التجارب المؤلمة، بعد أن داست على التقاليد الجائرة، على عكس المؤلفة المحنكة التي أضاعت فرصاً كثيرة قبل الرواية، واقتنصت فرصاً أكثر بعدها.

أُعجب بهذا القول، كان أفضل ما في الرواية، بعد سرد روائي طويل، مهلهل ومتعب، وضع حداً لسلسلة غنية باليأس ودناءة الرجال. وعلى الرغم من إعجابه بحكمتها استخف بالمغزى المنطوي عليها، ربما لأن ذكرياته قليلة ولا تؤرقه. ماذا تكون غير عشقه المفرط لفتاة جامعية، أصبحت فيما بعد زوجته، لقنته دروساً قاسية في الوفاء للحياة الزوجية، حتى لم يعد يتجرأ على التحدث مع صديقات قديمات وزميلات العمل؛ ريثما استعادت حبها الأول، فرفعت راية الحرية وظفرت بها؛ أو أنه لا يتذكر إلّا الأشياء المبهجة،

خطواته الأولى في المدرسة، تعرفه على الأدب والفن؛ أو ذكرياته التي بلا طعم، خوضه في قصص حب كانت نجاحاته فيها ضئيلة، عوَّل على الإخلاص وصدق العواطف وبراءتها، مع فتيات زعمن حبه وهجرنه بعد أن طالبنه بالزواج ولم يستجب. أما النساء، فلم يأخذهن على محمل الجد، كان يعتقد جازماً أن العوانس والأرامل، مولعات بالثرثرة أكثر من الغرام، يفتعلن ذكرياتهن التعيسة، ويستمتعن باستعراضها واجترارها بلذة وأنفة، دون أن يتعلمن منها شيئاً.

* * *

في الاستراحة التالية، تشجع ورمق جارته، بدت رقيقة جداً، لا بد أن قسوة المسرحية آذتها رغم صبرها المتجلي على محياها. أثار فضوله عمرها المحير، وشجعه على الحديث معها. بدت وهو يسترق النظرات إليها أصغر قليلاً، لم تبلغ الأربعين بعد، ربما في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها. فود أن يكسر أوهاماً حول خريف العمر. قال لها مهوناً، إن الأبطال يبالغون في مشاعرهم العنيفة. لم يفتها ضيقه، وافقته على أن المسرحية غير مقنعة. أعقبه المشهد الثاني من الفصل الثاني وكان أشد قسوة من الأول، مع المزيد من الصراخ والفجيعة والخيانة.

علَّق في الاستراحة على تصاعد الحدث في المسرحية بأنه لم يكن موفقاً، وأداء الممثلين لم يتحسن، فلم تخالفه بصمتها، فصمت مثلها، وأرخى رأسه تأدباً، ولاحظ دون قصد خلو أصابع جارته من الخواتم، لم تكن متزوجة، فأوحت له بعانس استثنائية رائعة أو أرملة مثالية، وتخيل أنها جذبت الرجال إلى حبها، وتجنبت قصص حب

عابرة، وأحبطت آمال عشاقها، بسبب عشقها لرجل خدعها، وربما ما زال يخدعها حتى الآن، هو الذي تخلف عن المجيء، وموعده هذا معها، إحدى خدعه.

أراد التقرب منها دون أن يبدو حشرياً، رغب في معرفة سر عزوبيتها على الرغم من جمالها، فقال لها ببساطة وأسى، لا تمنحنا الذكريات سوى التعاسة، مستعيراً من الأرملة بطلة الرواية حكمتها المأثورة؛ متوقعاً من جارته ازوراراً عنه، أو إجابة محكمة تفيض على إيجازها بالخيبات والأحزان. سارعت قائلة، والستارة ترتفع عن الفصل الثالث، غالباً ما تكون الذكريات جميلة، أما البشعة فنحاول نسيانها.

بلحظة واحدة صححت له أفكاره، الأرامل والعوانس لسن عَيّنات متجانسة، للجميلات منهن ذكريات عذبة تضاهي جمالهن، أما أقدارهن في الراويات والمسرحيات، فمختلقة لضرورات الصراخ ومونولوجات الثأر.

جاء الفصل الثالث ترجمة وافية لما راوده، الضغينة تدفع الحدث إلى مساره المحتوم، الذكريات والوساوس لا تضن على البطلة بوقود لا ينضب من الكراهية تؤجج تصميمها على الانتقام. يستولي الحقد القاتل على المرأة ذات الخمار الأسود ويخمد الرحمة في قلبها، تستل الخنجر المعقوف وتمزق صدر حبيبها.

****

بعد خروجه من المسرح، لم ينتبه، هل لحقها، أم لحقت به؟ وفي

الشارع، لم يدر، هل كانت تمشي معه، أم يمشي معها؟ لم يتجها صوب شارع ٢٩ أيار، تابعا في الزقاق الضيق، وتوغلا في دخلات عين الكرش. بضعة محلات مفتوحة، أضواؤها باهتة، وجلبة خفيفة صادرة من فرن الخبز ودكان الحلويات.

كان يصغي إليها، وكانت تقول، الزمن يكسر حدة الألم، ويسبغ على الذكريات المرّة غلالة أشبه بأسى منعش، ويمنحها طلاوة نتمنى أن نستعيدها على الرغم مما عانيناه من شقاء. قال، أغلب ما نعانيه من آلام، غير حقيقي، الإنسان بحاجة إلى الشقاء، إن لم يجد كفايته منه، فسوف يختلقه. قالت، الدموع التي نسكبها، دموع نظيفة من الكدر، الزمن يصطفي من الذكريات أحلاها ويصفيها من شوائبها، مخاوفنا القديمة تتلاشى أو تأخذ أحجامها، وتتواضع أحزاننا، ولا تعود كما ظننا نهاية الحياة والعالم.

لم يفكر في كلماتها، كان صوتها المتآلف مع الليل والهواء عميقاً وساحراً. وإذا كان أمر قد خالجه، فهو تعجبه من تبادله الحديث مع امرأة لا يعرفها ولا تعرفه، حديثاً حميماً في ساعة متأخرة من المساء في أزقة خالية تمرح فيها الظلال وتتطاول متمددة على الأرصفة والجدران، لتغيب في الدخلات الضيقة.

سمعها تقول، الحياة محاولة دائبة في التذكر، والنسيان هروب لا يفلح مع الماضي.

كانت قد عاجلته بفكرة مناقضة!!

قال، نحن نسعى إلى النسيان أكثر مما نسعى إلى التذكر.

فسألته، هل تشكو من الذكريات؟

قال، عندما أتذكر شيئاً، أتذكر ما يجب عليَّ فعله في الغد.

قالت، لا ترمِ بالماضي خلف ظهرك قبل أن تتصالح معه.

لم تخفِ خبرتها الشخصية، كانت واثقة مما تقوله، بدت وكأنها صفت حساباتها مع ماضيها بحزم وصلابة.

تابعت قائلة، لا تحاول التصرف بما مضى منفرداً، لا تنس أن الآخرين يشاركونك إياه.

نبهته إلى أنه كفَّ النظر عن الماضي منذ زمن بعيد، طواه وأرسل به إلى حيث لا يمكن أن يقع عليه بصره، وأخفى معه الكثير من الأمور المعلقة.

النسيان هو الدواء الوحيد للاستمرار، لكنه لا ينفع مع الحياة. أسدت إليه السيدة نصيحة ثمينة. التفت إليها، بدت في تلك اللحظة متفوقة عليه، وأيضاً قاسية وهازئة، وكأنها تحذره من شيء سوف يحدث قريباً.

قال مستعيداً رباطة جأشه وسخريته، هل تعتقدين أن شخصاً من الماضي قد يتعرض لي، ويرغب في الانتقام مني؟

قالت، لا تأخذ الانتقام على محمل الهزل، إنه لعبة مميتة من ألعاب الحياة.

عند مدخل بناء معتم توقفا.

سألته، إذا لم أكن مخطئة، ألم تعمل في مجال المسرح؟

قال مندهشاً، لم تخطئي. وأحس غصّة وهو يستدرك، كتبتُ بعض المقالات في الماضي، أما الآن فلا اهتم بالمسرح، ما أدراكِ؟!

قالت، رأيت صورة لك في مجلة، بعض الوجوه تعلق في ذاكرتي.

قال، وجهي ليس من النوع المميز.

قالت، لقد علق.

مدت يدها مبتسمة وصافحته مودعة.

سألها، ألا أراك ثانية؟

قالت، لا.

تعجب من لهجتها القاطعة، وكانت بالفعل قد أثارت شكه، وكأن مهمتها تحذيره.

استدركت قائلة، ربما... يوماً ما.

وغابت في مدخل البناء الملفوف بالظلام.

فتاة الشامبو

سوف يتذكر تلك السيدة الجميلة التي التقاها في مسرح القباني بعد يومين، عندما عادت دنيا من عالم الماضي والآثام، من ماض لم يعتبره ماضياً، وإنما زمن أقرب إلى العدم عاشه منذ سنوات، واستمر شهرين، كانت زوجته غائبة عن البيت تمارس عليه أحد دروسها في الهجران، فصادف دنيا وتصاحبا، ثم افترقا، كأنما التقيا في محطة، انطلق بعدها كل في طريقه، هو ارتد إلى زوجته، وهي ارتدت، أو ذهبت إلى رجل ما.

جاءت اليوم، في توقيت يلائم عزوبيته، حاملة معها وعداً بالزواج، همسه في أذنها، كما زعمت، مساء يوم ربيعي، اضطجعا فيه متعانقين ليلة بطولها أحصيا فيها النجوم. وكما يتذكر، لم يكن لذاك المساء من نجوم، أو للربيع من إطلالة؛ كانا في حالة سكر. وإذا كان الوعد صحيحاً، فقد أطلقه تحت إلحاحها في الشتاء،

السماء تمطر في الخارج، وكان بردانأ وفي شبه غيبوبة يهذي بين ذراعيها.

طلبت دنيا منه الوفاء بوعده واقترحت بعض التعديلات. قاطعها، لم يرغب بسماع شيء. قال لها جئت متأخرة، ما الفائدة من سماع التعديلات!! قالت، التعديلات أهم من الوعد. وبدلاً من أن يسمع، رفض. ليته سمع ولم يرفض، لتوقع على الأقل ما الذي سيحدث له.

قالت، فكر، سأعود ثانية.

قال، لن أفكر، حصلت أشياء تمنعني حتى من رؤيتك.

قالت، أين حصلت؟

قال، هنا في رأسي.

قالت، ما الذي جرى؟

قال، أشياء كثيرة.

لم يقل لها أن أحدها هو أن قصتهما سخيفة برمتها.

قالت، لا تتنكر لوعدك.

قالتها بأسلوب درامي من النوع الذي ينفر منه، فأجابها بأسلوب سينمائي متنفج من النوع الذي يسخر منه، لا تصدقي الوعود التي تهمس في الفراش.

قالت، سأنتقم.

****

لم يعبأ بوعيدها، التهديدات لغة سائرة على شفاه المطلقات اللواتي فاتهن الزواج، ولا يجرؤن على تنفيذ ما اعتزمن عليه إلّا إذا أسعفهن اليأس وتدربن على استعمال السلاح. دنيا لم تكن واحدة منهن، بل شابة في الخامسة والعشرين من عمرها، مازالت بعيدة عن مواسم الهجران وفوات الأوان، وأسلحتها لا تتعدى أسلحة المرأة التقليدية، لغة العيون والدموع.

لم تربطه معها علاقة حب عنيفة أو هادئة، مجرد علاقة عابرة، لم تستمر ليصبح لها طعم العسل أو السم. كانت ممثلة أدوار ثانوية، غرامها العاصف لم يكن سوى دور لم تحسن أداءه. عندما خلعته عنها، خلعته هو أيضاً معه. لم تُحبِطه ولم يُحبطها، كان خيْبَتُها مثلما كانت خيْبَتُه. لم يتحمسا لتوابل الحب من غيرة وخصام، وبالتالي لم يفقدها، وفيما بعد لم يفتقدها، وإذا كان قد تذكرها بين وقت وآخر فبسبب أخبارها المثيرة، أو ظهور لها في إعلان أو عرض أزياء أو كليب غنائي، ودائماً كأنه يراها لأول مرة. كان قد فرغ من نسيان علاقته بها في اللحظة التي افترقا فيها، ولم يدرك أنها انتهت تماماً، إلّا عندما رآها اليوم، كم شطَّ به الزمن بعيداً عنها وعن تلك الأيام!!

في ذلك الحين، إبان خوضه في النقد الصحافي المسرحي، سألته أن يكتب عنها ويمتدح تمثيلها، كان هذا غرضها من علاقتها معه، فلم يتوان، كان رأيه أنها مثل غيرها تبشر بموهبة قد تثمر إذا تعهدتها بالتدريب والعناية والثقافة. لكنها اختصرت مشوارها بشطارتها في العلاقات العامة، وجرأتها في التعرف إلى المخرجين والممثلين، اختارت العلاقات المفيدة فقط وأثمرت. ومن يوم لآخر كانت موهبتها المتواضعة تتضاءل، وعلاقاتها العامة تتوسع مع مسؤولي

التلفزيون، وصلاتها تتزايد مع الممولين والمنتجين ومخرجي أفلام الإعلانات. في حين اقتصرت علاقاتها الخاصة على الإيقاع برجال يفتحون لها الآفاق، تعبرها إلى مشاريع واعدة، لتترك وراءها آمالها في احتلال مكان ما على خشبة أو شاشة، طالما تاقت إليهما، وأضاعت ليالي تحلم بهما.

تهيأت لها الظروف أكثر من مرة لتمثل أدواراً كبيرة، كانت طاقتها على التمثيل محدودة، فأخفقت في الظهور على الشاشة في أدوار رئيسة أولى. نجحت في الأدوار الصغيرة، وتفوقت في مجال الدعاية التجارية. ظهرت في لوحات إعلانية بأحجام مختلفة ملأت الشوارع، واشتهرت بالأفلام الدعائية المروجة لمستحضرات العناية بالشعر والبشرة ونعومة الساقين. لقبها المراهقون الصغار من الشبان والبنات بفتاة الشامبو، لظهورها في الحمام، تحت الدوش، في بانيو، أو أمام مغسلة تحيط جسدها بمنشفة، كتفاها عاريتان وثدياها منتفخان، وعلى رأسها رغوة وفيرة من شامبو محلي فريد في نوعه، مستخلص من الأعشاب، ويلائم جميع أنواع الشعر، ويتميز بأكثر من مفعول، مضاد للقشرة، مقوٍّ وملطف، يطري الشعر ويُسَبِّله، يمنحه لمعة ساحرة، ويقيه من التقصف.

قالت، اسمعني.

فأضاع فرصته الثانية.

قال، لا أريد أن أسمع.

أخبارها لم تنقطع عنه، لكنه لم يهتم بها. عندما تعرف إليها كانت

فقيرة وطموحة؛ إلى أن حصلت على فرصتها فتخلصت من الفقر اللعين وطموحاتها المرهقة.

****

اكتشفت في داخلها موهبة أخرى تفوق التمثيل، موهبة التغرير بموظفين أثرياء على وشك التقاعد وشارفوا على شيخوخة قاحلة. بعدما تمكنت من التسلل إلى حلقة كبار الموظفين، شاغلي المناصب المرموقة، كانوا يعطونها بلا حساب، ويتناقلونها فيما بينهم. كانوا بارعين وحاذقين في تصريف أعمالهم؛ تربكهم أموال تنهال عليهم بلا جهد لمجرد جرة قلم، لِمَ لا يكونون كرماء معها؟!

لم يحصلوا على الثراء بلا تعب وسنوات خدمة طويلة، كان ذكاؤهم يجد حلاً لأي مشكلة مهما كانت عويصة، وخبرتهم تذلل عقبات القوانين بأنواعها؛ لا يأتي مال بلا عناء. نصيحتهم كانت: تعلموا أيها الأغبياء. أما الأغبياء فجحافل جيوش الموظفين من حولهم، يعيشون على البخل والتقنين، ويسدّون رمقهم برشاوى صغيرة، يتهالكون على منافسات وضيعة، ويبرعون في إشاعة نمائم حول مبالغ صغيرة من النقود، ويتنازعون حول عائدات تافهة تأتي من التعويضات والمهمات وساعات العمل الإضافية. لا ينبغي لوم الكبار على احتقار الصغار، إذا كانوا يأنفون من محاولاتهم الكاذبة في التزلف إليهم، فلماذا لا يمقتونهم، أليس لهم الحق في ممارسة هذه الإحساسات النزيهة؟

ما يتكالب عليه الأغبياء من مال، كان بالنسبة للأذكياء مشكلة، أين يذهبون بهذا المال الوفير؟! فكانت النساء مجالاً لذيذاً ورحباً

للتخلص منه دون وثائق إثبات وشهود عيان؛ بين أحضانهن، يستعيدون متع الشباب على شاكلة أشهى وأنضج وأكثر تحللاً وشراهة، وبقليل من السخاء يعبون من سخاء أجساد فتية ونضرة. السعادة والبذخ ترسم صورتهم، مثلما حلموا بها: كهول محافظون، أنيقون ونظيفون، لا يبدو عليهم التقدم في السن، ينالون ما لا يستطيع شبان يافعون أن ينالوه، ما هو؟! حب فتيات فاتنات، وإن كنَّ متقلبات وغادرات.

لم يبخلوا عليها ولم تبخل عليهم. تدفق المال عليها بانتظام، استأجرت بيتاً في حي المزرعة، أثثوه لها بأثاث فاخر، وأجروا عليها هبات منتظمة.

****

قالت، سنرى.

خطر له سؤال، من سيجبرني على الزواج منكِ؟! لكنه لن يسألها إياه.

لم يطل الوقت أكثر من اليوم التالي، عندما دخلت دنيا كالصاعقة بصحبة الشرطة، أشارت إليه وقالت لهم، هذا هو. فانقضوا عليه وسحبوه من ياقته، أبعد أيديهم عن قميصه، فلطشوه كفين وجرّوه من شعره إلى المخفر، ليتلقى أمام قائد المخفر الصاعقة الثانية من امرأة، قالوا أنها بنت صغيرة اسمها دينا، هي أخت دنيا؛ سمينة، بيضاء، شقراء، عيناها زرقاوان، ترفرف برموشها، وتشبه الدمية؛ أكدوا أنها لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، رفعت يدها ودلت عليه

بإصبعها، وقالت، هذا هو. وأجهشت بالبكاء.

أنزلوه إلى القبو دحرجة ورفساً بالأقدام. خلعوا عنه ملابسه، أصبح عارياً إلّا من سرواله الداخلي. علقوه من قدميه إلى جنزير متدلٍّ من السقف، وأخذوا يركلونه ويصفعونه، يضربونه بكل قوتهم، بالعصي والخيزرانات على ظهره وصدره ورأسه. لم يصرخ متوجعاً من الألم، وإنما من الحيرة، دنيا تريد الانتقام، لكن ما قصة الفتاة الصغيرة السمينة؟! يتآكله الفزع، ورعب هائل يفترسه. أنزلوه لكي يستريحوا، فاغتنم الفرصة وسألهم ما الذي فعلته؟! لم يردوا، رفعوه من جديد وعادوا يضربونه، فعاد الألم يعتصره، كانوا يتسلون بتعذيبه. بدا وكأنهم سيضربونه إلى ما لانهاية، إلى أن توقفوا وسألوه، هل تعترف؟ قال، نعم. فارتدوا إليه وانهالوا عليه بالعصي، لئلا يتراجع عن وعده. تمنى أن يستعجلوه بالاعتراف ليتعرف على فعلته. وأقسم لهم ثانية على أن يعترف بأي شيء، رجاهم وألح في الرجاء، ثم لم يعد يدري من أين تأتيه الرفسة أو الصفعة. تاه عنه ما يريدونه منه، ولم يعد يعرف لماذا كان يرجوهم؟ عندما أنزلوه وجاءوا بمحضر التحقيق جاهزاً؛ هو أيضاً كان مثله جاهزاً. قالوا، وقع على أقوالك. فوقع على أقواله.

ماذا كانت أقواله التي وقع عليها بمحض إرادته؟!

****

أنا المدعو أحمد ربيع، أعترف وأنا بكامل قواي العقلية، ومن دون إجبار أو إكراه، على ارتكابي الجرائم المنسوبة إليَّ.

لـمّا كنت أتردد على الفنانة المعروفة دنيا بصفتي كاتباً صحافياً، في

منزلها الكائن في حي المزرعة جادة النهر، متقصياً أخبار نشاطاتها الفنية لنقلها إلى الصحف والمجلات، اطلعت على أوقات عملها خارج البيت، وأوقات تواجدها فيه. في يوم الأربعاء الماضي، تعمدت الذهاب إلى بيتها وكلي ثقة بأنني سأجد أختها دينا الصغيرة بمفردها. حدث ما توقعته، فتحت لي الباب، واعتذرت بأن أختها دنيا في التصوير، فسألتها الدخول لأنتظرها ريثما تعود. قالت بأنها سوف تتأخر ولا تستطيع استقبالي خلال غيابها. أصررت على الدخول، وعندما مانعت، دخلت عنوة، دفعتها أرضاً وأغلقت الباب ورائي، شحطتها من ذراعيها إلى الداخل وهي مغمى عليها، كممت فمها وقيدت يديها، ثم مزقت عنها ملابسها. غلت الدماء في عروقي من مرأى جسدها الأبيض عارياً، وجن جنوني من ضخامة ثدييها الكبيرين الريانين النافرين مثل رمانتين، فأخذت أمصمصهما وأعضعض يديها ورجليها وفخذيها ومؤخرتها. حينما صحت من إغمائها، ورأت ما أفعله بها، نزلت دموعها مدراراً واستعطفتني، فلم تجد مني أذناً صاغية، لأنني لم أكن أسمع. لم أرَ سوى أعضائها العارية، شهوتي لم تفرغ وأنا لم أرتوِ. هجمت عليها، واخترقت عذريتها وأجريت دمها. بعد أن قضيت وطري منها، فكرت بالهرب قبل أن يأتي أحد ويكتشف جريمتي، لكن جسدها المتورم أثارني من جديد وحرك غرائزي الحيوانية بقوة، فاعتديت على عفافها مرة ثانية، وأجريت دماءها أكثر. ومع هذا لم أرتو، منظر الدماء الغزير هيجني، فعاودت الكرة واغتصبتها من الخلف، أي من ط...ها (هكذا كتبت في الضبط) لم تردني صرخاتها ولم تردعني دموعها المدرارة، أو أشعر بالشفقة عليها وأرحم طفولتها وصغر سنها وبراءتها.

بعد أن قضيت مأربي الشاذ منها صحوت على فعلتي الشنعاء،

فهالني منظر البنت، كانت بين الحياة والموت. خفت مما ينتظرني من عقاب، فجال في خاطري قتلها لأخفي آثار جريمتي النكراء. قرأت البنت البائسة في عينيَّ ما نويت فعله بها، فأخذت تقبل قدميَّ متوسلة الرأفة بها، والإبقاء على حياتها. رق قلبي لها، شهرت سكيني وهددتها بالذبح في حال أفشت السر لأختها دنيا. ثم تركتها في حالة يرثى لها. لم أستطع الهروب من جريمتي، ضميري الميت استيقظ، لم يدعني أنعم بالنوم الهنيء، عذبتني مخاوفي أشد العذاب، سلبت فتاة صغيرة شرفها. وتمنيت الموت ألف مرة، الله لم يرد لي النجاة بجريمتي، فعاقبني، قُبض عليَّ، ووقعت في شر أعمالي.

وُجّهت إلى أحمد ربيع بموجب اعترافه الجرائم التالية: اقتحام منزل عنوة، الاعتداء بالضرب على الضحية، اغتصاب قاصر، جماع على خلاف الطبيعة، التهديد بالقتل.

في اللحظة التي وقَّع فيها على اعترافه، راوده إحساس جازم بأن الضبط لا يعنيه شخصياً، بل يعود لرجل أوقعه سوء حظه في قبضة القانون الغليظة. وعندما دفعه أحدهم إلى غرفة أخرى، وأغلق الباب وراءه، أسدل الظلام أستاره الكثيفة دفعة واحدة على المرئيات، وخلَّفه أسير جدران وتخيلات واهية، لم يزد فيها الاستنطاق والتعذيب والاتهامات عن مشاهد خاطفة في مسرحية أنهت فصلها الأول بسرعة.

الانطوائي: عودة إلى الوراء

لم يذهب به التفكير نحو ذلك المنحى المسرحي الخفيف غير الملائم لهذا الظرف العصيب، إلّا بسبب علاقته بالمسرح، وكان ذلك في زمن غير بعيد، زمن لا يزيد على ثلاث سنين. الآن، بدلاً من أن يرمي عنه غفلته ويستوعب وضعه كمجرم في نظر القانون؛ سيطرت عليه فكرة مرهقة، ترى هل سيتمكن من اجتياز المسافة الفاصلة بين منصة العرض ومقاعد النظارة؟! أما في أي اتجاه، فقد كان محتاراً بين صالة اعتاد أن يكون موقعه فيها متفرجاً، وبقعة أدى قبل قليل فوقها دوراً في بروفة طارئة، وتلقى ضرباً لا يطيقه ممثل، ولا يتحمله رجل في العالم، حتى لو كان تمثيلاً.

وبالرغم من مأساوية مأزقه الشنيع، لم يأخذ ما قد ينجم عنه بعين الاعتبار، بقي متسمراً في المكانين معاً!! إلّا إذا كان يتهرب من المواجهة عمداً بالبقاء معلقاً بين هنا وهناك، يتفرج هنا ويمثل هناك.

وفي حال أراد أن يسبغ على ما حدث مسحة هزلية تحت زعم أنها مزحة غليظة، فلاشك بأن الهزل في مثل هكذا قضية ومع أناس لا يتذوقون طعم الفكاهة، رعونة بلهاء. خاصة وقد خالطت المزحة بضع جرائم من العيار الثقيل جداً.

****

تداعياته لم ترد عبثاً، ستعود به إلى عالم المسرح الذي لاءم من قبل تركيبة شخصيته المنقسمة بين الانطوائية والانبساطية، وقد كان أميل إلى الشطر الانطوائي منها ذي المساحة الأكبر، وتشهد سوابقه على لجوئه إليه واستئناسه به، مذ وجد نفسه يشارك الطلبة في باحة المدرسة تحية رفع العلم صباح يوم السبت وتنزيله يوم الخميس.

المدير يهتف: أمة عربية واحدة.

فيجيب الطلبة بصوت واحد: ذات رسالة خالدة.

المدير يهتف: أهدافنا.

يجيب الطلبة بالصوت نفسه: وحدة حرية اشتراكية.

شكلت الشعارات بخلودها القومي عبوراً إلى الخلود على متن حلم بوطن كبير عظيم متسع ومترامي الأطراف. في سنواته الغضة تلك، كان النهوض بها عبئاً رائعاً، لا يستطيعه سوى طلبة الصفوف المتقدمة. أما هو، وكان طفلاً نحيلاً منذ نعومة أظفاره، لا يدافش ولا يخانق، لا ينطوط ولا يركض، من النوع الرخو، ضامر العضلات الهادئ والمهذب، فقد خجل من عدم قدرته على الرد بحرب شعواء على القوى الإمبريالية، وكانوا أشبه بغزاة قبيحين من

الفضاء الخارجي، مدججين بالأسلحة الفتاكة. كانت الشعارات من فرط العزم والقوة التي تُنطق بها معضلة شائقة وجسيمة. عضدتها الرهبة والإكبار من الأهداف العظيمة والواجبات الجليلة. وإلّا لماذا تتنطع لها الهيئة التعليمية والراديو والتلفزيون؟! ما استرعى انتباهه وغاظه، عناية المدير والأساتذة الفائقة بأولاد الضباط والمسؤولين على الرغم من كسلهم وميوعتهم!! وقاده جسمه النحيل وعقله الصغير الذي لم يستوعب تمييزهم هذا إلى انطواء بعضه في بعضه.

وسوف تكرس منظمة شبيبة الثورة الشعارات نفسها. وكان الانتساب إليها اختيارياً، لا يكلف جهداً ولا ذكاء، مجرد قضاء ساعة من الزمن بعد انتهاء الدوام المدرسي مرة واحدة في الأسبوع يتلقى فيها الطلبة المبادئ النظرية للحزب. لكن أباه، وكان حلاقاً في حي الشاغور اعتزل المهنة بعد إصابته بداء الرجفان، غضب ومنعه عن حضور اجتماعات مضيعة للوقت، وأفهمه بصعوبة شديدة مع جرش حزين في الصوت، والكثير من الإشارات والارتعاشات بأن المنظمة على علاقة بالحزب، والحزب كافر، والحزبيون جماعة من الملحدين، ما بيعرفوا الله ولا حتى بالإشارة، لا يعتقدون بدين ويهزأون من الرسالات والعبادات، يبثون أعوانهم في الحارات ليدبجوا التقارير بالمؤمنين الذين يؤمون المساجد.

تعجب الولد الصغير من خبرة أبيه بخفايا الحزب، وهي شأن سياسي، لا علاقة له بالحلاقة!! لم يكن يعرف بأن أفراد الشعب في العقود الماضية كانوا يتكلمون بالسياسة جميعهم؛ من البويجي إلى رئيس الجمهورية، ومن أصغر عسكري إلى أكبر ضابط. وكانت دكاكين الحلاقين مركزاً لتبادل الأخبار وإشاعتها وتقييم سياسات الدولة الداخلية والخارجية. حافظ الحلاق أبو أحمد على أصول مهنة

الحلاقة العريقة وملحقاتها من قلع أضراس وتكحيل مضاد للرمد وعلق لامتصاص الدم الفاسد. وكان معلماً في قش الذقن وقص الشعر ونتف شعر الوجنتين والأذنين، يسخو بالكولونيا الفواحة والمنعشة على زبائنه، وينهي الحديث والحلاقة معاً بقوله للزبون: نعيماً. فيسمع الرد: الله ينعم عليك. لم يكن ثرثاراً كغيره من الحلاقين، الكلمة ورد غطاها، انتقاداته السياسية تصيب هدفها حينما يفرض حدث محلي أو عالمي نفسه، السياسة من عدة الشغل ولوازمه، حتى أن الناس كانوا يحلقون لكي يلغوا بها، ولم يكن أحد يتصور الحلاقة نظيفة من السياسة، وإذا حلق ولم يتناقش في السياسة، فكأنه لم يحلق.

كان أبوه متديناً، أسوة بغيره من الدكنجية والصنايعية، جدران محله تغطيها الآيات القرآنية، يتصدق ويحلق للفقراء ببلاش ويصلي في الجامع القريب. عاصر في شبابه السنوات المضطربة قبل الاستقلال، والسنوات الواعدة بعد الاستقلال، والحرب العربية الإسرائيلية الخاسرة والأحلاف الغربية والانقلابات، وسنوات الوحدة السورية المصرية، ثم الانفصال وبعده الثورة التي كرست الانفصال وأبقت شعار الوحدة مرفوعاً، وأضافت إليه الاشتراكية والحرية. وشهد مظاهرات الوحدويين تجوب الشوارع، ومظاهرات الإسلاميين تنطلق من المساجد، وتفريق الشرطة لها بالقوة، ومحاصرة الجيش للجامعة والمدارس والجوامع واقتحامها، دونما حساب لحرمتها الدينية والتعليمية، يا غيرة الدين والعلم!! لكن من يسمع؟! بعدها إذا كان الصمت هيمن على البلد بأسرها، فكيف لا يخرس الحلاقون، ويصيبهم الصمم إذا خطر لزبون التكلم في ذلك الداء الملعون؟!

وسوف تفزعه أهوال الصدامات الكبرى بين السلطة والجماعة

الإسلامية المسلحة، ويرى فيها حرباً تدور بين المجاهدين والملحدين، حرب انتهت بهزيمة المسلمين وانتصار الكفار، لكن إلى حين. ونبه ابنه، إياك وأن تنطلي عليك مظاهر التدين الكاذب للسلطة الكافرة والحزب الملحد.

أحمد نازعته نفسه البقاء في منظمة الشبيبة، خفية عن أبيه. كانت دروس التربية القومية تترك في داخله، من فرط تأكيدها على خطر الأطماع المحدقة بالبلد، إحساساً فادحاً بالتقصير؛ الحزب يخوض معارك شرسة ضد الاستعمار وعملائه من الإقطاعيين والبرجوازيين. لكنه لم يتجرأ، كان أبوه المثال الفاضل والصامت للتدين وحسن الخلق والرضى بما قسمه الله له من صحة ومرض وذرية لم تزد عن ولد واحد. أحمد كان يريد أن يتبع خطواته، في الوقت الذي كانت فيه الثورة تحرق المراحل، فرأى كيف أحرقت وقتلت ودمرت، فاستنكر ما خطر له من أفكار شبيبية. فارتد عما خطر له، ولم يعصِ نصائحه، وتمسك بالدين الحنيف والأخلاق الحميدة؛ عالم فانٍ، ما نأخذه معنا إلى القبر هو صلاتنا وعملنا الصالح.

كان الحزب رقيباً على الدولة والمدارس والباعة والمواطنين، ومنح هذا الامتياز لأبنائه من الشبيبين النشيطين المتميزين، ليواصلوا الكفاح ضد الأعداء، ويكونوا بدورهم رقباء على الطلبة والأساتذة. فتمتع الشبيبيون المتحمسون بما تمتع به الحزبيون من سلطة وسطوة. ولم يكن نضالهم في سبيل الوطن عسيراً، كان تسليات ومرحاً واجتماعات ورحلات ومعسكرات صيفية. وبلغ الإغراء أشده، عندما وعدت المنظمة أعضاءها منحهم علامات إضافية في الامتحان التعجيزي للبكالوريا. فعاش صراعاً مع نفسه الطموحة والطماعة، كانت الغلبة فيه للأخلاق الحميدة. وسوف يحسم موقفه

نهائياً وكان في عز مراهقته، ويختار أن يكون لاشبيبياً؛ مجرد طالب لا غير؛ رضا الوالدين أولى من كسب بضع علامات. وكما رباه أبوه، سيكون مثالياً في تعامله مع الآخرين، وحتى عندما اعتقد بأن الطلبة سينظرون إليه بريبة، اختار التعرض للشبهات على أن يكون شبيبياً مرهوب الجانب، ولو كانت الضمانة مستقبلاً لامعاً.

أما الثورة التي تخيلها من قبل، مأثرة كبرى تفوق بطولات المسلسلات التاريخية، فقد نفرته منها مظاهر عيدها السنوي، وحالت بينه وبين التفكير بالالتحاق بها، عيد يمتد أسبوعاً قابلاً للزيادة؛ ولم يكن أكثر من مسلسل شاق يشغله الخطباء والاستعراضات والعراضات والتجمهرات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية والأغاني الوطنية تدوي دون كلل أو ملل؛ تعج بالأبطال من الرجال البدينين والشوارب المفتولة وجعير الحناجر. وسوف يعاني من الثورة، عندما سيجبرونه في المدرسة على المشاركة في الاستعراضات الرياضية المقامة في الملاعب، فناله من تكسير الرجلين والجوع والعرق، ما جعله يحقد عليها.

كان هزاله لافتاً للنظر، ليس لسوء التغذية، وإن لقبه رفاقه بالسحنوك، وإنما لإحساسه المرهق بالمنافسة، كان عليه أن يثبت شطارته بالرغم من سحنكته وانتفاء شبيبيته، فانعكست على انطوائيته التي أخذت تتقلص وتتمدد حسب الظروف؛ تتقلص عندما يتفوق على أقرانه في الدراسة، وتتمدد عندما يتفوقون عليه في النشاطات الشبيبية. فتجاذبت تحصيله الدراسي المخاوف الدائمة. منذ البداية أدرك أنه مهدد، إذا لم ينضم إليهم فسوف ينبذ، وإذا أصبح مثلهم فلن يزيد عن انتهازي تافه. غير أنه لم يتراجع، ما الذي يعنيه، هو أو غيره، من الشبيبة والثورة سوى العلامات الإضافية؟

في الجامعة، تابع مسيرته الانطوائية، ولم ينتسب إلى الاتحاد الوطني للطلبة، وكان الناشطون منهم، يستعرضون بمناسبة، ومن دون مناسبة، بلاغة قوميتهم الخطابية وينظمون المظاهرات ويعقدون الندوات والأمسيات الشعرية والعروض المسرحية، ويهتفون في المؤتمرات الجماهيرية، ويشاركون في المعسكرات التثقيفية، وبالمقابل ينجحون على جميع الأصعدة، في الأدب والعلم والامتحانات ومع الرفيقات.

تجنب أحمد الاجتماعات الطلابية الحاشدة والأعمال الجماعية والمشاركة في المناقشات، واقتصرت علاقاته على بضعة شبان؛ وكانت أقرب إلى الزمالة منها إلى الصداقة. لم يرتح الحزبيون إليه، لم يكن ابن مناضل ولا عامل أو فلاح، ولم يأت من القرية، بل من المدينة، ابن حلاق، يسكن في حارة قديمة تعشش فيها تقاليد متزمتة وعادات سخيفة. وعندما لم يجدوا في تصرفاته ما يدعوهم للشك فيه، وصموه بالدهاء والخبث، ومن سوء حظه، صادفه ناشطون مخابراتيون، يبحثون عن غنيمة رجعية، فاتهموه طبقاً للمبدأ التقدمي المعروف: إن لم تكن مع الثورة فأنت ضدها. وكانت سلبيته خير دليل على رجعيته.

بعد هذا المشوار الطويل، أيقن بأنه عدو للثورة، لِمَ لا، ألم تحبطه؟ كما أنه لم يقتنع بها، ثم إنها أهملته وعادته دونما سبب. وإذا كان قد حاول التعرف عليها، فلم يتطابق ما كان يسمعه عنها، مع ما كان يراه بأم عينيه !! وسوف يواتيه شعور بأنها لن تدعه في حاله، وتطارده من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان.

خيفة من انكشاف أمره، تصلبت انطوائيته واتخذت شكلاً مصمتاً،

أخفى وراءه عدائية صامتة لا حول لها ولا قوة، مسالمة دونما نزوع أو حتى تفكير بالقيام بأي قول أو فعل مضاد للحزب والدولة. ولئلا يستفزهم ضده، لم يمارس أية مظاهر إيمانية، لا لحية ولا عبادات. كما كان إيمانه قد تراجع مجاراة للعصر ولأسباب فكرية، بينما كان أبوه وأمه يؤديان الصلاة في أوقاتها، لم يفوتا فرضاً ولا سنة، وقاما بأداء فريضة الحج عندما أحسا باقتراب الموت، وكان إحساسهما في محله.

أخذته دراسة الأدب العربي إلى الاطلاع على السمين والغث من التراث الشعري والنثري، وأرسلته هواية المطالعة الحرة إلى الآداب الأجنبية بأنواعها الرفيعة وغير الرفيعة، وقرأ الكتب التنويرية، فتنور عقله ورفض الخرافات واليقينيات والمطلقات، فتراخت ثوابته الأخلاقية العمياء، وباتت عرضة للمراجعة. بل ومن فرط ما تنور أصبح ملحداً لبضع سنوات، وصان سمعته الإلحادية البطولية مما قد يلحقها من تهافت، بنزع هذه الصفة القيمة عن الحزبيين الثوريين واعتبرهم غير جديرين بها، هؤلاء لا يهمهم الكفر ولا الإيمان، وإنما السلطة والتسلط، والله بالنسبة إليهم قضية مؤجلة إلى أرذل العمر.

أما ما تبقى من ثوابته الأخلاقية، فقد حافظ عليها بقوة دونما تراخ. لم يعد متشدداً في انطوائيته، مال إلى الجانب الانبساطي الضيق والعابث من شخصيته. فمدد سنوات دراسته بالرسوب المتكرر، وتنوعت صداقاته وكانت عديدة وسطحية، ولم يبال بطهارته، بعد أن افتقد البراءة لدى الفتيات، فأصيب بصدمة أخلاقية مبكرة. بعدها اتخذ تعرفه عليهن إيقاعاً متسارعاً ومفلوشاً، لم يتوخ العفة مع زميلاته اللواتي يرغبن بالتسلية تحت مزاعم الزواج، كذلك لم يعد يقسو بأحكامه على أمثاله من الطائشين.

استمتع بحرية فكرية عشوائية، لم تلزمه بمبادئ حزب أو منظمة، فلم يهتم بالبعثات، وكانت فرصة ليلتحق بحزب يساري يعوضه عما فاته من منافع ببعثة إلى بلدان أوروبية شرقية يظفر منها بدكتوراه أو ماجيستر قبل أن تودع اشتراكياتها الفقيرة، وتذهب في طريق الرأسمالية الحافل بالرفاهية، لكنه ثبت على مواقفه النزيهة رافضاً الوصولية وأساليبها الدنيئة. ولم يكن مغالياً في شعوره بالاحتقار نحو الحزبيين نهازي الفرص الجشعين.

بعد تخرجه من الجامعة، سيجد أقرانه الحزبيين تسلموا مناصب واعدة، أما الذين سيعودون بالشهادات العالية فسوف يتسلمون مراكز أكبر وواعدة أكثر. في حين كان نصيبه الشوارع، يذرعها طارقاً أبواب الوظائف دون جدوى. حال تصنيفه المخابراتي كمعاد للحزب بينه وبين وظائف الدولة؛ كانت الثورة قد أدركته فعلاً وأخذت تحاسبه. سنوات وهو يتنقل من عمل صغير إلى عمل أصغر، دون أن يستقر على واحد منها، وكلها لا علاقة لها بالتدريس ولا بالأدب العربي. الثورة بدأت بالانتقام منه بواسطة أجهزتها من الجمارك والصحة والتموين، لو كان حزبياً لما تعرض له أحد.

في تلك الفترة تابع سيرته التحررية، وكانت عدمية بفعل ما ناله من إجحاف وغبن، في حين كان زملاؤه يرتقون، وأحياناً يقفزون، درجات السلم الوظيفي. وكرد فعل، لم يوفر مغامراته النسائية من بضع أكاذيب جميلة استثناها من نهج أخلاقياته الرصينة، كانت فورة الشباب تغفر وعود الأحلام، وهي أساليب يلجأ إليها الشبان ذوو الدخل المحدود ليصلوا إلى مأربهم، وغالباً كان المأرب نفسه قد سبقهم إليه غيرهم من ذوي الدخل غير المحدود.

لم يطمح إلى شيء، قدر ما طمح إلى أن يكون أستاذاً للغة العربية، يُدرج في دروسه الأمثال والأمثولات المفيدة على نمط المعلمين الكبار، وينقل إلى تلاميذه تعاليم الحكمة، مع أن نصيبه من الحكمة كان متواضعاً، إن لم يكن زهيداً، حتى هو لم يتقيد أو يعمل بها على الوجه الأمثل. كان يرغب في أن يوصل إليهم تجربته التي توانى عنها: تعاملوا مع الحياة بجسارة، لا تنطووا على أنفسكم، ولا تخافوا... أي ما كان أسيره، وكل ما أخفق فيه، ولم يعد بوسعه تداركه؛ لئلا يصيبهم ما أصابه. لن ينقل درسه لأحد، وإنما سيحمله، كما قُدر له، بضع سنوات، إلى أن أصبح موظفاً.

الانطوائي موظفاً في جريدة

ستسخر منه الأقدار وتشمت، ويقبل بعد صمود طويل وعلى الضد من مبادئه السياسية الرجعية وتقلباته الأخلاقية القويمة، بتوسط زميل حزبي يعرفه أيام الجامعة، أصبح له شأن في السياسة، رد إليه جميلاً أسداه إليه أحمد في الجامعة، عندما أعاره ملخصاته لمواد السنة الرابعة، فأخذها ولم يعدها إليه.

لم ينس الزميل معروفه، فبادله بمثله بعد سنوات، أبطل مفعول التقارير الكيدية، ووظفه في جريدة يومية محرراً في الشؤون الثقافية. لم يزكّه تفوقه في الأدب، زكّته انطوائيته النظيفة، عززها في الوظيفة، وكانت سر بقائه على رأس عمله، رغم كونه دخيلاً على عالم الصحافة الموجهة. خلالها استقرت أحواله، وسعى ليصبح رب عائلة مستقيماً، فتزوج. زواجه لم يطل أكثر من سنتين، طلبت زوجته الطلاق.

كتب مثلما تمنى عن المثاليات والأخلاق والخير، لم ترضه، كان الجميع يكتبون على شاكلته، لكن بنفحة ثورية. بينما على المستوى الواقعي، أي داخل مطبخ الأفكار المثالية الثورية فسوف تهوله ألاعيب الموظفين، وكانوا من الكتاب الموهوبين وأنصاف الموهوبين أو بلا موهبة على الإطلاق سوى المهارة في تنجير الخوازيق وحياكة الدسائس وإرسال التقارير إلى مقاصدها، وطبعاً تداول النمائم اليومية عما يدور في كواليس الجريدة. كانت مشوقة ولا تفتقر إلى الإثارة، لكنها لم تحظ باهتمام الخارج لتعلقها بالشؤون الداخلية، وفيها يتقول الجميع على الجميع عن الاستئثار بالمهمات والإضافي والاستكتابات، وتخصيص الموظفات الصغيرات في السن للمديرين الكبار في السن، مما يستدعي كل فترة بعض التغييرات والمتغيرات، للأحسن أو الأسوأ.

استعاد انطوائيته، بعدما كادت أن تنفرد. من طرفه لم يسهم في تسويق الشائعات وإيصالها إلى أصحابها المغبونين أو أولاد الحرام، ولا التبرع بتقارير طوعية أو مأجورة، أصلاً لم يكن مسموحاً له بممارسة أي نوع من تلك المهمات السرية، فلم يلوث أخلاقياته. كان قد أخذ على نفسه عهداً: لا نفاق، لا رياء، لا تزلف؛ وإن سمح لنفسه بالقليل من الكذب دفعاً للبلاء، دون أية محاولة للحصول على منافع مادية أو معنوية، فيما كان الآخرون يبذلون حزبيتهم رخيصة ويغنمون عنوة مكاسب صغيرة تافهة أو كبيرة مجزية. وأضاع فرصاً كانت ستسنح له، لو أنه استدرك ما فاته وأصبح ثورياً. كان في منتهى الرضا عن سجله الخالي تماماً من أية شبهة وصولية، مما أعطاه بالمقارنة مع الآخرين تميزاً واضحاً، أراح ضميره المسلكي والأدبي والشخصي.

عندما انتدبه مديره في الجريدة لمتابعة الموسم المسرحي، تردد، لم

يكن من هواة المسرح، وإن كان قارئاً نهماً للمسرحيات العالمية. قال له مديره، جرّب. ولم يخطر له بأنه سينطلق من الأجواء الخانقة للجريدة، إلى الأجواء الرحبة للمسرح، ويصبح من عشاقه الأوفياء. اكتشف في داخله موهبة فاجأته، النقد المسرحي!! كتب بإخلاص وتجرد، وانتزع إعجاب المهتمين، والأغلب لقلة النقاد المتمكنين. مع الوقت، أصبح المسرح بالنسبة إليه، أشبه بطوق نجاة في عالم يغرق في وحل السفاسف الوظيفية. وكان من الطبيعي أن يرتجي تقديراً لجهوده، لكن المكافآت والترفيعات كانت محجوزة للآخرين. لم يفقد الأمل، راهن على المستقبل، يوماً ما لن يصح إلّا الصحيح، على أن المستقبل كان في حالة تأخر دائم.

لبى عالم التمثيل رغبة طالما تمناها. كان الممثلون يتخفون وراء أدوارهم، والعالم يتوارى وراء العرض المسرحي، وساعداه على مقاربة لغط الحياة وجنونها، من خلال مسافة تبقيه على مبعدة منها، تمنحه فرصة لتأملها، وتشريحها بشدة وقسوة. لاقى المسرح هواه. جسّدت عروضه المتنوعة، نمطاً للعيش، مشبعاً بمتعة تشخيصية سخية بلغت حداً مثيراً من الرخاء الفكري، دفعته إلى الانكفاء عن الواقع المحيط به إلى واقع تخييلي أكثر تحديداً وكثافة، ذهب به إلى الأسئلة الكبرى ومعضلاتها وإشكالياتها؛ والأروع، معاناة المآسي الإنسانية بالقدر الذي يطيقه، على نحو عميق وجمالي وبحيوية زاخرة بمشهديات طلية طافحة بالفجيعة والمرح. شجعته على تقنين روابطه بالبشر والشوارع والحارات ومكاتب الموظفين، فلم يمسه ما كان يؤول إليه العالم من انحدار وتفسخ.

لم ينفصل عن رعب الحياة فحسب، بل ورعب المسرح أيضاً، ثمة حاجز من المقاعد والمتفرجين؛ هناك على مرمى البصر، تأخذ

الأحداث أبعادها في فضاء صغير، يكابد أبطالها الآلام ويعانون العذابات، ويبالغون بتضحياتهم، وفي الختام يبلغون ذرى الحقيقة. لكنهم، في حقيقتهم... لا يزيدون عن ممثلين، مجرد ممثلين لعشاق وحساد وأغبياء ومجرمين وأنذال وشياطين. وهو على الطرف المقابل، متفرج لا يزيد عن ناقد في جريدة، الأمر بينهما وظيفة متفق عليها؛ يخرج منها بلا خسائر، فلا دموع سفحت ولا عواطف انتهكت. ودائماً تمثيلهم لا يُغيِّر، ونقده لا يُجدي، وإذا كانوا قد تضايقوا منه، فقد كالوا له صاع النقد بصاعين من الشتائم، تطورت أحياناً إلى اشتباكات بالأيدي.

****

لم يكمل عامه الأول، عندما دهمته المناسبات الوطنية. طلب منه مديره الكتابة عن منجزات الثورة أسوة بغيره من محرري الجريدة. فاستعاد وسواسه القديم منها؛ الثورة تتعقبه من جديد، ثمة جولة أخرى، هل سيخسرها؟ رأيه بالثورة كان قد تفاقم وأصبح سلبياً تماماً. الحقيقة، هذا ما صارح به نفسه، بعد قضائها على البرجوازية، لم تنجز شيئاً ذا بال، وما أنجزته فعلاً طبقة من الطفيليين واللصوص والمنتفعين والكثير من المحرومين، ومن جانب آخر، كانت ثورة خلاف جميع الثورات التي قرأ تاريخها، وآمن بها. أُعجب بالثورة الفرنسية والروسية والصينية والكوبية والفيتنامية. صحيح أنه اشتهر عنها جميعها بأنها أكلت أبناءها. حسناً، لكن ثورتنا بعدما أكلت أبناءها الأوائل، ارتد عليها الورثة، وأكلوها وابتلعوا معها الدولة بمؤسساتها ومصانعها ومرافقها العامة. فكيف يمدحها؟!

طلب إجازة مرضية واختفى، فلم ينتبه أحد إليه. لكن الزمن دوار،

عاد به بعد سنة بالتمام والكمال إلى عيد الثورة ومنجزاتها. وتجدد الطلب نفسه، فعاش صراعاً مريراً؛ سقط على أثره مريضاً من فرط الذعر والحصر، ضربته سخونة عالية، لم تحير الطبيب، أعطاه خافض حرارة ومسكن ألم ومهدئاً، ونصحه بشوربة وكمادات باردة، مع ساعات مديدة من النوم. فنجا من المرض والكتابة معاً.

على أن الثورة كانت له بالمرصاد. مرة أخرى، دار الزمن دورته، قبل أن يكملها، استعد أحمد لها قبل حلول عيدها، لفت نظر مديره إلى أن الحقل العام ليس من اختصاصه المسرحي. رفض مديره حجته، الثورة حقلنا العام والخاص، ويقع على الجميع تبيان مآثرها، ألم تصبك خيراتها؟! يكفي أنك تعمل في الدولة، الإشادة بها لا يقتصر على جانب واحد منها، ما أكثر جوانبها المعطاءة، وما أكثر ما نحن مدينون لها. بالنسبة إليك، اكتب عنها في مجال المسرح، حقلك الخاص.

فَكَّرَ، هذا يعني أن يبتكر للمسرح نجاحات ويحيلها إلى إنجازات للثورة.

وماذا عن الإخفاقات المسرحية؟!

إذا كان... فلأنها لم ترتق إلى تطلعات البلد الثورية في بناء العدالة الاشتراكية.

فصمت ولم يبد تجاوباً. عندئذ استرجع المراقبون العيدين السابقين، وتذكروا أنه كان مريضاً في المرتين، ولم يكتب شيئاً!! الواضح أنه يتمارض، فتداولوا بشأنه على هامش الاجتماعات الحزبية واختلفوا

حوله، ودارت وشوشات... تذكروا أيضاً أنه لم يكن على وفاق مع الاتجاهات الهادفة في المسرح، ولمح أكثر من مرة في مقالاته إلى أنها تتستر على المشكلات الحقيقية للإنسان، بإبراز الإنسان الاشتراكي، وهو إنسان لا وجود له!! وتعتمد الزعيق الثوري بديلاً عن التمثيل الواقعي. هل يرسلونه إلى المخابرات، أم يصبرون عليه قليلاً؟ عيد الثورة على الأبواب، عندئذ ستنكشف حقيقة نواياه.

وصلته الوشوشات مرفقاً بها ما دار بشأنه، فتمنى من شدة ما عاجله من هم وغم أن يسعفه الحظ ويسقط ميتاً، قبل أن يرسلوه إلى حيث لا يعرف أحد مكانه. على أن مصادفات الموت ستنقذه، سبقته عمته إليه، وتركت له إرثاً يغنيه عن الوظيفة، فرجع من تلك الفسحة الرمادية الشفافة الواقعة بين داري البقاء والفناء.

لأول مرة يسجل انتصاراً على الثورة، بنجاته منها قبل أن تقضي عليه، وخرج حياً من معركة فاصلة لم تحدث، وقدم استقالته من العمل لخطورة وضعه الصحي. كان تكرار وقوعه في المرض، واصفراره الدائم ونحوله المقيم، دلائل على أنه إن لم يكن من المرضى الدائمين، فمن المتمارضين المتمرسين، وليس من المعارضين الشرسين للثورة.

كان الإرث عبارة عن منزل، بادر إلى تأجيره، فضَمِن له عائده الشهري، الحد الأدنى من متطلباته المعيشية. لم يكن الإيجار كبيراً، لكنه كان كافياً. قنع به حفاظاً على بقائه على قيد الحياة، وذوداً عن حريته في الكتابة، المهم شرف الكلمة، لن يمسها بالأكاذيب، ولن يكرس قلمه للأضاليل.

باتت الكتابة مسألة مزاج، هواية، متعة وتهويمات. لكن وهو سؤال جوهري، ما الذي سيكتبه إن لم يلتزم بحزب موال أو معارض للسلطة، ولم ينتسب إلى منظمة علنية أو سرية، ولم يكن عضواً في جمعية بيئية أو ثقافية أو خيرية؟! ومع هذا حاول، كتب ما آمن به، وكان هزيلاً، وما أملاه عليه ضميره، وكان ضئيلاً. لم تدع ممنوعات الرقابة فسحة للإيمان ولا للضمير، على أنه وبجلاء لم يتعرض للسلطة، فلم يُمس بسوء. وهكذا لم تتعرض معتقداته ولا ضميره للامتحان.

بعد سنوات، كان حصيلة ما كتبه قليلاً، وأشياء لا تستحق عناء الكتابة، ومقالات عن سفسطات، أو لا شيء. كانت صلته قد انقطعت مع الكثير من الأشياء التي أحبها، وفي مقدمتها المسرح، وإذا كان بين الفينة والفينة يرمقه من بعيد وبحسرة، فلأنه كان العمل الوحيد الذي توافق معه وجعله يحس بالعالم من حوله. على أنه لم يتوقع من مسرح مثَّل له في الماضي التقية والأمان، أن يخدعه اليوم ويتخلى عنه ويرمي به، دون أن يكون مستعداً، إلى الحياة، وجهاً لوجه.

قاضي التحقيق

أنكر أحمد أمام قاضي التحقيق أقواله، ادعى أن اعترافه ملفق بالكامل، والضبط برمته من تأليف شرطة المخفر، اضطر إلى التوقيع عليه تحت التعذيب. لم يقل القاضي شيئاً، تأمله بسأم، لكن برحابة صدر؛ بخصوص التعذيب كان متأكداً من عدم كذبه، يدعمه الطبيب الشرعي؛ تقريره كشف عن إصابته بعدة رضوض، مع أنف مكسور، وفك مخلوع، وكدمات تملأ جسده. الأسلوب العنيف المنتهج في مخافر الشرطة لا مفر منه، وإلّا كيف يتغلبون على دهاء المجرمين، ويفكون عقدة ألسنتهم؟! بالنسبة للضبط، لم يكن واثقاً، الأغلب أن مساعد الشرطة كاتب الضبط أضاف إليه ما يؤيد وجهة نظره.

لم يستغرب قاضي التحقيق تصرف المتهم، كان عادياً وشائعاً بين المجرمين الأقحاح أصحاب السوابق، والمبتدئين منهم أيضاً، ما يعترف

به المتهم في المخفر ينكره أمام قاضي التحقيق. لم يشعر بالرأفة نحوه، حتى لو كان الضبط مبالغاً به فهو يستحق الضرب، لأمر لا يمكن غفرانه؛ المتهم من أصحاب العمارات والأطيان، العاطلين عن العمل، الأغنياء بالوراثة، الطبقة الأكثر تحللاً وتسيباً.

بعد سؤالين، تراجع عن ضغينته الطبقية، أملاك المتهم لا تزيد عن بيت صغير ورثه عن عمته، يعيش من ريعه عيشة الكفاف، يقيه شر الحاجة ويسمح له بكتابة مقالات حسب مزاجه في الأدب!! ساعده تأجير البيت على تقاعد مبكر، لكي كما قال بصراحة، لا يأتمر بأوامر مديره، أو ينصاع للخط الرسمي للجريدة، أو يتقيد بالتعليمات والنواهي والمسموحات والممنوعات. لم يصدق استرسال المتهم في إبداء نزاهته الفكرية، فلم يسأله المزيد، ما له ولهذه الحذلقات الوظيفية، مزاعمه حول حرية الأدب، وتباهيه بعدم قبوله بأي تسلط من أية جهة كانت، ليست إلّا ادعاء يحاول القول من خلاله، إذا كنت من أجل الأدب لم أنصع لأوامر الدولة (على أساس أن الجريدة تمثل سياسة الدولة) فانزع من ذهنك تورطي بارتكاب أفعال غير أخلاقية.

قبل هذا، هل يحتاج الأدب إلى هكذا تصلب؟! الأولى أن يترافق التصلب مع الأخلاق. كما أن المتهم لم يكتب في السياسة والفكر، بل في المسرح!! هل هناك ممنوعات في المسرح؟! متى كانت هناك قيود على الدموع وتقنين على الفرفشة؟! مظهره مقنزع، وحركاته لا تخلو من غرور، على نمط تلك العينة المائعة من المثقفين الرقيقين، يخشون على رهافة أحاسيسهم، من أدنى انزعاج، فيستقيلون من وظائفهم لئلا يمسهم أقل انتقاد، ويخفقون في البقاء على مستوى قنزعتهم، ثم لا يتورعون عن ارتكاب جرائم، ينطبق على مرتكبها

وصف وحش بشري، هل هناك أدق من هذا الوصف لهذه الجريمة الجنسية المنحطة؟!

لم تكن تلك المفارقة الوحيدة في شخصية المتهم، ثمة مفارقة أخرى ومدهشة، سيبني المتهم دفاعاته، ليس على نفي الوقائع، وإنما على الطعن في الأسلوب الركيك لمحضر الضبط، أي الطريقة التي كتب بها، يا لمهازل المثقفين!! لأول مرة في حياته يصادف متهماً لا يلقي بالاً للاتهامات الموجهة إليه، ويلتفت إلى لغة النص مركزاً على مفرداته، داحضاً من خلالها اعترافه كلية، معتمداً على شهادته الجامعية في الأدب العربي وماضيه الصحافي، ومع هذا كان برهانه الطريف محكماً!!

«أنا لا أستعمل كلمات شهوانية سقيمة، مثل: أعضعض وأمصمص؛ أو تعبيرات مستهلكة كتشبيه الثديين برمانتين. إنني ككاتب مقالات ــ وباستطاعتك العودة إلى كتاباتي ــ لا أستسيغ هذه الألفاظ، بل أشمئز منها، ولا أستعملها إطلاقاً. كذلك لا تروق لي المعاني المهترئة والبالية مثل: اعتديت على عفافها، قضيت وطري منها، دموعها المدرارة، غرائزي الحيوانية. ما هذه سوى لغة محاضر تقليدية بدائية علاقتها بالخيال الغث المريض لشرطة المخافر، أكثر منها بالجنس الإجرامي القسري».

ابتسم قاضي التحقيق، فتجرأ أحمد:

«خصوصاً تلك الكلمة المبتذلة!! لم يفتك طبعاً كيف أشار إليها كاتب المحضر الخبيث عند العضوضة بالمؤخرة، ولم يجدها كافية عند الاغتصاب من الخلف، فلمح إليها بـ ط..ها، كأنه بإخفاء

حرفين يتستر على بذاءتها وسوقيتها، أليس هذا مضحكاً؟!»

هزَّ قاضي التحقيق رأسه بحركة لا إرادية، وكتم ضحكته، فتشجع أحمد:

«زد عليها تعبيرات بليغة وبليدة، يُقصد منها التدليل على تعمدي إلحاق الحد الأقصى من الأذى بالضحية، وبالمقابل تعبيرات أبلغ وأبلد، تضاعف من ندمي على جريمتي، دون الانتباه إلى التباين المفرط بينهما».

لم يلتقط القاضي المعنى تماماً، فتظاهر بفهم ما رمى إليه، مما جعل المتهم يتحمس:

«بل وبلغ بهم الدفاع اللامحدود عن شرف فتاة صغيرة، الاقتصاص من إنسان بريء لشبهة ضعيفة، لا أساس لها من الصحة. الشرطة، ولا بد أنك تعرف، لديهم قوالب جرمية جاهزة، وضعوني في أحدها، وقولوني ما شاء لهم، ألا توافقني؟».

قاضي التحقيق لم يوافقه، مجرد أنه كان مستغرباً حذاقة وصفه ودقته. فتابع أحمد:

«لاحظ معي مستوى الإدراك العام لمعنى الأخلاق لدى الشرطة، تجدهم يعنون بشدة الضرب والتهويل من الجرم المفتعل للمتهم، ويتبارون بحمية إلى تعذيبه، كأنه كافر ذبحه حلال، دونما أي حساب لكرامته الشخصية وللألم الجسدي والنفسي الواقع عليه. الأخلاق في أحسن أحوالها لديهم لا تتعدى التشدق بها. ألا توافقني؟».

قاضي التحقيق لم يوافقه ثانية، مع أن دفاعه راق له، هز له رأسه. فأكمل:

«واسمح لي بلفت انتباهك إلى تركيبة السرد في محضر الاعتراف، لا بد لاحظت أن فقراته مستعارة، جزء من الغرب وجزء من الشرق، ملتصق بعضها ببعضها دون جامع بينها. من ناحية، يمت الجنس والاغتصاب إلى تصورات أفلام العنف الأميركية الحديثة، وفي الجانب المقابل ينتمي تأنيب الضمير إلى تصورات الأفلام المصرية الميلودرامية القديمة. في البداية، يفتخر الفاعل بالاعتداء على عفافها مرتين واغتصابها من الخلف، ثم يتباهى بكل فظاظة بأنه أجرى دمها، بعد أسطر قليلة يتحرك لديه إحساس مروع بالندم مع ارتفاع صاعق لوتيرة تبكيت الضمير. الصلة بينهما نظرية بحتة، وضعيفة حتى في عالم السينما الهادفة والموجهة. ألا توافقني؟».

قاضي التحقيق سيوافقه ولن يوافقه. لكنه سيعترف في دخيلته، بأن تفنيداته صائبة تماماً، بيد أنها خارج الموضوع. الأفضل لو يفند الوقائع المادية بدلاً من دفاعات محض لفظية. من يهتم بهذه الكلمات والتعبيرات والتصورات، بل والتناقضات؟ لا أحد، لا هو ولا قاضي الإحالة من بعده ولا قضاة المحاكم الجنائية. الجلي أنها إنشائيات كلامية، لا تزيح عن الواقعة وصفها الجنائي، وبالتالي عن الاغتصاب وصفه بالاغتصاب، والأخطر وقوعه على فتاة قاصر، واعتراف المتهم بفعلته. أما هل عضعضها أم لا، مصمصها أم لا، هيجته دماؤها أم لا؟! فتحصيل حاصل لا يبدل شيئاً. لن تقدم نوازع الضمير، أو تؤخر الأخلاق شيئاً، سواء استيقظت أو نامت أو ماتت.

كان الوقت قد قارب الحادية عشرة والنصف صباحاً، لم يرغب المحقق في إبداء اعتراضاته، قد يحتد المتهم ويعكر مزاجه الرائق، عندئذ سيضطر إلى كبح جماحه وإسكاته بخشونة؛ ولا بأس من محاولة يُفهمه فيها بأنه أجهد نفسه بلا طائل، دفاعه على هذا النحو لن يفيده، ولا يضعف الوقائع المسندة إليه؛ قبل كل شيء عليه نسيان كل هذا اللغو، والكف عن مطولات غير مجدية، والتوجه إلى الوقائع مباشرة. وقبل أن ينسى، لا بد من تنبيهه إلى خطورة قضيته.

«وضعك سيئ جداً».

المتهم لم يدعه يكمل، سارع وقاطعه:

«صدقني، لم أرتكب فعلاً منافياً للقانون».

«أنكرت أقوالك، حسناً. من خلال تجربتي أقول، هذا لا ينجيك، إذا كنت بريئاً، باستطاعتك تدمير القضية».

قال كلماته بهدوء، كاتماً غضبه، متوقعاً أن يكون قد فهم على الطاير، المطلوب منه. لكن المتهم فغر فمه، ولم يفهم، منتظراً من المحقق قول شيء يدله كيف يتصرف. المحقق لم يقل شيئاً، ومع هذا بدا متعاطفاً معه.

****

فعلياً، لم يكن متعاطفاً معه، أو لديه رغبة بمساعدته، هناك العشرات، المئات، الآلاف، من الموقوفين والمساجين بحاجة إلى مساعدة. من منهم يستحق مد يد العون إليه؟ هل هذا الذي أمامه

واحد منهم؟ ماذا لو كان يخفي وراء مظهره البائس وانهماكه الساذج بقضيته، شذوذاً جنسياً متأصلاً، لا يظهر إلّا في خلواته مع النساء والدماء؟ هؤلاء المثقفون لا يمكن تكهن ما يدور في مخيلاتهم، ولا كشف ما يلجأون إليه من حيل وألاعيب، بعضهم وربما غالبيتهم يخفون في دخيلتهم تركيبة معقدة جداً، يتسترون عليها بادعاءات ثقافية ومقولات محفوظة، ويحملون أمراضاً نفسية غير ظاهرة ومعدية، تسري كالوباء في تجمعاتهم الغاصة بما يقلدونه من مظاهر غريبة، ملابس فاضحة وشعور قذرة وتصرفات متهتكة، وحماقات أخرى، كإثارة قضايا عويصة لا حل لها، وعرائض يتبارون إلى توقيعها، كأنها تجدي!! وإذا كانوا أشطر من غيرهم في الكلام، فلأن الخداع يمتطي الكلام المنمق والمعسول.

أما المجني عليها فمن غير أن يراها، يجزم بأنها فتاة في منتهى البراءة، ماذا يمكن القول عن فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، ولو كانت مائعة؛ لن تجرؤ مهما بلغت بها الشيطنة على تأليف قصة بهذا الفحش وتتهم مطلّقاً عمره يقارب ثلاثة أضعاف عمرها باغتصابها، حتى لو كان شاباً ساحر العينين ممشوق القوام وعريض المنكبين. ليس كهذا المتهم، رجل عادي تخلو عيناه من السحر، ضيق الكتفين، يفتقر بشكل صارخ إلى الجاذبية، أقرب إلى القصر لا يوحي نحوله بعمره الحقيقي، ولولا بطاقته الشخصية التي تؤكد على تجاوزه الأربعين، لما أعطاه عمراً أكثر من ثلاثين سنة. عموماً أشفق عليه، كان على الرغم من تشدقه بكشوفاته اللغوية خائفاً، وبلا ريب عديم الحيلة، وإلّا لما وقع بين براثن القضاء.

ودَّ لو يحسم الأمر ويقول له، لا أريد تضليلك، براءتك موضع

شك كبير، ودفاعك السخيف غير مقنع ولا وارد. لكنه قال وبملل شديد:

«لا تنس أنك اعترفت، الاعتراف سيد الأدلة».

«لقد رجعت عنه».

فحذره بشدة:

«فكر في شيء مجدٍ، إذا سألتني رأيي، فأن تقول الحقيقة».

«لا مانع لدي من قول الحقيقة».

«انتبه، هناك حقيقة واحدة، ليس هناك غيرها، فكر جدياً في أن تقولها، هذا يُقصِّر الطريق عليك وعلينا».

«حقيقة واحدة»!

ابتسم أحمد باستخفاف، يتكلم المحقق عن الحقيقة بجهل مطبق، ولكي لا يظلمه، فهو مثل غيره من الموظفين يفتقر إلى الثقافة العميقة. المحقق يظن أن الحقيقة واحدة، قالها كأمر مفروغ منه. فيا لبؤس الحقيقة والتحقيقات، وسذاجة المحققين الباحثين عن حقيقة وحيدة!! مع أنهم أول من عليه أن يدرك أن الحقيقة ليست واحدة، وليس لها وجه واحد، ولا يمكن لاثنين الاتفاق عليها. كل منا يراها من موقعه، ويعتقد أنها الوحيدة.

لن يستمرئ أحمد، ولو في سره، التشدق في معنى الحقيقة ووجوهها المتعددة؛ قد ينقلب تشدقه ضده، براءته حقيقة واضحة، واحدة ووحيدة، لا ينبغي أن يختلف عليها اثنان، ولا تحتمل وجهين، بل وجهاً واحداً فقط؛ البراءة لا غير. عدا أن الاتهام واضح، هل اغتصب الفتاة، أم لا؟ بالطبع لم يغتصبها، كيف

يغتصبها دون أن يعرفها. وكأن المحقق التقط ما يدور في رأسه.

«إذا كنت لم تغتصبها، فما الإثبات؟».

أجاب دون تردد:

«ليس لدي إثبات. الاتهامات مختلقة كلها، لأنني رفضت الزواج من الأخت الكبرى الفنانة دنيا، فدبرت لي تهمة اغتصاب أختها الصغرى دينا».

لم يجد قاضي التحقيق صلة بين عدم زواجه من دنيا الكبرى واغتصابه دينا الصغرى، المعقول أن تدعي الفنانة دنيا بأنه اغتصبها هي لا أختها، كي تتزوجه هي لا أختها. إلّا إذا كان قد أخطأ واغتصب الصغرى دينا، بدلاً من الكبرى دنيا.

«هل الأخت الصغيرة تشبه أختها الكبيرة؟».

«رأيت الفتاة الصغيرة مرة واحدة، لحظة القبض عليَّ، هيئتها لا تشبه أختها، ولا أظن أنها تشبه أحداً».

لم يكتم المحقق ضحكته، ربما كان سبب الاغتصاب التقارب الشديد بالأسماء...دنيا، دينا!! لا ينقصه إلّا هذا، أن يعود به المتهم إلى دفاعه الأساسي، إلى الألفاظ. إن كان الأمر على هذا النحو، فقضية الاغتصاب غلط في الأسماء استجرَّ خلطاً في الأجساد. ولا غرابة في أن يبرر المثقفون جرائمهم بعثرات لغوية وخلافات نحوية، مثلما هذه الجناية الشائنة، قد تُرد إلى خطأ مرتكبها في تلفظ الأسماء!! ولن تكون وقاحة الدفاع عنها إلّا من جنسها: تعثر في التهجئة، ارتباك في مخارج الكلمات؛ وفي حالته، تشابه في

الأسماء، سببه تقديم أو تأخير حرف على آخر، لا غير!

«أليس للأمر علاقة باسميهما؟».

«لا، إنها عملية كيدية نسائية».

ارتاح المحقق، المتهم تقدم خطوة، نبذ مسألة الألفاظ والأحرف، ودخل في شيء أكثر جدية، لكن قبل أن يشبكه بمسألة تحتمل اللف والدوران، حاول تحديد اتجاه الجواب:

«دعني من كيد النساء. قل لي ما الذي حصل؟».

فكر أحمد، ما حصل لم يعلم به، وحتى عندما حصل، هذا إذا حصل، لم يكن موجوداً.

«ما أدراني بما حصل؟!».

القاضي المحقق لم يتراجع عن سؤاله. وتابع ضغوطه:

«مازلت أنتظر جواباً».

«من الممكن جداً تخمينه».

فكر القاضي بهذا العرض، التخمين!! مساومة معقولة، ما المانع من هذه المواربة؟!

«هاته».

على التو، اندلعت في ذهن أحمد الخيوط الرئيسة لما جرى، ربطها مع بعضها بعضاً، وأخذ يسردها على مهل.

****

في سهرة عامرة بالطيبات ضمت لفيفاً من الموظفين الكبار والمستوردين والصناعيين من تجار البسكويت والشوكولا الفاخرة والفوط الصحية والمياه الصحية والغازية في اجتماع عمل، رافقته بعض التسالي، الحياة ليست عملاً فقط أو تسلية فحسب، عادة ما يمزج رجال الأعمال بينهما بسبب ضيق الوقت، فمثلما يناقشون وسائل تنشيط التصدير والاستيراد؛ يتسامرون حول أنجع وصفات تنزيل الوزن الزائد وتقوية الباه. بعد انتهاء السهرة، يغادرون الحفل تباعاً. في تلك الليلة، تخلف رجل، لا على الأغلب رجلان، واحد صاحٍ، وإن كان يتمايل، انسحب إلى غرفة النوم مع دنيا، والآخر سكران لم تحمله قدماه إلى سيارته، فشحط رجليه ونام في الغرفة المجاورة.

قاطعه المحقق ليفصل تماماً في معضلة الأسماء.

«انسحب مع دنيا أم أختها دينا؟!».

«مع الفنانة دنيا الكبيرة، دينا صغيرة تنام في وقت مبكر، ويفترض أن تنسحب بعد إعداد المائدة».

الرجل الثاني لم ينم، تظاهر بالغطيط، حتى خمد اللغط تماماً في البيت. تسلل من الغرفة، وحملته قدماه من غير شحط إلى البنت الشقراء الصغيرة دينا، متلمساً طريقه إليها في الليل على رؤوس أصابع قدميه، كأنه يمشي على قدميه في رابعة النهار، أطبق بيده على فمها، فتحت عينيها، رأت عينين تقدحان شرراً. ارتعبت، فاغتصبها.

انبسط المحقق، القضية آخذة بالفكفكة، والحلقة تضيق على المتهم الذي أحكم الشبهات من حوله.

«هذا ما حدث رغم أنني لا أعرفهم ولا أسهر معهم».

«ألم تتميز هي شيئاً من ملامحه، صوته، رائحته؟».

«لو تميزت، لما اتهمتني».

«لا بد أنها استغاثت بأختها».

«لن تسمعها، كانت نائمة، أو أنت تعرف، مشغولة بالرجل الذي معها».

«أو أن المغدورة فقدت وعيها، ولم تستغث».

«لا ريب أن الفاعل فنان في الاغتصاب. نفذه بدراية وأتمه على أحسن وجه في العتمة».

«ما أدراك؟!».

«مجرد توقع».

«وفي اليوم التالي، باحت دينا بالأمر لأختها».

«لا، خافت. أختها دنيا اكتشفت الأمر وحدها، المجرم ترك آثاراً لا تخفى عليها».

القاضي لم يفته أن المتهم الذي أخذ ينفي التهمة بعد أن حبكها بلسانه، لم يكن يتخيل بضعة تفاصيل غائمة، حدثت في ساعة متأخرة من الليل، وإنما يتحرك باقتدار وواقعية في بيت دنيا، عارف بما جرى وبما دار بعد ذهابه.

«لقد استطعت بسهولة أن تضع نفسك بدل المجرم، وتخمن ما دار بين الأختين».

«دنيا أعرفها، كنا أصدقاء».

«ودينا؟!».

«رأيتها في المخفر فقط».

لم تستوقفه هذه الكذبة، ببساطة كانت لا تصدق.

«حسناً، دنيا الكبيرة بعدما تأكدت أبلغت الشرطة».

«لا لم تلجأ إلى الشرطة إلّا بعد أن حَفَّظت أختها قصة أخرى تدين شخصاً محدداً؛ استغلت الظلام وحورته ليلائمني».

«هل عرفت دنيا الرجل الحقيقي الذي ارتكب هذه الفعلة؟».

«طبعاً، إنه من زوارها».

«لماذا أنت؟!»

«لتقتص مني».

«وأفلتت الآخر؟!».

«لا، لم تفلته، على التأكيد جعلته يدفع ثمن فعلته عداً ونقداً، ودون إمهال. وأصابت عصفورين بحجر واحد».

تضايق قاضي التحقيق من تشبيهه الرجلين بعصفورين، مع أن أحدهما مغتصب حقير لم يرحم فتاة صغيرة من الانتهاك، فتاة كانت فعلاً أشبه بالعصفور!!

****

تلكأ أحمد مراراً وهو يسرد قصته، واضطر مرة ثانية إلى إعادة القصة من أولها، فكرر قاضي التحقيق الأسئلة السطحية السابقة نفسها. وانشغل عنه أكثر من مرة باستقبال الاتصالات الهاتفية بشأن الطفلة البريئة، من ضابط في قيادة فرع المنطقة، ومطرب مواويل معروف، دعاه بمناسبة تعرفه إليه في الهاتف إلى مقصف على طريق الزبداني. وممثل درامي عرفه من صوته العريض، وتجاهله مع أنه قال له ضاحكاً بأنه يمثل دور قاضي تحقيق في تمثيلية إذاعية ستذاع بعد غد. وموسيقي لم يسمع باسمه قال بأنه ضابط إيقاع، تكلم وكأنه برتبة لواء. ورجل صوته أجش رفض التعريف عن هويته، حذره من التقاعس في التحقيق. جميعهم استنكروا الجريمة البشعة التي وقعت على أخت الفنانة المحبوبة دنيا، وسألوه إنزال أقصى العقوبات بالمتهم. قال لهم بأنه مخول بالاستماع لا بالعقوبات. واتفقت طلباتهم منه على التعجيل بالقضية برفعها إلى المحكمة لينال المجرم جزاء ما اقترفت يداه. اعتذر بأن التحقيق يجب أن يأخذ وقته كاملاً، أما الحكم فتتولاه المحكمة.

عادة، كثرة الوساطات تدفعه إلى مزيد من اللامبالاة، وأحياناً وضع العراقيل والرغبة في مساعدة الطرف الآخر. أما هذا، فكيف يساعده؟! أقواله اتخذت وجهة غريبة، لم يكن يتوقع فقط، كان يروي الجريمة بتفاصيلها ومن موقع قريب. والأغلب، كان طرفها الرئيسي وإلّا كيف تمكن من الرؤية في الظلام، والتقاط الغطيط واللهاث، وما حصل خلف الجدران من مساومة وابتزاز؛ يرويها بثقة، على أنها الحقيقة السافرة بحذافيرها، ولئن بدا مستمتعاً باكتشاف المجرم، فهو غير دار بما أوقع نفسه فيه.

لم ينزعج من المتهم، انزعج من الذين اتصلوا به، إذا كانت هذه

هي البداية فسوف يتلقى قبل حلول الظهر مزيداً من الاتصالات من نقابة الفنانين والإذاعة والتلفزيون والاتحاد النسائي ووزارة الداخلية، وربما الخارجية. وإذا استمر الأمر على هذا المنوال من الإلحاح، من هؤلاء وغيرهم يحثونه على العجلة، فسوف يتخلص منهم ومنه برفع القضية إلى قاضي الإحالة قبل انتهاء الدوام. والأكثر إغاظة، أن المتهم أخذ يعيد قصته للمرة الثالثة، بأناة وتمهل يفصفص بعض ما فاته فصفصته في المرتين السابقتين، كأنه سيفلح في العثور على نهاية حاسمة، تنقذه، وتزج بالمجرم الحقيقي في قفص الاتهام، بموجب افتراضه أن هناك اثنين، الأول معتقل مزيف وبريء، والثاني غير معتقل وغير مزيف وغير بريء.

الاتصال الذي لم يتوقعه كان من معاون الوزير، سأله إنهاء التحقيق مع الفتاة دينا اليوم، البنت في حالة نفسية سيئة لا تسمح لها بالانتظار أو بالقدوم غداً. اعتذر المحقق، بأنه يحتاج على الأقل لساعة من الزمن، وربما أكثر قليلاً، ليختم المتهم أقواله. تذمر المعاون، يكون الدوام شارف على الانتهاء. فقال له، ليكن في الغد، ولن أؤخرها. المعاون كان له بالمرصاد، الوزير لن يقبل، لقد حدد لها الموعد، الآن.

أرسل قاضي التحقيق بالمتهم فوراً إلى الحجز، على أن يستكمل التحقيق معه في الغد. والتفت صوب الباب لاستقبال الفتاة المغتصبة.

طفلة الكولا

دهمه إحساس بالرهبة من منظر الفتاة الضخم، بدينة عريضة ومفلطحة، من النوع الذي يقال عنه، لا يدخل من الباب، لكنها دخلت. جلست على الكرسي فتدلت على أطرافه كتل اللحم من ساعديها وفخذيها. أحاط بعينيه سـينتها المترهلة، وأمعن النظر في التكويرات النافرة لجسدها، وحدد عمرها في حوالي العشرين، وربما أكثر قليلاً، على أن بطاقة هـ يتها الشخصية أكدت عمرها، لم تتجاوز الخامسة عشرة!! عموماً لم يـ لمابق مظهرها المكتمل بإفراط مع أوصافها المتقشفة الواردة في محضـر الضبط إلّا في بياضها الناصع وشقرة شعرها، ـجه جميل التقاطيع، يشوبه تهدل منفر في الشفة السفلى، عكست بلاهة، لم يرخ لها، حتى البراءة في عينيها محيرة لا تخلو من خبث وقح.

حدقت إليه، ثم شبكت ذراعـيها وبرطمت بشفتيها. أوحى له

استرخاؤها البليد بتحد سخيف، واستخفاف سمج، تخفي وراءهما خوفها منه. كان حجمها المضاعف عدة مرات قد أعطاه انطباعاً عن أحجام أعضائها الداخلية المضاعفة بالقدر نفسه. هل هذا ما يغري الرجال بالنساء اللحيمات الشحيمات؟

لم يعرف لماذا أثارت في نفسه رد فعل سيئاً، ربما لأن الاتصالات بشأنها أزعجته. ومع هذا أحس بالنقمة تجاه المتهم اللطيف المشوش ذي الملامح الرجولية الناعمة، الله يعمي قلبه، ما الذي حرك غرائزه حتى أقدم على فعلته النكراء؟! إذا كانت قد راقت له، فاغتصابه لها كان مضنياً، وكلفه الكثير من العراك والعرق. وتخيله ضائعاً بين أكداس اللحم يبحث عن عظمة واحدة، فلا يجدها. لو قعدت فوقه لأزهقت أنفاسه. كيف تمكن منها؟! صحيح أنها في النهاية امرأة، لكن ضخامتها على هذا النحو، تجعل الاستمتاع بهذا الجبل من اللحم عسيراً.

قبل أن يسألها، استأنف معاون الوزير اتصاله به: اسمع، البنت كبيرة بالمظهر فقط، لم تبلغ سن البلوغ بعد، عمرها العقلي لا يزيد عن عمر طفلة في الرابعة من عمرها وربما أقل، جسمها أكبر من عمرها الفعلي بما لا يقل عن عشر سنوات. لا يكاد قاضي التحقيق يضع السماعة ليبدأ أسئلته، حتى يعاود المعاون الاتصال: احترس، البنت غشيمة لا تفهم الطيخ من البطيخ، لا تثقل عليها بالاستجواب. بعد قليل يحذره: لا تأخذ وتعطي معها بالكلام المشرمحي، الطفلة حساسة، لا تنكأ لها جروحها. ولا يلبث أن يكرر ملاحظته ويضيف: إياك والكلمات البذيئة والنابية.

ولم يفتر. كان هناك على الطرف الآخر من يلقنه، والمعاون يعيد،

ويؤكد من جديد: البنت حبابة، لكن متوترة، لا تتعبها بالأسئلة، ريِّح أعصابها. أعقبه تهامس متسارع على الطرف الثاني، إلى أن علا صوت الملقن: قل له ألا ينزل تحت الزنار. معاون الوزير نفد صبره ورد حانقاً بصوت منخفض: يا أخي قد تفلت كلمة أو كلمتين، التحقيق يدور كله تحت الزنار.

****

بيد أنها امتنعت عن الكلام، زمت شفتيها وبحلقت عينيها وتجمدت على هذه الحالة متشنجة الرقبة، وجهها إلى الأمام. كانت مذعورة. ابتسم في وجهها ليريح أعصابها، ربت على كتفها ونادى الحاجب، طلب لها كأساً من الشاي. عندئذ فتحت فمها وقالت، كولا. فطلب لها كولا. فتحت فمها ثانية، وقالت، كبيرة. طلب كولا كبيرة. استدركت وكان فمها ما يزال مفتوحاً، ليترين، طلب كولا كبيرة ليترين.

بعدما ارتاحت أعصابها، تبادل معها بضع كلمات، سألها عن اسمها وعائلتها، أمها وأبيها وأختها، تلعثمت قليلاً، بحثت في ذاكرتها عن أم أو أب أو أخ، إلى أن تذكرت، أمها ميتة وأبوها يصفعها كي تكف عن الاجترار، لماذا؟! كانت تأكل في جميع الأوقات، حتى بعد منتصف الليل!!

لم تكن خجلة وإنما مشتتة الأفكار، تركت بيت أبيها، فأخذتها أختها، سكنت معها، أختها تشتغل في التمثيل، في غيابها ترتب لها البيت، تنظف وتجلي وتغسل الثياب، تقشر الخضار وتعصر الفواكه. عندما تكون أختها في البيت تجهز لها الإفطار والقهوة والشاي

والبيض المسلوق مع السلطة، وتعاونها بالطبخ. في حال قدوم ضيوف، تعد طاولة المشروب والمازة، أختها توصي على طعام جاهز، كباب وشقف وحمص ومتبل ومخلل. تقضي أوقات فراغها بالنوم أو تلعب مع دميتها لعبة عريس وعروس، تتسلى بالأكل وتحضير البوشار، تحب السكاكر والشوكولا والعلكة. تتفرج على التلفزيون، تتابع أفلام الكارتون، يعجبها مسلسل بوكيمون، ومغرمة ببطلته ميستي ذات الشعر الأحمر.

مع الكولا ذهبت عنها اللعثمة، فباشر التحقيق. سرعان ما اختطت إجاباتها مسارب مختلفة كلياً عما هو وارد في الضبط، انفردت على سجيتها، وبدأت أخطاؤها بالتراكم؛ الرجل لم يقتحم باب المنزل عنوة، فتحت له الباب على مصراعيه في الوقت المحدد المتفق عليه. متى؟! عندما تكون أختها غائبة أو نائمة. لم يشحطها من شعرها، احتضنها وتأبطت ذراعه إلى غرفتها. لم يكمم فمها ويقيد يديها، استلقى فوقها، فتحت له ذراعيها وفرشخت ساقيها. لماذا لم تمنعه؟ لأنها لم تمنعه في المرات السابقة. هل كان يضربك؟ ضرب الحبيب زبيب، يهجم عليها، فتهجم عليه، ويتضاربان، يعضوضها فتعضوضه، يعصرها فتعصره، يقرصها فتقرصه، وعندما يتعبان يأكل كلٌّ منهما شفاه ولسان الآخر (هكذا بالكلام المشرمحي) يجن جنونها وتحبه من قلبها، يلحوس جسمها تحت السرة (هي التي نزلت تحت الزنار). يرضع من ثدييها مثل الولد الصغير، يقضم حلمتيها ويموت من التلذذ. يمصمصها فتمصمصه. ما الذي تمصه، مصاصة، سكرة، لهاية؟! بل أطول وأعرض، ما هو؟! الشيء الذي اسمه بذيء جداً (مكانه تحت الزنار، وأيضاً بالكلام المشرمحي) أما الدماء التي سفكها الشيء البذيء، فقد سُفكت منذ أكثر من سنة بفعل شيء بذيء مثله... لكن من يتذكر، متى وكيف؟! أما

الجماع الذي كان على خلاف الطبيعة، أهو الذي من الخلف أم في الخلف؟ كان طبيعياً، وسبق الجماع من قدام... متى بدأ؟! لا تدري، ولم ينته. وتهديده بالقتل؟! لماذا يهددها؟! مناغشاته تضحكها ولا توجعها. آثارها ظاهرة!! لا شيء يخفى، على جسمها بقع زرقاء وخضراء وصفراء، من خرمشاته وقرصاته وعصعصاته وكزكزاته.

تكرع الكولا، تتكلم وتتكركر، تضحك من قلبها بكل براءة من تصرفات الرجل العاري، عندما ينكسر شيئه البذيء، يتعرق ويترضاها. فتلعب به. أحياناً ينثني ولا يفلح معه الشد ولا المط، تزعل وتسأله ما الذي حل به؟ فيشتم، ابن الحرام عند حاجته يخاوذ.

صرخ كالمجنون، كفى. فسكتت مرعوبة، ولابت بعينيها تائهة.

ماذا تدعى هذه الحالة النموذجية من البلاهة الجنسية، تأخر عقلي، إعداد ناقص للمراهقة، حرمان من حنان الأم، افتقاد للرعاية الأبوية، أم نمط خليط وعشوائي من هذا كله؟! حيوان بريء أم شرير، قنبلة جنسية بدينة، مهووسة بالكولا والبوشار وأفلام الكرتون. تتأمله، ما الذي يجول في رأسها؟! أحس بالقشعريرة، ارتد بنظره بعيداً عنها. أحس بالخوف، لو أظهر لها بعض التراخي والمودة لما تورعت عن التهامه.

من زلات لسانها، والأصح استطراداتها، اتضحت صورة الغاصب الفحل، طويل القامة، ضخم الجثة، مترهل البطن، شارباه الكثان يدغدغان رقبتها و... إلخ؛ أخيراً أصلع الرأس، عندما يضع وجهه

بين ثدييها تربض فوق صدرها ثلاث كرات!! أين منه ذلك المتهم النحيل السحنوك، البلا شاربين، كثيف شعر الرأس؟!

كان الغاصب الفحل كريماً، لا يأتي خالي الوفاض، عارفاً بأمزجتها، يجلب لها مع الكولا سمارتي وبسكويت محشي ومغطس بالشوكولاته؛ وتشاطره الفواكه التي يجلبها لنفسه، وشرابه الذي لونه مثل لون الحليب، وطعمه لا يشبه طعم الحليب.

من هو؟ سألها.

أحمد ربيع. قالت.

قال لها، هذا رأسه كبكوبة شعر، وبلا شوارب، قصير وبلا بطن، قدماه مثل القنب بالكاد تحملانه. فسكتت خائفة.

ألا تعرفين اسمه؟ فأنكرت.

لم يهتم، الأمر معروف، إنكارها، ليس لأنها لا تعرفه، بل لأنها تعرفه. على كل حال، ثمة علامة فارقة مميزة، صلعة الفاعل، وتشير إلى احتمالين، إما أن يكون شاباً بديناً في العشرينيات من عمره؛ صلعته مؤقتة، حلاقة على الزيرو، حسب الموضة الدارجة بين الشبان، أو أصلع أصلياً من معارف أختها الفنانة الجماهيرية، وقد يكون عمله مرتبطاً بعملها، رجل قوي اعتاد حمل الأشياء الثقيلة مثل الكاميرات ومعدات الإضاءة، وربما الصعود والهبوط على الأعمدة، وتركيب الإعلانات الضخمة.

اتصل بالمعاون وأعلمه باكتشافه. المعاون تلعثم، وطلب منه الانتظار

قليلاً، بعد قليل دارت المشاورات الهامسة على الطرف الثاني، لم تكن هادئة، أخذت تعلو، وتحولت إلى مشادة، لكنها فضت. سمع المعاون يقول للشخص الآخر، اترك الأمر علينا. ثم علا صوته في السماعة، وبعق في أذنه بغيظ:

«يا أستاذ، الرجل اعترف، والبنت تعرفت عليه. ألا يكفيك محضر الضبط، أم أنك لا تصدق حتى تراه راكباً فوقها، نازلاً طالعاً عليها؟!».

«إفادة البنت غير سليمة، لم تتعرض لتحريف، بل لتزوير كامل. البنت تعرضت لضغوط، شهادتها باطلة، ولا بد من تغيير أقوالها».

قاطعه المعاون:

«انظر إلى بطنها، بنت بعمرها مازالت طفلة، حامل في الشهر السادس!! إذا علم أبوها سوف يقتلها، وأنت تلاحق الشكليات، سليمة ومليمة، ضغوط ومغوط».

اعترض المحقق بأدب:

«المسكين لم يغتصبها حتى يحبلها».

«المسكين ليس مسؤوليتك، دع القضية كما هي، لا تكسب سواد الوجه، الله يرضى عليك لا توجع رأسك ورأسنا».

أدرك أن الضغوط وصلت لرأس الوزير والمعاون، فأخذته الحمية وهتف:

«ولمن سأترك القضية؟».

«القاضي البروشي، سيتكفل بها، تعرفه لا يهمه أحد».

تقيد بالمطلوب منه، كرر أقوال البنت الواردة في محضر الشرطة، ثم صرفها. وتنفس الصعداء، العدالة ليست مهمته وحده.

لم يكتمل صعود تنفسه، عندما تفجر اسم القاضي البروشي في رأسه، وقطع نَفَسَه. واضح ما سيحل بالقضية وبالمتهم البريء، القاضي البروشي سيقضي على المقنزع النحيل. فأشفق عليه: إذا لم تكن العدالة مهمتي وحدي، فلأسع على الأقل لإفهام المتهم أية عدالة سيواجه.

صباحاً، سيبرئ ذمته تجاهه، لن يكشف له عما جرى في قضيته، وإنما سيطلعه على وضعه الذي سيكون بلا أمل مع القاضي البروشي، ليكون على بينة من أمره؛ ويحذره، بصريح العبارة، بصرف النظر عن القانون المكتوب وغير المكتوب، إذا أردت فعل الصواب، فيجب أن تعرف ما هو الصواب لتنجو بنفسك.

لكن كان هناك من سبقه وأطلع أحمد على ما هو الصواب.

غرام وانتقام

عندما أخذ قاضي التحقيق باستجواب الفتاة دينا، كانت أختها الفنانة دنيا قد بدأت زيارتها للمتهم في غرفة مناوبة الحرس في قبو القصر العدلي. استمرت المقابلة زمناً من الصعب تقدير مدته، أحمد اعتقد أنه طال ساعات، وهذا غير معقول، مثل هذه الزيارات المختلسة غير المأذون بها لا تأخذ أكثر من ربع ساعة. تقديره الملتبس للوقت، كون الزمن ربض ثقيلاً على كاهله النحيل، فثبته في مكانه دونما حركة، بينما كانت الأحداث تمر في ذهنه سريعاً، أسرع من لمح البصر. فتخيل مرور زمن لا يقل عن بضع سنين، وإن كان قد حجّمها إلى بضع ساعات.

ومهما كان حال الزمن، سريعاً أو بطيئاً، ثقيلاً أو خفيفاً، فقد كان اللقاء غريباً من نوعه، لحصوله في ظرف مباغت وغير مريح؛ ترافق مع ذاك الحيف الواقع عليه المثير للشكوى، وحالته المهينة الباعثة على

الإحساس بالمرارة. وربما، وهذا ما كان متوقعاً، لن يقنع بالتململ فحسب، بل قد ينفجر تلقائياً من العقابيل المدمرة لقضيته المقلقة، غير الأخلاقية والمنحطة. كانت دونما مبالغة، افتراء حقيراً ومتعمداً على شخصه البريء. بيد أن كتمانه العجيب لآلامه، وإن بدا باعثاً على العجب، كان في محله تماماً، إذ كيف يشكو همه لامرأة كانت السبب في إيداعه السجن؟!

ارتسمت أمارات المباغتة على وجهه، وتجلت بامتعاض على ملامحه، فيما كان يحاول بصعوبة المحافظة على رباطة جأشه، وقد كان جأشه قوياً، وسيطر على أعصابه طوال المقابلة، ربما لأنه توقع مزيداً من المصائب. ومع هذا اعترته لحظات غامرة من الضعف العاطفي، تراءى له أن الحب قد ينقذه وتعود المياه بينهما، ولو مؤقتاً، إلى مجاريها. ساعده على هذا الاعتقاد، أو التخمين أن دنيا لم تنظر إليه بوصفه مغتصباً جنسياً دنيئاً، أو حتى متهماً بريئاً؛ وإنما، وهذا من غرائب نزوات النساء، حالة هائلة من عشق عاصف، مرت بها، وقاست منها أوجاعاً لا يطيقها إنسان.

للوهلة الأولى، عبرت رأسه فكرة شائعة عن مكائد الجنس اللطيف؛ يخفين مخالبهن داخل قفازات من حرير (وهي عبارة قرأها مرة في إحدى المسرحيات المترجمة عن الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر) ويطلقن العنان لذلاقة ألسنتهن، يقلن ويتقولن ويتبجحن بما يعنُّ لهن دون محاذير من صدق أو كذب. ما الذي سيجعل دنيا مختلفة عن بنات جنسها؟! المضحك أنها فكرة قديمة ومتحاملة، أكل الدهر عليها وشرب. الأقرب إلى الصحة، أن غريمته، بالرغم من الظرف البغيض، تَكنُّ له مهما قالت وتقولت، بعضاً من الغرام، أو ما يشبهه. وإذا عاد بذاكرته إلى ما قبل القبض عليه، ونظرته إليها

على أنها امرأة ذهبت مع الريح (وكان أكثر ميلاً إلى أنه هو الذي ذهبت به الريح) الآن، عادت بها الريح على نحو كاسح جارف، ريح ستعيد الواحد منهما إلى الآخر.

****

ربما من المستحسن بدلاً من هذه الشذرات المتفرقة المتخابطة في رأسه، العثور على بداية تمهد لمقابلتهما المثيرة، ولتكن عندما جاء مساعد الشرطة السمين واقتاده من قسم الحجز إلى غرفة مناوبة الحرس القريبة. لم يعرف أحمد إلى أين سيأخذه، لأن المرء هناك لا يتجرأ على التبرم ولا التطفل على شرطي باستفسار، فلم يعرف بأن دنيا التمست جلبه إليها مخفوراً لتكلمه على حدة.

بلا ريب، كانت واسطة دنيا قوية ويدها واصلة، حتى يلبوا لها طلبها ويأتوا به مقيداً بالأصفاد لتراه عن قرب خلافاً للأنظمة المرعية في القصر العدلي، وتتحدث معه بعيداً عن الأنظار، دون أن يسمعهما أحد في غرفة قميئة أخليت من رجال الشرطة، ووقفوا خارجها حرساً عليهما، وإن أطل عليهما بين الفينة والفينة المساعد السمين، ليلتقط نظرة من الممثلة العصبية الجميلة.

وقع بصره عليها، وكانت المفاجأة مفاجأتين، الأولى انبهاره برؤيتها بكامل أنوثتها وأناقتها؛ تلاشى تأثيرها على الفور. لأن المفاجأة الثانية الأقوى، وهي ابتسامتها الملغزة، أفزعته، وتاه عليه تفسيرها. خبرة أحمد في المسرح أطلعته على حيل الممثلين، إحداها توخي استعمال ابتسامات خاصة جداً للمناسبات غير العادية، عبارة عن قناع يخفي حقيقة نواياهم الخبيثة، مما جعله يتحير في تخمين ما يكمن وراءها

من سيئ أو أسوأ. بيد أن ثقافته، وهي ثقافة مستمدة من القصص المعنية بالبشر وطبائعهم الخسيسة، أنجدته في تحديد الوصف الملائم لابتسامتها بأنها تتأرجح بين التشفي والحنق والظفر، أجملها بواحدة، تجمع التأرجحات كلها: ابتسامة تعبر عن النصر المؤزر.

فعلاً انتصرت، قال لنفسه.

وأعطاها الحق بابتسامة، كانت قناعاً، تعبر عن هذا المعنى، مع كونها مثيرة للغيظ وغريبة بعض الشيء.

بعدما انزاح عنه لغز ابتسامتها، ورآها من دون تمويهات مسرحية، بدا شعرها رغم لمعانه وبلله الظاهر منكوشاً ومنفوشاً، فظن أنه انتكش وانتفش من جراء مشادة جرى خلالها شد شعر قبل حصولها على إذن بمقابلته، ولو كان مطلعاً على أحوال الموضة، لما ورد هذا التفسير إلى ذهنه، كانت تسريحة صيحة آخر الموسم، وطبق الأصل عن صورتها في إعلان عن مستحضر لتجعيد الشعر وكزبرته.

وجاءت لحظات المواجهة الأولى، لتوحي له بأن كل واحد منهما مسيرٌ، أي وكأنه يتبع بدقة إرشادات مسرحية، هذا التخيل أملاه المسرح، إذ له نصيب كبير فيما سيجري بينهما، وفيما لو كان هناك ستار فسوف يرتفع عنهما بهذه الوضعية:

كانت جالسة فنهضت، وكان يتقدم فوقف. حجزت بينهما الطاولة الصغيرة. لاحظ ابتسامتها فدار في ذهنه ما سبق وألمحنا إليه. استندت بكفيها إلى سطح الطاولة، ودنت برأسها إلى الأمام، كأنها

ستبصق عليه. أخطأ التقدير، كانت تسعى إلى تقبيله، لم تلامس شفتاها شفتيه، وإن أحس الواحد منهما بأنفاس الآخر. تلمح الشفقة في عينيها، واللهفة في شفتيها، وردهما إلى ما أثارته لفتتها نحوه. والآن إلى الحوار، وكان في أغلبه مونولوجاً من طرف واحد، ترافقه خواطر من الطرف الآخر.

****

قبل الحوار، يستحسن الاطلاع على المكان لإعطاء تصور أقرب ما يكون لهذا اللقاء الغريب، لنحس بأننا نعيش هذا الموقف الإنساني دون إغفال عناصره المكانية والزمانية وظلالهما، مع خلفيته الكئيبة وروائحه السقيمة دون تهويلات:

الغرفة متوسطة العرض والطول، متران بثلاثة أمتار، خانقة وسيئة التهوية، أربعة جدران كاحتة، الضوء شحيح، الهوام يتخبط على صفحة شعاع واهن من النور المغبر، قادم من نافذة منخفضة مقضبة بالحديد المبروم. وقع الخطى المتكاسلة لرجال الشرطة يتناهى من الممر عبر فتحة الباب الموارب، ساعة غير مرئية تدور عقاربها، وتتكّ كضربات الصنوج على الرغم من خفوتها، وتتسلل مثل صدى آت من بعيد، يترنح ويلتصق على أثير راكد يختزن روائح طعام إفطار، فول مدمس وبصل.

أما الديكور فقذر ورثّ، طاولة عليها آثار زيت قلي وزيت زيتون وزيت سلاح، خزانة قديمة متشققة أبوابها، سرير ميداني ذو قوائم صدئة. ومن الباب رجع أصوات خشنة غير مؤنسة، وكثافة خانقة تعكر الجو مثلما تحبس الأنفاس.

رفع أحمد يديه إلى صدره والقيود الحديدية حول معصميه، مفطور الفؤاد وكسير الخاطر:

«أنا لم أؤذك».

احتقنت ملامح دنيا، ارتعشت شفتها السفلى، وارتجفت ذقنها، ورشقته بنظرة رهيبة، وأردفت بصوت جريح:

«بل آذيتني».

خرس وجمد في مكانه، مع أنه كان مجمداً بالأصفاد. لخبطته ملامحها المتناقضة، أما صوتها المتوتر فهيمن على الصمت الذاهل؛ ممهداً لها المجال لتصدح بمونولوجها المديد.

دنيا: أنت الإنسان الوحيد الذي أحببته في حياتي. روحي عرفتْ معكَ الأمان، وحياتي الهدوء والسلام، وتعرفتُ من خلالك على معنى الحب والإخلاص والتضحية. جعلتَني أثق بالبشر، وأطمئن إلى أن الدنيا لا تخلو من الناس الطيبين. ساعدتني بلا مقابل، ووقفت إلى جواري في أشد أيامي حلكة.

أمضينا معاً شهرين، كانا أفضل ما مرّ بي، مذ رأت عيناي النور. كنت لي صديقاً رائعاً وحبيباً عظيماً، لم أتصور الحياة من دونك ولا من بعدك. وضعتُ مصيري بين يديك. انتظرتُ إشارة منك لأتبعك إلى آخر الدنيا. وكنتُ من أجلك وحدك، على استعداد للتنازل عن كل ما حلمت به.

هل كان أحمد يسمع أنشودة غرامية؟! نعم، وإن لم يترنم بها؛ الأنشودة تجاوزت صدمة اعتقاله! لم يتصور مفاجأة بهذه الرومانسية

الرفيعة، وعالية النبرة. استحوذت عليه مفاجأة اعتراف ساذج وعليل!! حب وإخلاص وتضحية كلها دفعة واحدة!! ما الذي يجري؟! همهم غير مصدق.

أحمد ليس إنساناً رائعاً ولا عظيماً، ولم تبلغ به الطيبة حداً من البلاهة يجعله يصدق أن امرأة في الدنيا على استعداد لتلحق به إلى آخر الدنيا. ولا بد أنه شغَّل عقله وتجاربه وذكرياته، وتساءل بصوت لم يسمعه سواه: هل جاءت تعتذر أم تختلق اعتذاراً؟! دنيا لا تعرف الحب ولا الندم، وتجهل الإخلاص والتضحية؛ تقول ما أسعفتها به محفوظاتها من رسائل الغرام وحوارات التمثيليات الإذاعية. جاءت لتستغل مأزقي بسخرية ولا أبشع. ترمي إلى تمريغ رأسي في الوحل، وإحالتي إلى عبرة مضحكة في حكاية حب رديئة وكاذبة، طرفاها حبيب هاجر وحبيبة مهجورة.

لم يكن مجرد خاطر، كان واثقاً.

دنيا: كنت وفية لك، مخلصة لعلاقتنا. فيما كنت تبادلني وفائي وإخلاصي بإرسال الرسل لتصالح زوجتك. عندما لوحتْ لك بيدها، جريت إليها ملهوفاً، ونسيتني لحظة رجعت إليها، تخليت عني بلا ضمير، وحطمتني بمنتهى القسوة.

لحظتها، لو التفتّ خلفك، لرأيتني أنا المسكينة المنكودة، أي عذاب كنت أعاني. انتظرتك، دقيقة فدقيقة، ساعة فساعة، ويوماً وراء يوم. سنوات مضت ولم تحاول رؤيتي، أو تسأل عني. اشتقت إليك، أوشكت على الانتحار، وشارفت على الموت، أنقذتني ذكرياتنا الجميلة.

أخذته الحيرة، فصل الحب والعتاب والشكوى يتصاعد بعنفوان. إذا

كان صحيحاً؟! فغرامها به دار خفية عنه، وتداعت منه لا من غيره هذه الدراما المتكاملة بآلام الخيانة والهجران. ولئن لم يحس بدنيا من قبل، فلأنه كان غافلاً عنها؛ لا تفسير عداه. وإذا حافظ على تماسكه فلأنه كان يصغي بإمعان، وليس لأن قلبه من حجر؛ هذا الموقف الأليم والفاجع يكسر شوكة أكثر الناس صلابة وحنكة.

في رأسه، عبرت خاطرة غريبة، مصدرها الالتباس الحاصل أحياناً بين المسرح والحياة: إذا كانت دنيا تمثل فقد ذهب بها التمثيل بعيداً، إلى حد يكاد الحب أن يصبح حقيقياً والألم عميقاً. الخاطرة دفعته إلى الإحساس بالذنب، وتأنيب نفسه على تخميناته السيئة. اعترف، لم أشهد حباً ولا ألماً يفوقانهما، حتى لو كانا ينتميان إلى الاستعراض، لا إلى الواقع.

دنيا: حقدتُ عليك كما لم أحقد على إنسان. كنت حبي الحقيقي وسندي الأمين وأملي الوحيد، لكنك عبثتَ بكل ما تمنيته، استهنت بي، وقضيت على حياتي. هل تظنني أنسى؟! كنت حبيبي، ولم أكن حبيبتك.

أخبارك كانت تصلني، يوم مع هذه، ويوم مع تلك. لم تكن تخون زوجتك، كنت تخونني. أحببتك، فيما كنت تحب غيري. اشتهيتك، فيما كنت تشتهي غيري. تركتني لغيرك، لهؤلاء الذين كنت تحتقرهم.

أحياناً لا يدري أحد، كيف تحدث التحولات المثيرة داخل الشخصية، وهذا ليس من غرائب المسرح بل من غرائب الحياة أصلاً، أحمد سيحول مجرى أفكاره ثانية، ولن ينساق معها، ترى هل آلام الماضي لا يعتورها النقصان، أم...؟! واسترجع فكرته

المركزية عن الحب الحقيقي الذي لا يسوغ الأحقاد، وعكسها أن الحب الكبير يؤدي إلى مجزرة دامية!! فتوجس وغمغم بخوف، على قدر ادعاءات حبها المخيف، ستكيل لي انتقامها الشنيع.

دنيا: وحدك استطعت أن تبلغني ذروة أحلامي. ووحدك دفعتني إلى حضيض طموحاتي. دمرتني، دمرت حلمي الكبير، لم أصبح الممثلة النجمة، لم أجسد أنتيجون ولا الخنساء، تمنيت أن أكون إحداهما على المسرح، لم أظفر إلّا بإعلانات ملونة.

اسخر مني أنا فتاة الشامبو، الممثلة التي كنت تعرفها، لم يبق منها سوى رغوة ممثلة.

مع وقع بلوغها الذروة، حجبت رغوة الشامبو الوفيرة المنظر القانط، فانتظر أحمد أن تتكشف عن نهاية ما، تنقذه من المسرح والواقع معاً.

عندما تأخرت، بدأ يتميز الروائح، وكانت أكثر من رائحة تعبق بنتن حموضة متخمرة، مع رائحة غريبة يتميز بها رجال شرطة المناوبات، الذين اعتادوا على خلع أحذيتهم لتتنفس أقدامهم الصعداء، اختلطت مع عبير عطرها الفواح؛ فابتلى التصاعد الدرامي بوخز مقرف. وفيما لو ختمت دنيا أداءها في هذه اللحظة بضحكة مسرحية هستيرية تهز أرجاء القبو، فلن يكون سبب عدم توازنه إلّا دوخانه من الروائح.

كان التناقض فاضحاً بين غرفة مشرشحة، حيطانها كابية وسقفها مدخن بالسخام، ومونولوج شجي عبّر بقوة وحرارة عن عشق لاح كاسحاً، وهو الذي أحدث الخلل في الموقف قبل أن يحدثه في

ذهنه! عموماً لم يطمئن، الحقد يطل بعفوية من كلماتها، وكانت تنتفض من الوجع، مذبوحة حتى العظم؛ العذاب يغذيها، وصوتها البائس يعضدها.

يا ويلي، أحقادها تحتدم ضدي، معبراً بخوف عما يختلج في داخلها. ودون توان، أبدى استغرابه، من أين لها القدرة على مواظبة تمثيل غرام متقن، لا يخلو من الموهبة، ولا يفتقر إلى الصدق؟!

قبل أن يهبط الستار على النحيب، أو الدماء، أو ما يماثلهما، وينجلي الواقع عن الدموع والقتل، أو ما يشابههما، تذكر أحمد؛ بما أن دنيا ممثلة، فلا شك أنني في مسرحية، ولا مفر من اعتلاء خشبة المسرح، مع أنه كان واقفاً عليها، والاستعداد للمنافحة عن موقفه مسرحياً، ربما أنقذته الدراما، أو لقي حتفه على مسرح ضحاياه لا يضيرهم الموت.

فوقف وقفة خائن حقير رعديد ومعشوق رخيص مثقل بالندم، وأطلق من حنجرته صوتاً آسراً بالحنان.

أحمد: دنيا، سأعوضك عن كل ما مرَّ بك.

دنيا: لن يعوضني شيء.

أحمد: سأكون لكِ وحدك.

دنيا: لن تكون لي، ولن تكون لغيري.

أحمد: امنحيني فرصة.

دنيا: فات الأوان.

أحمد: لا تنسي حبنا.

دنيا: متى؟ بعد أن قضيتَ عليه؟

أحمد: سامحيني.

دنيا: انتهينا.

أدرك أن بكاءها لن يكون سيد الموقف، فتهيأ للموت، وهي لن تتأخر عن سلِّ خنجر مرهف النصل، وكان جاهزاً لتلقي طعنة نجلاء. سحقاً لي، قصة حب بمثل هذه الفصاحة، ستعجل بنهايتي على هذه الشاكلة. بيد أنها لم تستل خنجراً معقوفاً وتغمده في صدره، تعدت المنظر الفاجع إلى المشهد الأخير، ولم تتأخر في إبلاغه إياه.

دنيا: سأُسقط الدعوى عنك في حالة واحدة، ألا تتخلى عن أختي دينا، والاعتراف بأبوتك للجنين، على أن تبقى أختي معي تقوم على خدمتي.

ومع أن النهاية كانت بليغة في فصاحتها، لم يفهمها. وعى أنه نجا من الموت. بعد قليل وعى أن نجاته الفعلية ينبغي أن تكون من القضاء.

فقال: ما المطلوب مني تماماً؟

قالت: القانون واضح، الزواج من أختي زواجاً رسمياً وليس صورياً، ولمدة خمس سنوات.

قال: لا.

قالت: فكر.

قال: لن أفكر.

قالت: باي باي، ذنبك على جنبك.

فاستوقفها: ما الذي كنت تهرفين به، عن الغرام والآلام.

قالت: كانت تمريناً على الإلقاء، ما رأيك هل نجحت؟

وتركته يفكر ملياً في انقلاب مأساته المؤلمة إلى مهزلة شائنة. ما العمل إزاء خيارين، أحدهما السجن، والآخر القبول بالزواج من فتاة بيضاء شقراء وصغيرة السن! وأوضح لنفسه ما ينتظره بشكل مفلوش:

سأكون قواداً، أي زوجاً بقرنين أغض النظر عن امرأة ستُعَرّص تحت اسمي، بضمانة منصبي الزوجي، وتمارس الدعارة بمنتهى الأمان تحت حماية عقد الزواج الحلال، وبشرط أن أكون أباً لابن الحرام القادم بعد أشهر، وكل أولاد الزنا الذين ستحبل بهم خلال خمس سنين آتية.

أمضى أحمد ليلته يتقلب من جنب إلى جنب بين أمرين أحلاهما مرّ.

قاضي القضايا الميتة

في اليوم التالي، علم قاضي التحقيق من المتهم أن الفنانة دنيا أخت الفتاة المغدورة دينا، وفرت عليه تبيان الخيارات والعواقب. فأنزل هذا العبء مسروراً عن كاهله، لن يؤرقه ضميره، المتهم بات واعياً بحرج وضعه القانوني وما ينتظره وما ينبغي القبول به؛ وهو الآن، كما يبدو عليه، يتأهب للاستسلام لأحد الخيارين. فليتركه يفكر، لن يكلف نفسه عناء إبلاغه ثانية بما هو مقبل عليه. بيد أن المتهم، بدا غير مقتنع، ثمة شيء لم يفهمه، وأراد الاستفسار عنه:

«هل أستطيع أن أعتمد على القانون؟».

«بصراحة، لا».

فبهت المتهم، واحتار بأمره، وتحفز.

لا شك أنه بحاجة إلى ناصح أمين. فلم يبخل عليه المحقق بنصيحة محضه إياها دون مواربة.

«إذا سألتني الزواج أم السجن؟! فأنا لن أستحي، لو كنت مكانك لاخترت الزواج».

لم يكن المتهم بحاجة إلى نصيحة، بل إلى دعم معنوي. أراد التأكد فقط من أن القضاء يقف معه، وإن كان شكلياً. هذا الدعم يمنحه الثقة بالعدالة، فيستطيع الاعتماد عليها في رفضه لمساومة دنيئة. سأل المحقق:

«هل أنا مظلوم؟».

«أنت مظلوم، وأنا مؤمن ببراءتك».

فانتفض وعاجله قائلاً بقوة وحزم:

«إذا كانت هذه قناعتك، فلا تهمني النتائج».

«قناعتي لن تساعدك».

«المهم أنني بريء».

«ماذا لو كنتَ بريئاً؟».

«لن أرضخ، سأقبل بحكم العدالة».

أكبر القاضي موقفه غير المساوم، ورمقه بنظرة إعجاب، تحولت إلى نظرة رثاء، ترى هل تعينه صحته على الصمود؟ لو كانت لديه مرآة، لأطلع المتهم على صورته فيها، ليرى نفسه، قطع شوطاً إضافياً في النحول خلال الليل المنصرم، ماذا عن سنوات طويلة وعديدة وراء القضبان؟!

أشفق عليه وعزم على تليين إرادته، محاولته لن تكلفه شيئاً، عملية إنسانية، لا يهدف من ورائها إلى مكسب، وفي الآن نفسه، عملية ميدانية، تسمح له بمراقبة تحول رجل شريف إلى نغل حقير، ولن تكون معقدة، صعوبتها الوحيدة تتجلى بإحباط روح المقاومة لدى المتهم العنيد، وإقناعه بلا جدوى التعنت، ولو كان بدواعي الكبرياء، وادعاء الحفاظ على العرض وسلامة الشرف الرفيع من الأذى، العدول عنهما أفضل من التظاهر بكرامة تكلفتها باهظة جداً، يدفعها من عمره، مدة قد لا تقل عن عشرين سنة يقضيها في السجن على أرضية طالعة نازلة، تكسر العظام، يجوع ولا يشبع الخبز اليابس؛ يخرج عجوزاً لا ينفع للخل ولا للخردل. الأسلم اختصارها إلى خمس سنوات يقضيها تحت كنف زوجة لعوب يغرق في أحضانها الطرية، متخماً باللحم والسمن والدهن، وقد يكسب من ورائها قرشين يشتري بهما سيارة.

«اسمع مني».

«كلي آذان صاغية».

فأسمعه ما يكفي ليرجع عن عناده.

لا، قال المتهم، إذا كنت لا تستطيع تبرئتي، فسأقبل بالسجن. ريثما تنكشف الحقيقة في المحكمة، في حياتي متسع للانتظار.

لا تتفاءل، قال قاضي التحقيق، سير القضية بات مرسوماً، قاضي الإحالة من بعدي سيحيلها إلى القاضي الجنائي عزيز البروشي، هل تعرف القاضي البروشي؟ صدره لن يتسع لاكتشاف الحقيقة. صدقني، ربما أمضيت بقية حياتك وأنت تنتظر خروجك من السجن.

لا يهمني، قال المتهم، ما دام القانون هو الحاكم.

بل يجب أن يهمك، قال قاضي التحقيق، لو أطلعتك على تاريخ قاضينا، فسوف تتضح لك النتيجة المفجعة لفصول قضيتك.

هكذا!! قبل المحاكمة؟! تساءل المتهم.

نعم، قال قاضي التحقيق، إحالة قضيتك للقاضي البروشي يعني أنها اختطت مساراً خطراً، ينبغي عليك تداركه، وكفكرة مبسطة وإلى حد ما وافية؛ قاضينا الجنائي المحترم، ليس كغيره من قضاة المحاكم الجنائية، وإنما قاض مستقل بذاته؛ أضاف إلى القانون بحكم طبيعته المتشددة تفسيرات مغالية تميل دائماً لغير صالح المتهم. ولا بأس بقليل من الشرح: مثلما هناك قاض للأحوال الشخصية وقاض للأمور المستعجلة، هناك قاض للقضايا عاثرة الحظ، على شاكلة قضيتك، وهي قضايا تالفة لا رجاء فيها للمتهم، لو أرسلت عن خطأ أو عن قصد إلى البروشي، فلن يدعه يخرج سالماً من بين يديه، هذا ما أكدته مراراً وتكراراً الصفة اللصيقة به والمتداولة عنه، وهي الأكثر إيفاء بشخصيته، وليس عبثاً لقبه المخيف الذي أصبح معروفاً به: قاضي القضايا المميتة.

«قاض متخصص بالقضايا المميتة؟! لابد أنك تمزح».

«لا، كن على ثقة. ولمعلوماتك لهذا اللقب العتيد تاريخ لا يستهان به».

****

كان البروشي مديراً للشؤون القانونية في الدائرة العقارية العائدة لبلدته، وهي مدينة صغيرة يشقها من منتصفها نهر عرمرم، واقعة على أطراف صحراء تجلب النعاس والرمال والملل. درجة حرارة الطقس مرتفعة في الصيف، يتغلب عليها الرجال بقضاء أمسياتهم يسولفون ويلعبون الورق في مقاهٍ تمتد على ضفاف النهر، تدعى «الشرداق».

تمتع البروشي بمنصب معتبر، لم يطمع آخرون رغم شهاداتهم الجامعية، بمثيل له، ولم يفوزوا بأكثر من وظيفة متوسطة الحال في إدارة ما. كان يختلف عنهم، تطلعاته أكبر من أن يحتويها سراب الظهيرة، أو تهويمات العشية؛ وطموحه أكبر من أن يبقى مديراً مغموراً ومنسياً في مدينة تبعد عن العاصمة مئات الكيلومترات.

مع الأصيل ورخاوة النسيم، يتضاءل الشرداق، تسهو عين البروشي للحظات، فتقتنص منظراً ينبسط فيه ميدان كبير يشبه ملعب كرة القدم، ويفوقه اتساعاً، يرى نفسه جالساً على منصة، إلى جانبيه ومن حوله المحافظ وأمين الشعبة ورئيس الفرع، وقائد الشرطة ووجوه المنطقة، ومدير المدرسة الثانوية ولفيف من الأساتذة. في عمق المنظر، أعداد هائلة من البشر تترقب منه كلمة، لتملأ الفضاء زعيقاً وتصفيقاً. هل كان في سبيله إلى إلقاء خطاب جماهيري في هذا البحر الزاخر بالصخب والصمت؟ لم يحاول تفسير هذه الرؤية؛ البحر الصاخب، لم يستمد صخبه إلّا من النهر العرمرم الذي ارتد نهراً هادئاً، ينخفض منسوبه سنة بعد سنة. أما الصمت فلضرورات التكتم. أما هنا فللترقب... يترقبون ماذا؟! ورغم البشارة الصامتة، أيقن بأنه مؤهل للعب أدوار مُشرِّفة على مستوى الجمهورية، كان المشهد الجماهيري يكرسها في القيلولة، على الرغم من ركاكته وضعف تأويله.

ما البديهي في كون المرء موظفاً بمرتبة مدير في مدينته النائية؟ أن

يكون خبيراً بخفايا بلدة تنام وتصحو على السوالف، أخبار كثيرة ولا متغيرات. في الآونة الأخيرة، تناهى إليه همس محموم، وخيالات تهرول تحت جنح الظلام!! البروشي يتمتع بحاستين حساستين، إحداهما تلتقط دبيب أرجل النملة؛ والثانية، الرؤية في عتمة الليل الداجي. حدق جيداً، فرأى ذوي اللحى السوداء والطاقيات البيضاء، يهرعون في الليل الأسود بجلابياتهم إلى الجوامع عند سماع الأذان، يصلون ثم ينتظمون في حلقات للتفقه في الدين. استرق السمع، فسمعهم يلعنون الدولة، ويتوعدونها بالويل والثبور، ويعدّون لعمليات تنذر بدوي يصم الآذان، تدك عرش الطغيان. فاستشف اضطرابات في منتهى الخطورة، واستشرف أحداثاً تحقق آماله بدور، حلم به، يلعبه على مستوى الجمهورية. لم يخطئ تفسيره، وليته لم يصب.

أبلغ خفية رجال المخابرات في المنطقة بما رآه ووصل إلى سمعه. فوظفوه مخبراً لديهم. التحق، بعلم المخابرات وبالتنسيق معهم، بتنظيم إسلاموي سري معاد للدولة، يعمل أفراده خلف واجهات دينية خيرية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. ضمت الخلية التي عمل في داخلها أقرباء له، أحدهم ابن خاله، كان قد رشحه وكفله، مما سهل انتسابه إلى التنظيم، بل والتغاضي عنه، حين لم يرضهم ماضيه المشبوه. فتبرأ من أفكاره العلمانية التي اعتنقها سابقاً وتبجح بها في السنوات الفائتة، تحت تأثير مراهقته الفكرية في الجامعة والعاصمة. أما سبب تزكيته فالله الذي هداه، ومداومته مؤخراً على الصلاة في أوقاتها الخمسة، وإعداده العدة للذهاب إلى بيت الله الحرام.

قام عزيز البروشي بواجبه نحو الوطن خير قيام، مؤثراً المصلحة العليا

للدولة على أقربائه المتآمرين، وكانت النتائج إيجابية جداً، نَقَلَ إلى المخابرات، كل ما يتعلق بعناصر التنظيم المسلح، خلاياهم، أماكن اجتماعاتهم، خططهم، تعدادهم، تسليحهم، وأساليب عملهم ونشاطاتهم السرية، والتحضيرات الجارية للهجوم على المؤسسات الاستهلاكية ودوائر الدولة وقتل الحزبيين والموظفين القادمين من خارج البلدة. أخيراً، قبل ساعة الصفر، أسهم في عملية القبض عليهم، ثم شهد في المحكمة ضدهم، وفبرك نوايا ومخططات في حال قصرت اعترافاتهم. معلوماته لم تساعد القضاء على سحق الرؤوس المدبرة الكبيرة والصغيرة، الفاعلة وغير الفاعلة فقط، وإنما على تمكين المحكمة من إدانة أولئك المتبرعين ببعض الهبات الصغيرة من أصحاب الدكاكين، وموظفي الدرجات الدنيا، وطلاب المدارس الإعدادية، جميعهم اقتطعوا من مداخيلهم ومرتباتهم وخرجياتهم الضئيلة ليرات قليلة في سبيل إعلاء كلمة الله وانتصار الإسلام، سواء كانوا يعلمون أو لا يعلمون أن مبالغهم الصغيرة، كانت عوناً للإرهابيين على تنفيذ عملياتهم الإجرامية. وبلغ موقفه الجريء ذروته في تلك اللحظة الحاسمة التي شهد فيها علناً ضد ابن خاله، شهادة فاصلة وقاضية، أودت إلى الحكم عليه بالإعدام.

كان عزيز البروشي يتيماً، تولاه خاله بعنايته بعد وفاة أبيه، وأشرف على تربيته وتدريسه في المدرسة والجامعة، وصرف عليه من ماله، عاش في بيته، ولم يميز بينه وبين أولاده. أحب عزيز ابنة خاله، لكنها لم تقبل به زوجاً لمساوئ، لا محل لذكرها بالتفصيل، تمس شخصيته الحسودة والحقودة.

شهادته في المحكمة، كلفته باهظاً؛ خسر قراباته وصداقاته ومعارفه، وأنكره أهالي منطقته ومحضوه احتقارهم وعداوتهم؛ مع أنه حاول

إنقاذ ابن خاله لأسباب عائلية وعشائرية، لكن المحكمة كانت أبعد ما يكون عن أخذ صلات القربى والدم والعشيرة بعين الرأفة، فعانى صراعاً لم يكن مريراً، على أن القضاء أبرأ ذمته أمام ضميره، لقد حاول وأخفق، دون أن يمنعه وعلى الملأ من ترجيح سلامة الوطن على سلامة ابن خاله، رغم أيادي خاله البيضاء، عزاؤه أنه أنقذ أهالي منطقته من اقتتال طائفي.

أجهزة الأمن ثمنت تعاونه الكامل، وأخذت خبراته القانونية بعين الاعتبار، واقترحت مكافأته. فجاءت التعليمات من إدارة المخابرات، بالإنعام عليه بمنصب قضائي رفيع، في المحاكم الاستثنائية التابعة لأمن الدولة. كانت المكافأة كبيرة، أكبر مما توقع البروشي، لأنه لم يلتمس منهم سوى منصب يبعده عن مدينته مئات الكيلومترات، لسبب قوي، افتقاده للأمان، ولم يسألهم الحماية إلّا للوقاية من شر أعدائه المبثوثين في كل مكان. كان متعذراً عليه ارتياد مقهى، أو الأكل في مطعم، أو الاصطهاج في الشرداق، أو شراء ما يقيم أوده، أو حتى المشي في الشارع، دون أن يتلفت يمنة ويسرة؛ أهالي منطقته مشهورون بأنهم لا ينامون على ضيم، ويعاقبون خائن الأمانة وناكر الدم. قانونهم العين بالعين والسن بالسن. يتربون منذ نعومة أظفارهم على الثأر، ولا يروي غليلهم إلّا الانتقام، بشكله الأمثل: الذبح؛ والمحظوظ يفجرون رأسه بالجفت، الزلة عندهم لا يساوي ثمن فشكة.

لكن الأمور لم تمض بسهولة والبروشي لم يصبح قاضياً يفصل في قضايا أمن الدولة، إلّا بعد استنفار جهازي المخابرات والحزب، مرَّ خلالها البروشي في أزمة خانقة، وتحول هو نفسه إلى قضية، جرى التنازع حولها، على أعلى المستويات.

البروفسور

لم يكن البروشي حزبياً، بل رجلاً عادياً من عامة الشعب، لا قرابة تسنده ولا واسطة تدعمه. هذا ما استلفت نظر الحزب بعد صدور القرار، فسارع مسؤول التعيينات، وأبلغ إدارة المخابرات إيقاف العمل بالقرار، لا يجوز أن يحتل رجل من الشعب، حتى لو كان موظفاً ويحمل شهادة جامعية، منصباً قضائياً رفيعاً في محاكم أمن الدولة، بلا صفة حزبية ودون أقدمية تتناسب مع ثقل المنصب؛ الأجهزة التي رشحته ارتكبت خطأ، أخذوا شهادته في الحقوق كمؤهل وحيد للمنصب، دون أن يأتوا على ذكر عدم حزبيته. قرار التعيين يخرق النظام.

لم يرق لمخابرات العاصمة أن ينقُضَ الحزب ترشيح الفرع لرجلها المطلوب رأسه من أهل منطقته، موضوع البروشي لا يحتمل التأجيل والمماحكة. من التهاون ترك قضيته لمطمطة الأخذ والرد في

المراسلات، خلالها، قد تصيبه رصاصة طائشة، أو تدعسه سيارة، أو يتزحلق فيدوسه جمل. كانوا في العاصمة يعتقدون أن رجال العشائر يسرحون ويمرحون فوق جمالهم في البلدة. قبل حصول ما لا تحمد عقباه، كلفوا لتذليل هذه العقبة ضابط ارتباط حربوقاً ومبلضماً من الإدارة للرد على استفسارات مسؤول التعيينات في الحزب.

لم يقر الضابط بخطأ أجهزة الأمن الفاحش، وهي خطة لجأ إليها الضابط دون مقدمات، ليأخذ الطرف الآخر بالعبطة، أي مباغتة: جهازنا لا يخطئ، عملنا أصلاً منع الخطأ، وليس تصحيحه. وأعطى مسؤول التعيينات مثالاً كان وارداً بكثرة في تلك الأيام: الاغتيال!! كيف نصححه بعد وقوعه؟! وأصر على تنفيذ القرار.

فقال مسؤول التعيينات، النظام يقضي..

قاطعه الضابط الحربوق، وأضاف بالبلضمة السحرية نفسها: المصلحة العليا للبلاد هي النظام، وهي تحدده والمسؤولة عنه، ووحدها أملت علينا اقتراح قرار تعيين البروشي، ولا يحق للحزب الاعتراض على النظام بحجة النظام.

لم يستطع مسؤول التعيينات مجاراة الضابط في البلضمة والتبلضم، ولو حاول مناقشته، فسوف يُكَبِّر الضابط القصة، ويحيلها إلى قصة أمنية: مع النظام أو ضد النظام. فقال للضابط، في هذه الحالة سأتنحى عن النظر في أمر التعيين، وأُرسله إلى قيادة الحزب لتعتمد غيري. وطلب من الضابط مراجعة رؤسائه ليجري اعتماده، أو اعتماد غيره، للمراجعة القانونية.

قبل ضابط الارتباط بالاقتراح. وجرى الاتفاق مبدئياً على عدم إلغاء القرار، فقط إيقاف العمل به، وتأخير إعلام السلطة العليا إلى حين التوصل لحل موحد، منعاً لتشويشها كل يوم برأي مختلف. وهكذا أصاب التجميد البروشي الذي قعد في بلدته عاطلاً عن العمل، ريثما تبت قيادة الحزب والمخابرات بوضعه النهائي.

سُلمت قضية البروشي للمسؤول القانوني في الحزب، لاعتبارات عدة، إضافة إلى كونه ضرساً حزبياً مخضرماً، كان رجلاً حاذقاً وودوداً، فرض احترامه على أجيال من الحزبيين لاستقامته العقائدية، وإرضائه لمنتقدين شرسين من الحلقات الحزبية المغمورة، كما أنه، ولأكثر من واحدة تحسب له، لم يصطدم مع رجال عدة عهود؛ لم يكتفوا بالتشهير ببعضهم بعضاً، بل وأودع بعضُهم بعضَهم في السجون، ولم تشمله تقارير لجان التفتيش ولا حكومات نسفت الواحدة الأخرى دون رحمة. كان عندما ترحل الحكومة غير مأسوف عليها، ينعم بالسلامة تحت ظل الحكومة التي تليها. كما أطيح بالمقربين إليه من أثرياء العمولات، ولم يذهب مع لصوص المشاريع الحكومية إلى التقاعد الإجباري، أو التحقيق غير الطوعي. عدا ذلك، كان يجد دائماً ثغرة قانونية ينفذ من خلالها إلى بر الأمان.

كان اختياره من قيادة الحزب، ضماناً لعدم تراجعها عن قرارها، رجلها القدير سيُخرج أجهزة الأمن من القضية بلا قضية، مع توجيه اللوم الشديد إليهم. لن يصمدوا إزاء حججه، خاصة بعد أن درس القرار دراسة وافية، وفنده تفنيداً متكاملاً، وأعطى قيادة الحزب النتيجة سلفاً؛ على مسؤوليتي، أعيدوا البروشي إلى بلدته، مع تأمين الحماية الكافية له من شرطة مخفر الحي فقط. المسؤول القانوني كان من البلدة نفسها، ويعرف أن مخفر الحي إذا وقعت الواقعة،

ليس بمقدور رجاله توفير الحماية حتى للمخفر وحده. واقتراحه كان تخلياً عن البروشي لطالب ثأر، يشخته كالنعجة على قارعة رصيف المخفر على مرأى من مئات الأشخاص، مع مصادفة أكيدة؛ نصف رجال الشرطة يشخرون، والنصف الثاني في إجازة، والطبيعي أن يضيع غريمه بين عشائر وقبائل، لن تتأخر عن إغاثة القاتل الشجاع بإخفائه حتى عن الأقمار الصناعية، عملاً بقانون الصحراء غير المكتوب، وهو إغاثة الملهوف، أي نجدة الحزين الذي فجع بقريب أو صديق، ألم يُفجِع البروشي مدينة بأكملها بالعشرات من رجالها وشبانها؟! علل رأيه لأصدقائه في الحزب، إذا كان قد خان أهله وعشيرته، فمن يضمن ألا يخون الدولة ويسلم أسرارها للمخابرات الأميركية؟

كذلك إدارة المخابرات لم تقبل بالمسؤول القانوني مفاوضاً، إلّا لأن مرونته تؤكد كفاءته، سيلين معهم ويقبل بأي شيء حفاظاً على رأسه. ومع أنه لم يكن لديهم شيء جاهز ضده، لكن عند الحاجة، سيجدون أشياء تطيح برهط من أمثاله.

****

في الاجتماع الأول حضر ضابط الارتباط وبرفقته مفاجأة، لم تخطر على بال المسؤول القانوني رغم أنه قَلَّع أضراسه بالألاعيب المخابراتية. رجل يتأبط حقيبة ويلبس نظارات ذهبية، عدساتها فاتحة اللون، تبدو من خلالها عينان فضيتان: البروفسور حسان؛ أتبعه بتحصيله العلمي، دكتوراه في علم الاجتماع السياسي، ودكتوراه في الاقتصاد، بالإضافة إلى ماجستير في الفلسفة. لماذا لم يقدمه إليه على أنه الدكتور حسان؟! فيما بعد سيعرف.

هل أنت مثقف أمني؟! تساءل الحزبي المخضرم بسخرية، وإن بأدب، ليبطل مفعول الإرهاب الثقافي لرجل جاء مدججاً بشهادتي دكتوراه وماجستير على أعلى المستويات، ومن جامعات أوروبية غربية.

لا، أجابه البروفسور وهو يفتح حقيبته ويفرد أوراقه.

قبل أن ينسحب ضابط الارتباط فسر المفاجأة: جهازنا متعاقد مع البروفسور، وسوف يمثلنا في هذه القضية.

شيع المسؤول القانوني ضابط الارتباط بنظراته المستهزئة، ثم التفت إلى البروفسور، إذا كنت من شعبة الأمن الثقافي، فيجب أن أعلمك بأن تشكيلها غير قانوني على الإطلاق، الشؤون الثقافية عائدة لنا.

أنا مفوض بالكلام في الموضوع الذي جئت من أجله، عداه لا يهمني. قال البروفسور.

كاد الحزبي المخضرم أن يكون المنسحب التالي من الجلسة. لم يعجبه لقب البروفسور، له طابع غربي متسلط، لقب دكتور أخف وطأة لاشتباهه بالطبابة والصحة وضعف النظر. كظم غيظه، وسأله، دكتور، منذ متى أنت حزبي؟ متوقعاً أن ينهي الموضوع بينهما بالأقدمية، لا بالشهادات.

لست حزبياً، قال البروفسور ببرود، ثم لا تناديني بلقب دكتور.

لكنك تحمل شهادة دكتوراه. قال متعجباً.

لقب الدكتور ابتذل كثيراً، والدكتورايات الموجودة في السوق

مزورة. لمعلوماتك، الشهادات التي أحملها ترشحني للقب بروفسور.

عن ماذا سنتناقش؟ قال الحزبي بفراغ صبر.

أنا خبير، ردَّ البروفسور. ما سوف نتناقش فيه، قضية تقنية بحتة، على علاقة باتخاذ القرار الملائم في الظرف المناسب.

نهض الحزبي المخضرم منزعجاً، اسمح لي، لن أناقشك، هذه أمور سرية، تخص الحزب والحزبيين فقط.

البروفسور لم يتحرك، حدق إليه، وقال باستخفاف، الأسرار الوحيدة موجودة لدى الأمن، أنتم لا أسرار لديكم. وابتسم بخبث، ولمعت عيناه الفضيتان بخبث أكبر، بل لديكم فضائح. قاطعه الحزبي القانوني، ما الذي تقصده؟! قال البروفسور بوقاحة، فضائح فكرية. فهتف الحزبي منزعجاً، انتهى الاجتماع.

كان لا بد من انتظار اليوم التالي لتعرف قيادة الحزب عن العلاقة المستجدة بين رجال المخابرات والمثقفين الأكاديميين!! المخابرات لم تعد تكتفي بوظائفها المعروفة، المراقبة والتنصت، الملاحقات والمداهمات، التحقيقات والاستجوابات، وفتح ملفات للمشبوهين وإغلاق ملفات للمتعاونين، إلى التعذيب والتنكيل وانتزاع المعلومات. وهي أعمال متشعبة تفوق طاقتها إفرادياً فكيف مجتمعة، وتشوبها تجاوزات مريعة؟! ما علاقتهم بالفكر والأفكار، في حين تفكيرهم لا يتعدى تنفيذ الأوامر وتكديس الاتهامات والكشف عن المؤامرات، وغالباً لا يحرزون نجاحاً، وإن ادّعوا دائماً بأن الأمور على ما يرام؟! عدا أن بينهم وبين التفكير مسافات شاسعة، التفكير مهمة

الحزب لا رجال مخابرات لا يرون في الناس سوى جواسيس ومتعاملين مع الأعداء ومناهضين للثورة.

وبما أنه لا أسرار، فقد ترادفت الأخبار: المخابرات تجرب أن تفكر أسوة بأي جهاز مخابرات في العالم، وأن تستفيد من المفكرين، ولهذا السبب وظفوا لديهم بضعة أشخاص يحملون شهادات عالية، يستمزجون آراءهم في بعض القضايا، وهم في سبيلهم إلى تأسيس مكتب أبحاث يخوض في القضايا الشائكة محلياً وعربياً وعالمياً، مهمته تجميع معطيات حول مسائل معينة، مع مقترحات وحلول وبدائل، تُساعد على اتخاذ القرارات.

مكتب مهمته التفكير لحساب المخابرات، لماذا؟! أ لتساعدهم على اتخاذ... اتخاذ ماذا؟! قرارات محلية ودولية!! ما علاقتهم بالقرارات أصلاً؟! بل وخطوا في هذا المضمار خطوات واسعة، كما شأنهم دائماً، التسريع في أي شيء يضعون أيديهم عليه. المهمة الأولى المسندة إلى المكتب، دراسة أسباب تنامي نشاط الجماعات الإسلامية المتطرفة في العالم العربي، وانتشار ارتداء الحجاب في المجتمع السوري بمختلف طبقاته. ومع أن المكتب ما يزال مشروعاً على الورق، في الطور الذي يسبق شراء العتاد الثقافي وإعداد الكوادر، فقد باشر موظفوه الإدلاء بآرائهم المتحررة من الأيديولوجيات. ما حال أيديولوجية الحزب، إذا وضعت تحت براثن أصحاب الشهادات القادمين من الدول العدوة؟! هذا لا يهمنا حالياً، البروفسور حسان هو الذي يهمنا، المعلومة تقول أنه يشغل مركزاً مرموقاً في المكتب المقترح، ومكلف حالياً بمساعدتهم في حل قضية البروشي.

كيف أناقش أموراً حزبية مع شخص غير حزبي، حتى لو كان

مفكراً عبقرياً. قال المسؤول القانوني لضابط الارتباط، في معرض بيانه أسباب إيقاف اجتماعه مع البروفسور، ولـمَّحَ في الوقت نفسه إلى الخطأ الذي ارتكبه الأمن بخصوص البروشي الذي لم يكن حزبياً؛ ها أنتم تكررونه ثانية. هل فهم ضابط الارتباط ما يقصده. لا. فتابع، عدا أن لدينا كفاءات. وتساءل: لماذا نستعين بأناس نجهل هويتهم السياسية، وتوجهاتهم القومية؟

أنت أدرى بمثقفي الدولة والحزب الذين حصلوا على شهاداتهم بالواسطة أو اشتروها بالمراسلة. قال ضابط الارتباط بحزم.

كان الحزبي الضليع بالقانون المطلع على انتهاكات حرمة شهادات العِلم، أدرى بهم، بعضٌ منهم أصحابه، ولديه انتقادات جارحة عليهم وعلى أساليبهم، صرف النظر عنها حالياً، لأنها ليست في صالحه، وستكون مأخذاً على وجهة نظره. ثم إن النقاش عقيم مع ضابط مخابرات بدأ صبره ينفد. لا بد أن رئيسه اتخذ قراره، وهو أمر لا يحتمل المراجعة ولا التراجع، على أن المثير، هو التطور الحاصل في أجهزة الأمن، لم يستوعب بعد، تطلع المخابرات إلى المعرفة! ما لها وللمعرفة!؟ لماذا تسعى إلى إنشاء مكتب يعمل على استطلاع ما يجري في الداخل والبلدان المجاورة والعالم. المخابرات تريد أن تفهم لماذا ومتى وكيف؟!! بينما هم الجهاز الوحيد في الدولة الذي يهاجم قبل أن يعرف، ويداهم قبل أن يفهم.

ومهما يكن، لن يجامله؛ وبأسلوبه اللبق والحذر، لام أشخاصاً، دون تعيين، على عدم لجوئهم إلى الحزب الذي علمهم ورباهم ومنحهم وظائف ورتباً عسكرية، يردون صنيعه بلملمة أناس دون ماض معروف، وربما غير نظيف، يقربونهم إليهم لمجرد أنهم درسوا في

أميركا وأوروبا الغربية، مع أن بوسع الحزب أن يرسل إليهم متحدثين لامعين وخطباء مفوهين من الذين يعقدون المؤتمرات الحزبية ويظهرون في الاحتفالات القومية، يلهبون مشاعر الجماهير وشعبيتهم مضمونة. كما باستطاعة الحزب وبمنتهى المسؤولية والأمانة تزويدهم بما يطلبونه كتابياً وشفهياً، من مختلف أنواع الدراسات المعمقة التي لن تقل، بل تزيد بما لا يقاس عما سيوفره لهم أولئك من معطيات ليست أكثر من معلومات عامة وتافهة، مبعثرة في الجرائد اليومية. على الأقل، هؤلاء جماعتكم ومن عظم الرقبة، وغير مدسوسين عليكم، ما أدراكم أن هذا الرجل يحمل شهادات حقيقية؟! المخابرات المركزية الأميركية، لن تبخل عليه بتشكيلة منوعة من الدكتورايات الموثقة.

هذا شغلنا، قال الضابط.

إذا كان الأميركان ومخابراتهم ليس لهم أي حساب، فالكلام عبث. ثم مع من يتكلم أصلاً؟! مع ضابط من هؤلاء الذين أمخاخهم من حجر. متى كان هو أو غيره، يستطيعون التفاهم معهم؟ ضابط الارتباط لم يلف ويدور أو يتبلضم، طلب بشكل صريح، تحديد موعد الاجتماع التالي، وعلى أن يجري التباحث دون شروط، مع تنحية العراقيل من حزبية وغير حزبية، وإلّا سيضطرون إلى اللجوء لأساليب أخرى، تهمل الرجوع إلى الحزب نهائياً.

لم يجد المسؤول القانوني مناصاً سوى القبول، وإلّا تقلصت صلاحيات الحزب، إن لم يفقد مكانته. اليوم يحافظ بعض رجال المخابرات على الشكليات ويرجعون إلينا؛ غداً، لن يرجعوا إلينا ولن

نرى وجوههم. حسناً، ووعده بالمضي إلى النهاية في مناقشته مع الدكتور، لا، عفواً البروفسور، مهما كان الأمر مزعجاً للحزب، ويجد حلاً مرضياً للأطراف كلها.

****

استقبل مسؤول الشؤون القانونية، البروفسور حسان الذي عاد مفاوضاً مفوضاً، واحتل مكاناً بمواجهته، بمنتهى البساطة دون أية ضغينة، وبلا منفخة، مع أنه عاد بقوة المخابرات.

من أين لي أن أعرف، قال الحزبي المخضرم معتذراً بمودة. وأردف بأسف، من لا يعرفك يجهلك.

لم يلن البروفسور إزاء هذه المودة اللاحقة، لا يجهلها، مجرد شكليات من الانتهازيات الحزبية المألوفة، يلاقيك بابتسامة في وجهك ويطعنك من الخلف، وإذا كان قد طأطأ برأسه فخشية من غضب المخابرات. بهذا الأسلوب ينبغي التعامل معهم بلغة القوة لا غيرها، وهم بالمقارنة مع الأحزاب الأخرى في العالم متخلفون عنها بأكثر من مائة سنة، أهذا حزب؟! الحزب انتهى منذ سنوات، وترهل إلى حد لم يعد ينفع فيه علاج سوى التهميش، تمهيداً لتجديده بآخر، آخر تماماً. الحزبيون بارعون في أمر واحد: ابتكار عقبات بيروقراطية يدافعون بها عن مصالحهم عندما تتهدد. وعلى هذا، كان تصرف المسؤول القانوني، سابقاً الجاف، وحالياً الودود، مفسرين تماماً.

فرد أوراقه، وطلب من الحزبي الذي بدا ممتعضاً جداً، رغم تودده وأسفه، أن يعرض وجهة نظره بوضوح وإيجاز شديد. ثم لفت نظره

محذراً بجد، التفاصيل الحزبية الصغيرة غير مهمة، فلا تكثر منها.

انتفض المسؤول القانوني، وبين له بسخرية لم يكتمها، بأنه ليس ثمة تفاصيل حزبية مهمة أو غير مهمة، مبادئ الحزب وأنظمته لا تخضع لتخفيضات وأوكازيونات، إنها كل واحد، لا ينقسم ولا يتجزأ.

لم يرفع البروفسور رأسه عن أوراقه: أقصد بلا مقدمات تمهيدية ومطولات قومية وشعارات، اذهب إلى النقطة الجوهرية موضوع خلافنا. ثم رفع رأسه وقال، أعرف عمَّا أتحدث، كنت في الحزب وانسحبت منه قبل سنوات.

فوجئ المسؤول من إعلان البروفسور عن ردته. بينما لم يخف البروفسور المارق سروره، مؤكداً أنه فعل خيراً بانسحابه من الحزب. الوقح كان مجايلاً لابنه الأكبر، لا يزيد عمره على خمس وثلاثين سنة، إلى أي حد سيدعه يتغطرس ويتفهمن، ويستخف به، ويلقي عليه أوامره!! المزعج أن هذا الولد استفاد من الحزب، ولم يخجل من التنكر له. كان من الجيل الذي وفرت عليه شبيبة الثورة، مشاق الدراسة بمنحهم علامات مجانية، ودورات مجانية، ونجاح مجاني، واستغلوا ما وفره لهم الحزب من استثناءات، سافروا وتعلموا على نفقة الدولة، وحصلوا على شهادات. وعادوا ليُجهزوا بعلمهم على الدولة والحزب معاً. والأنكى، وجدوا لنشاطاتهم مرتعاً آمناً في المخابرات.

قطع عليه البروفسور أفكاره: عموماً بالنسبة للمستقبل، مكتبنا سيبحث في إمكانية تجديد الحزب، طبقاً للمواصفات العالمية للأحزاب.

هل كان يهدده؟ ربما. يظن نفسه مصلحاً مجدداً، مبعوثاً من العناية الأوروبية لإنقاذ الحزب مما آل إليه، لكنه، وبكل صفاقة، نقمة غربية يساندها قصر نظر مخابراتي محلي. شبان مُدَّعون وبلا خبرة، ولن يطول الوقت كثيراً عندما ستلفظهم المخابرات، بعدما استخدمتهم. تمنى أن يهمس في أذنه، يا بني، اقرأ التاريخ، في الماضي القريب كان العسكر يحكمون، أما اليوم فالمخابرات، ترى من سيأتي بعدهم؟! انتبه، هذا النشاز لا يدوم، دائماً ما يدوزن التاريخ تحركاته بإجراء تعديلات فجائية، التعديلات أحياناً ارتكاسات نحو الخلف، قد يعود الحزب. تعلّم قبل أن يلقنك التاريخ درساً تندم فيه على غفلتك. اقرأه جيداً، يجعلك في غنى عن مأساة حياتية قادمة.

لم يهمس له بكلمة، واقتنص خاطرة قبل أن تهرب، هذا الولد لم يحصل بعد على التدريب الكافي للتعاطي مع المسائل الحزبية، وبما أنهم يشدون من أزره، فيجب التحلي بالصبر. تحامل على نفسه، ترى هل يستوعب ما سيقوله له؟

قال المسؤول القانوني: محكمة أمن الدولة، محكمة استثنائية، تخضع لاشتراطات سياسية، وبالتالي يعد منصب القاضي ذا طبيعة سياسية، وتعكس الأحكام الصادرة عن المحكمة وجهة نظر السلطة السياسية، مما يفسر اقتصار صلاحية القاضي على أداء أعمال إجرائية بحتة، لا تشكل تدخلاً في سياسة الدولة، لضمان عدم تعارضها مع توجهات السلطة. بصراحة، الأحكام مثلما هي خاضعة للسلطة خاضعة لتوجهاتنا طبعاً. ليس نحن من يفرض هذا، بل الوضع السياسي، الذي لا يفصل بين السلطة والحزب؛ ونحن معاً، نوجه من خلال القاضي رسائل نمارس بها على خصومنا، ضغوطات

شديدة، أو تهدئات عاجلة. وأحياناً، انفراجات طويلة أو مؤقتة، ليس اعتباطاً، بل كلما استدعت الظروف.

قال البروفسور: يُعنى القضاء بالقانون وسلامة تنفيذه، هذا بشكل عام. والقضاء الاستثنائي، يجب عدم استثنائه من هذه القاعدة، خاصة من الناحية الشكلية. المتفق عليه تجسد فعل القانون في القضاء، إذا لم نلتق بالقانون في قاعات المحاكم، فأين سنجده؟ واقع الحال، أية قضية من اختصاص القضاء الاستثنائي لا تصل إلى القاضي إلّا منجزة تماماً، ولا تسمح له بتبني رأي خاص أو مغاير، مهمته إصدار الحكم فحسب، لا يبحث فيه من حيث الأساس أو الموضوع، ولا يُترك له مجال يتعرض فيه للقضية ذاتها أو لسلامة إجراءاتها. إنه مجرد شخص يتظاهر بالقيام ببعض المطالعات والمداولات الشكلية، إلى حين تلاوته نص الحكم. إذاً، القانون يلعب دوراً ثانوياً، ولنقل معدوماً. في الواقع، الذي يصدر الأحكام هو ذلك الخليط من السلطة والأمن والحزب. بالنسبة للقاضي أن يكون حزبياً، فهذا الأمر مخالف تماماً لشكلانية العملية برمتها، لإساءته بالإجمال إلى صورة القانون.

فقال المسؤول القانوني: في هذه الأمور، الشكليات هي الجوهر، نحن لا نستطيع التغاضي عن كون القاضي في مثل هذه المحاكم، رفيقاً حزبياً، فعدا عن تحقيقه الوحدة والانسجام في اتخاذ الأحكام، يؤكد على أن الحزب هو الحاكم والسلطة وصاحب القرار، وعلى أن القاضي يمثله. هذه الشكليات ضرورية وينبغي مراعاتها، ولا نستطيع التنازل عنها؛ ومنعاً للاختلاف بيننا، نقترح أن ينتسب البروشي إلى الحزب، ومن طرفنا سنسهم بالإجراءات ونوفر عليه الزمن، ونمنحه قِدماً يصبح بموجبه رفيقاً مناضلاً.

قال البروفسور: أعتقد أنك لم تفهم قصدي، هل كنت شارداً؟

قال المسؤول القانوني: لا، لم أكن شارداً، وأرجو ألا تستعمل هكذا تعابير ثانية، نحن لسنا في مدرسة، وأنت لست أستاذاً.

قال البروفسور: لقد قولتني ما لم أقله، خلافنا لم يكن على الحزب، ولا على كون البروشي رفيقاً مناضلاً أم لا. إذا رغبتم بضمه إلى الحزب، لا اعتراض لدينا على ذلك، خذوه وضموه، بشرط أن يكون سرياً.

قال المسؤول القانوني: سرياً؟!! هل تظننا حزباً ممنوعاً. ثم من أنتم.. حتى تتجرأ حضرتك، وتعترض، أو لا تعترض؟!

قال البروفسور: الذي يعترض أو لا يعترض هو جهاز المخابرات. أما مسألة السرية، فالمقصود منها ألا يكون له ارتباط علني بالحزب، وإذا أردتم فارتباط من الباطن، وإبقاؤه في الخفاء. ينبغي على القاضي في المحكمة تمثيل الشعب لا الحزب.

قال المسؤول القانوني: الحزب يمثل الشعب، الحزب هو الشعب.

قال البروفسور: هذا ما تقولونه، أما الشعب فيقول شيئاً آخر. نحن يهمنا ما يعتقده الشعب، ونرغب في التحرك على أرض الواقع، لا على صفحات كراساتكم الحزبية. لديكم كل شيء محلول، بينما في الواقع كل شيء معقود.

قال المسؤول القانوني: إذا لم يكن الحزب بجماهيره يمثل الشعب، فلن يمثله شخص مجهول غير معروف. قل لي، ما الجدوى من هذا

اللف والدوران؟!

قال البروفسور: الجدوى ستظهر في التطبيق العملي، الفائدة كبيرة والمنفعة أكبر؛ عندما سيتلو القاضي الحكم، ويبدأ به على الشكل التالي: باسم الشعب العربي في سورية. فكر معي، ما الأحكام التي سيصدرها؟ أحكام بالموت أم بالحياة؟ الموت، غالباً الموت. القاضي قاتل يلبس لبوس القانون، حتى في حال انتحل صفة ممثل الشعب. بينما هو ليس أكثر من مجرم. أنا لا أقول هذا، بل الشعب. هل تريد لمجرم أن يمثلكم؟ الأفضل أن يمثل القاضي نفسه أو القانون، ويدعي تفويضاً من الشعب والأمة، لكن ليس من الآلة الحزبية. ألن تكون أنت بالذات أكثر اطمئناناً عندما تعرف بأن أحكام الإعدام لم تصدر باسمكم أنتم أيها الحزبيون؟ تخيل الشعب، عندما يدرك أن القاضي يحكم بموجب نصوص القانون لا أهداف الحزب، إلى من ستذهب أحقاده؟ إلى القاضي والقانون وله الحق في هذا، خاصة، وأن المحاكمات تسلق سلقاً. إبعاد الشبهات عن الحزب ضرورة، سمعته سيئة بما فيه الكفاية. ما ندعو إليه، جلب نظر الشعب إلى واحد خرج من صفوفه واعتلى سدة القضاء، والإيقاع في ظنه بأنه يمثلهم، وأن الأحكام الصادرة عنه، لا علاقة للسلطة والحزب بها، بل ومن الممكن لهما في بعض الحالات التي من الممكن الاستفادة منها، التدخل لدى القاضي لتخفيف بعض الأحكام القاسية، فيظهران أكثر رحمة من القضاء العادل.

تغلب عليه، البروفسور أكثر منه حرصاً على الحزب، يتكلم في الجوهر، وإن بدا متمسكاً بالشكليات، بل إن الشكل يخدم الجوهر، والجوهر يستغل الشكل. ويحقق تداخلاً بينهما، بحيث لا يمكن فصل هذا عن هذا، أين قرأ هذا؟ ربما في النقد الأدبي، الخيال ينفع.

وافقه، لكن في سره، رغم إصراره على مبدأ «الحزب يمثل الشعب» ولا يجوز المساس به، وعلى الأصح: الحزب القائد الأول للشعب، لا، ليس ثمة سوى قائد واحد للشعب والحزب والدولة. مع هذا، طلب مهلة لدراسة هذه الأفكار الطارئة، حيويتها الزائدة تحتاج إلى هضم، وليس إلى إعادة نظر.

لملم البروفسور أوراقه، لم ينظر إليه، فقط أكد عليه عدم قتل حيويتها بالمماطلة.

بعد سنوات عندما سيروي المسؤول الحزبي هذه الحادثة سيعقب عليها بأنها كانت من تلك المحاولات المبكرة لضرب الحزب بالاستعانة بمثقفين ليبراليين جواسيس، أين أصبح البروفسور حسان؟! تارة وزيراً، وتارة مرشداً تقنياً، وتارة خبيراً استراتيجياً، وأيضاً صاحب اهتمامات بالصراعات الدولية.

الرد لم يتأخر، وافقت قيادة الحزب على تعيين البروشي قاضياً في محكمة أمن الدولة لاستيفائه الشروط كافة، أهمها تحقيق شرط استقلالية القضاء عن السلطة التنفيذية.

وجه العدالة

باشر عزيز البروشي عمله فور تسلمه لمنصبه، وخلال أشهر انقلبت أوضاعه الاجتماعية والمعيشية، وأصبح في عداد الشخصيات المرموقة، يخالط كبار المسؤولين ويقتني أغلى الحاجيات، بعد أن رُصدت له مبالغ مالية كبيرة لمساواته مع أقرانه من أصحاب المناصب الخطيرة، فأجرى تحسينات على مظهره الخارجي، طالت ملابسه وتسريحة شعره وطلته وهيئته بالكامل، بما يتناسب مع منصبه ومسؤولياته. واشترى أثاثاً للفيلا التي قدمتها إليه الدولة بمبلغ رمزي يجري تسديده على أقساط زهيدة وطويلة الأمد.

تقع الفيلا في منطقة راقية، وقع اختيار كبار رجال الدولة على السكن فيها مؤخراً، لنظافة شوارعها وكثرة خمائلها وأشجارها الظليلة. كذلك، الهدوء المخيم على دخلاتها، المساعد على تهدئة الخواطر والتفكير العميق، عدا عن سهولة توفير الحماية اللازمة لعدم

اكتظاظ المنطقة بالسكان. وأصبح على باب منزل القاضي البروشي سيارتان وكولبة حراسة وعناصر مرافقة أسوة بغيره من المطلوبين في ذلك الوقت على ذمة الإلحاد والكفر والمروق.

بعد إصداره عدة أحكام بالجملة لم ينزل واحد منها عن العقوبة القصوى، طار صيت صلابته في أرجاء الجمهورية، سبقتها إشاعات نشرتها أجهزة الأمن عن عدم رضاها عن تعيينه، والسبب عدم حزبيته، رافقتها إشاعات أطلقها الحزب تؤكد رضاه عن استقامته على الرغم من عدم حزبيته. أما ما أعلنه القاضي البروشي في أكثر من مناسبة فحرصه على تطبيق القانون نصاً وروحاً، والضرب بيد القانون الطويلة والحديدية على كل من تسول له نفسه العبث بوحدة الأمة، وإنزال أشد العقوبات بالمخالفين، مستوحياً مبادئه من الشعب، وليس من الدولة، لأن الدولة حسبما قال بصراحة ليست دولة القانون بعد؛ ولا من الحزب، مع أننا كلنا حزبيون وإن لم أنتسب إليه. أما المبادئ الأخرى، فعلى رأسها مبدأ يؤمن به بقوة ولا يتنازل عنه: لا مصلحة تعلو فوق مصلحة الوطن.

وبالرغم من أن قانون الجرائم الواقعة على أمن الدولة، لم يدعْ مكاناً للرحمة، مهما كانت الأسباب الموجبة، لم يخلُ القانون من هوامش إجبارية، ضيقة جداً تخفف من شدة العقوبات، إذ للأبرياء حصة وإن كانت ضئيلة، تُرِك للقاضي تقدير مقدارها، وهي ليست أكثر من مراعاة حالات ترقق القلب، وثغر تُلينٌ تحجر القانون، بقدر من التسامح الاضطراري، وهي حالات، الرأفة فيها واجبة وواضحة وضوح الشمس، فكان البروشي يسدها بمزيد من القسوة، لم لا؟ ما دام الفصل فيها يتسم بحرص غيور على الوطن؟

****

باتت أحكام الموت واجباً قومياً، لا تتحقق العدالة إلّا به، عقاباً على أفعال يرتكبها خبثاء مجانين مهووسون بالعنف، يستغلون الوازع الديني لدى أنصارهم من العامة، والأنكى أنه لا جدوى من استيلائهم على الحكم. ما الذي يفعلونه بأجهزة الدولة، كيف يديرونها؟! عوام فقراء جهلاء، لا يقرأون ولا يكتبون، لا يفقهون ما يفعلون؛ أو أصحاب دخول محدودة لا تفي بالحاجيات الضرورية لزوجة مسكينة وزرافات أطفال يلبسون أسمالاً بالية، وينامون على الطوى. ألا ينبغي على الأزواج الآباء إملاء بطون أولادهم الخاوية قبل تكفير السلطة ومقارعتها؟ بل وامتد تأثيرهم إلى شبان متوسطي الحال، متعلمين وأصحاب شهادات جامعية علمية، ورجال أصحاب أعمال ومصالح، أطباء وصيادلة ومهندسين. ألا يملي عليهم الواجب الوطني الالتفات إلى بناء البلد بدلاً من تهديمه؟! فكان لا يرحم الجميع. ما دام هؤلاء مثل هؤلاء، الـمُحرِضون مثل الـمُحَرَضين، يتضامنون مع بعضهم بعضاً بغيرة تدينية متطرفة، وتتحكم بهم عقلية متزمتة حاقدة وهوجاء، وينساقون كالقطيع إلى التدمير والقتل.

بعض القضايا كان شائكاً ومشبوهاً، قُصد منها التخلص من أشخاص غير موالين، أو مشكوك في ولائهم الكامل، أو القضاء على معارضين يتذرعون بالحرية وحقوق الإنسان، أو معادين لبعض الجهات المسؤولة في الدولة، يزعمون تمثيل معارضة من داخل النظام، أبدوا تطلعات مختلفة أو مخالفة للنهج القومي؛ وتعاطفوا مع الاتجاهات الإسلامية المعتدلة. كان رؤساؤه الكبار يخشون القضاء عليهم، ويحرصون على إبقاء أيديهم نظيفة، فيوكلونها إليه، لعدم توافر الأدلة، فيأخذها على مسؤوليته، متبرعاً بتوسيخ يديه، يقوم بها خير قيام، وأزود.

أحياناً، كانت العدالة، لوجهها فحسب، تتطلب إظهار براءة أبرياء

مظلومين وكشف أعمال مجرمين متنفذين. أما لماذا؟! فحفاظاً على مكانتها وسمعتها، أو تذكيراً بها، أو إعلاء لشأنها وتدليلاً على أنها فعلاً عمياء لا ترى الأشخاص بل تتلمس أفعالهم، فتعتني بالأبرياء وتطلق سراحهم، ولا تدحض دعاوى الأشرار فقط، بل وتضعهم خلف القضبان، دون تمييز بين غني وفقير، حزبي وغير حزبي، مدعوم وغير مدعوم. لكن البروشي كان عادلاً أكثر من العدالة نفسها، بل ويغمز من عاهتها: العدالة عمياء، نحن مبصرون. فلم يظفر واحد بالبراءة حتى لو كان بريئاً. كان يجد دليلاً يدين ولداً لم يتعد سن البلوغ، أو امرأة حاملاً، أو شاباً معتوهاً، أو رجلاً ضريراً، أو شيخاً على حافة قبره. قولته المشهورة، لا يصل إلى محكمتي بريء. كان حكم البراءة، في يقينه، دليل ضعف وحمق وجهل. كان استثنائياً حتى بين تشكيلة القضاة الاستثنائيين، فأصبح، بلا منازع، رجل القضايا المميتة.

اسمه وحده، كفيل بزرع الخوف ونشر الرعب في أي مكان يحل فيه، أو يمر به. يتهادى البروشي بسيارته المارسيدس في الشوارع والأسواق، تحف به عناصر الحماية المسلحة بوجوههم المكفهرة الكالحة وملامحهم العابسة المزمجرة، متحفزين وأصابعهم على الزناد، يسري اسمه كالكهرباء في الفضاء، فيصعق المارة، ويصبغ الهواء بالسخام. ظلال الأسلحة ترتمي على الأرصفة، فوهاتها مسددة إلى الوجوه والشرفات، يتسلط شبح الإعدامات على الباعة، يغيبون في محلاتهم، لا يتجرأ أحد على إزاحة عينيه صوب السيارة، خشية أن تصطدم عيناه بعيني ذلك الذي لا يطرف له جفن، وهو يوزع الموت بموجب تفويض من الأمة، على أفراد عاثري حظ من أمة عاثرة حظ، بقايا بشر تقصفت أرجلهم وجف ماء الحياة من وجوههم ونصل لون الدم في عروقهم.

صورته الخارقة هذه، لم يكن يجهلها، كان يهوى رؤيتها في عيونهم، على هذا النحو فائق الرهبة، مهيمناً عليهم، شبيهاً بالقضاء، قضاء الله، ورسول المنية، قابض الأرواح، والإله؛ من غير إله الموت يميت الناس؟ أما الناس فلم يروا فيه سوى آلة أحكام جائرة.

وسوف يأتي وقت يتذمر فيه رجال القانون، حتى الأنذال منهم؛ قسوة البروشي تتجاوز صلاحياته، إن كان قصده إحاطة شخصه بهالة من الترعيب، وتغذية شهرته العريضة بمزيد من البغض والفزع، فقد وصل إلى مراده. يكفي، الظروف تغيرت، والكثير من القضايا لا تستوجب إعدامات وأشغالاً شاقة مؤبدة، ولا أحكاماً بمدد طويلة؛ القضايا المستوجبة، فات أوانها، زارعو الفتن قبض عليهم، ومن لم يقبض عليهم فروا من البلاد. نحن في زمان يستلزم بعض التراخي، الحرب انتهت.

****

لكن زمان البروشي كان مخالفاً، ثابتاً على حاله لا يتقدم، الحرب على الإرهابيين ما زالت قائمة، وإذا كان ثمة هدنة، فمؤقتة، يستغلها خصوم الشعب في تجميع صفوفهم وشحذ أسلحتهم تحضيراً لمعارك حامية الوطيس، تخلف شلالات حمامات أنهاراً وبحاراً من الدم. فلنحترس، إنهم حولنا. يتلمحهم من خلف زجاج سيارته وهم يتبعثرون من أمامه بوجوههم الشاحبة وأجسادهم الضامرة، وملابسهم الرثة، لا يخطئ نظراتهم الخبيثة، ولا خنوعهم المرائي. وفي صلاة الجمعة التي يضطر إلى الذهاب إليها مع الوزراء، لا تفوته تمتماتهم المدغومة، ولا رائحة عطورهم الزيتية القبيحة

الفواحة من لحاهم. وفي زيارات خاطفة يقوم بها لبلدته، ليزور لا أحد، يقتحم على الأهالي والأقرباء، مجالسهم وخلواتهم، فيتأكد من جديد، أنهم ما زالوا يكرهونه. الحاقدون الأوغاد، لم ينسوا!!

غيره من القضاة، أدركوا المطلوب منهم، جاروا تغير الأحوال وتبدل المتهمين. هذا زمان القضايا تافهة القيمة، فساد وإفساد وأموال مسروقة أو مختلسة، وهدر للمال العام. يكفي إرسال المتهمين الجدد المغضوب عليهم إلى السجن لمدد قصيرة، أو التجميد بلا عمل في مكاتب نائية، أو التوصية بإهمالهم في مناصب مغمورة لا أهمية لها، أو تجريدهم من مناصبهم المرموقة، وتوجيه تنبيهات تعنيفية، وإلحاقها أحياناً بتوقيفات زجرية، وقد يودعون في بيوتهم إلى حين تمس الحاجة إليهم، مع الأخذ بالحسبان، أنه سرعان ما سوف تمس الحاجة إليهم.

لم يفهم البروشي أن القضايا الداخلية باتت تلفلف وتوضع على الرف، وعقوباتها الترهيبية، أو التأديبية، أو التحذيرية، أو التنديدية، هي حدودها القصوى، تبلغ أهدافها بالتشهير بهم بين الرفاق، مجرد أن تجرح كرامتهم، وتوطي رؤوسهم، مع أن كرامتهم لا تجرح ولا رؤوسهم توطى، الجميع حالهم واحد، أناس ينكشفون وأناس لا ينكشفون، ليست أكثر من استراحة، ريثما يؤكدون أنهم على الولاء باقون، ما المطلوب منهم أكثر من الولاء والمزيد من الولاء؟ هذه القضايا لا تأخذ طريقها إليه، وإن حاول انتزاع المثير منها، بسبب الأسماء اللامعة لأصحابها. ولئلا يصطدموا معه، كانت الأوامر، أبعدوه عنها. ثم أصبحت:

اقضوا عليه

لم يصطدم الحزب مع البروشي إلّا عندما تعرض رجال في قيادة الحزب لوساطات لم يستطيعوا ردها، من شيخ عشيرة معروفة، بشأن ابنه، وحيده وقرّة عينه، رزقه الله به على كبر. لم يكن مجرد شيخ عشيرة في صحراء لا تنبت عرقاً أخضر، ليس لها أول وليس لها آخر، وإنما لها أول ولها آخر، واقعة على الحدود، أولها في سورية وما بقي منها واقع ضمن حدود بَلَدين مجاورين وشقيقين، قوافل التهريب تمر عبرها، وهو يسمح ويمنع، دون الانتقاص مما تعارفت عليه القبائل من التقيد بالشمائل العربية، الشهامة والكرم وحفظ الأمانة وإجارة المظلوم. وقد اشتهر عنه، أنه في مرحلة من مراحل نضال الحزب السري، أجار جماعة من المطاردين الحزبيين في مضارب القبيلة، آواهم في خيمته وأطعمهم من إدامه ونيّمهم على فراشه وبسط حمايته الكاملة عليهم، وأعطاهم الأمان على الرغم من تحويم هيلوكوبترات الحكومة وهديرها في سماء العشيرة. ولم

يسلمهم للسلطات الرجعية رغم العروض المغرية. بعد انتصار الثورة، وتتالي العهود اللاحقة، عُرف بعلاقاته الوثيقة والطيبة مع الدولة والخارجين على الدولة.

طلب الحزب من البروشي الرأفة بابن شيخ العشيرة، طالب ثانوية عامة، استغل أصدقاؤه تدينه وجرأته وأخلاقه العربية الأصيلة، ولعبوا بعقله وضموه إلى جماعة الأخوان المسلمين، بعد أن لم يبق إخوان ولا مسلمون. جريمته أنه شارك في اجتماع ضم أعضاء، قيل إنهم خطرون، لكنه كان حارساً للاجتماع، أو مراقباً، وربما كان نائماً، أي أنه لم يسمع ما دار بينهم حتى يُبلغ عنهم. المقصود من إيراد هذه التعلات، توفير أسباب طلب الرأفة له، والمطلوب طبعاً، تبرئته. البروشي رفض، يكفي أن يكون المتهم مشتبهاً بانتسابه إلى جماعة الأخوان المسلمين، أو إلى جماعة لها علاقة بالإخوان، أو الجهاد، أو الإسلام السمح أو غير السمح، أو حتى بـ: لا إله إلّا الله، أو محمد رسول الله، ليفوز بعقوبة الإعدام، سواء شارك أم لم يشارك، سمع أم لم يسمع، نام أم لم ينم.

بعد تدخلات، وعدهم البروشي بسجن مؤبد. كانوا قد وعدوا شيخ العشيرة خيراً. أي خير في المؤبد، إذا كان الولد لن يخرج من السجن إلى الأبد؟! وإذا خرج، فمن مؤبد السجن إلى مؤبد الموت. هل يصدق شيخ العشيرة ما بذلوه فعلاً من وساطات، وأن الحزب القائد، الذي يقود البلد إلى الوحدة والحرية والاشتراكية، ومؤخراً إلى القرن الواحد والعشرين، لا يمون على قاض في محكمة ملحقة بالدولة، قاض لم يكن سوى موظف تافه ومخبر صغير تطوع للدس والتخبير، وأوقع بأهله؟!

رجوا الشيخ أن يطوّل باله، الأمر يحتاج إلى لمسات قانونية. الشيخ

طوَّل باله، لسبب واحد، قاله لهم، لن يتنازل ويطلب من القاضي النتن خدمة ولو كان فيها إنقاذ لابنه من الموت، فلم يذكروا له الحقيقة، لئلا يضطر إلى حل أموره بطريقة ليس هناك غيرها، يرسل له ابن عم الولد، فيطخه في رأسه وانتهى الأمر، لا مين شاف ولا مين دري. لم تكن المشكلة في قتل البروشي، وإنما كيف يُقتل، والحراسة مشددة عليه، قاتل واحد لا يكفي، بل يحتاج إلى قبيلة بحالها مجهزة بالأسلحة الأوتوماتيكية، وسيارات تفوق سرعتها المارسيدسات، في ذلك الوقت كانت سرعتها لا تقل عن سرعة الصوت.

بعد مزيد من التدخلات والضغوط المباشرة وغير المباشرة، واجتماعات استعادوا فيها مع البروشي التاريخ الشفاهي للنضال السري للحزب، بعد أن أهمل التاريخ المكتوب علاقته بالإقطاع الصحراوي؛ وأكدها شهود العيان، باليوم والساعة والدقيقة، أول الربيع عندما خرجت العشيرة تحمل خيامها وتجري مع قطعانها طلباً للكلأ، أنقذ زعيم العشيرة هذا رجالات الحزب في مرحلة حرجة، وآن الأوان للدولة أن تنتهز الفرصة وترد له جميله. اقتنع البروشي وأنزل مدة الحكم إلى عشرين سنة.

جن جنون الحزب، القضية لم تعد قضية مظلوم أو غير مظلوم، أصبحت حرب موانة، هل يمونون أم لا يمونون؟! بعد اللتا واللتيا، اكتشفوا أنهم لا يمونون، البروشي لم ينحلب ولم ينجلب، ولم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة، القانون هو القانون. كاد الحزب أن يموت بغيظه، هم الذين صنعوه، ووضعوا له أنياباً، وأعطوه منصباً لا يحظى به في المنام ولا في أحلام اليقظة، أليجلس على منبر القضاء، وينشب أنيابه فيهم؟! أرسلوا له، أنت تتحدى الحزب! أرسل لهم،

الحزب على رأسي. فقالوا، سنرى، أنت أم نحن. وأقفلت محاولات التفاهم، مع قنواتها الكثيرة دفعة واحدة.

البروشي سيصمد، ويتعلل، لا أحد فوق القانون، حتى الله جل جلاله!! دون أن يقصد المبالغة أو الكفر، الله لا تطاله قوانين البشر. وسيتذكر الحزب بأنها ليست كلمات تقال، ألم يستعن عليه الأصوليون، ومن لف لفهم من الأبرياء الضعفاء وغير الأبرياء ومعهم بعض الأقوياء، بالله الواحد الأحد الفرد الصمد؟ هل رضخ؟

لم يعد أمامهم سوى تجريده من عناصر الحراسة، ليستفرد به أعوان شيخ العشيرة في ليلة ليلاء لا يهم إن كان القمر طالعاً فيها أم نازلاً. بعد التداول والحسابات المستقبلية والبوليسية، وكيلا يستلفت اقتراح سحب الحراسة عنه الأنظار والشكوك، يجب أن يشمل اقتراح سحبها الجميع. وهي خطوة إذا نجحت، فلن يسري مفعولها إلّا بعد سنوات، هذا إذا سرت ولم يوقفها عن السَّريان أحد.

بينما كانت الأمور تتفاقم بينهما، وتتطور إلى قضية كرامة، كرامته أو كرامتهم؟! عادت المراسلات بينهما، يرسلون له تهديدات، ويرسل لهم قوانين، يتبادلون السمع ولا مستجيب. اسوَدّ وجه الحزب وتندّى خجلاً فاحماً، والبروشي يطنش ويتنفخ ويبرطع ويتفشخر. بعد أن جربوا الوسائل كافة، دون أن تفلح واحدة منها، لم تعد هناك سوى وسيلة واحدة، ورجاء وحيد: سيادة الرئيس.

توجهت ثلة من قيادة الحزب إلى القصر الجمهوري، قابلوا مستشار الرئيس، عرضوا عليه الأمر. قال المستشار، البروشي سبقكم، وأعاد

عليهم ما أسمعهم إياه البروشي: القانون هو القانون. فخرجوا على قفاهم.

لكنهم سيعودون بعد يومين، ومعهم شيخ العشيرة الذي وصلته الأخبار، وقال لهم، لست بحاجة إلى وساطتكم، لجأت إليكم إكراماً لمعرفتي بكم، لم أتخطاكم وإنما تقيدت بالتسلسل، دعوني، أريد مقابلة الرئيس.

استمهلوه، ما الذي ستقوله له؟

الرئيس كان واحداً من الذين آويتهم في خيمتي، شرب قهوتنا، وأكل من زادنا، ونام إلى جواري على الأرض.

لم تقل هذا من قبل؟! تساءلوا مستغربين.

المنيحة ما بدها منّية.

هل ستمنن الرئيس؟ سألوا متخوفين.

واحدة بواحدة.

استُقبل شيخ العشيرة في القصر، فتحوا له باب الرئيس، فدخل مع وفد الحزب. في القاعة، توقف وفد الحزب، فيما تقدم شيخ العشيرة متعكزاً على عصاه، تخايل أمام عينيه اثنان، شملهما بنظراته، ونقَّلها بينهما متحيراً، أيهما الرئيس؟! قال معاتباً، إذا كان بصري ضعيفاً، فهل بصر الرئيس ضعيف؟ فنهض الرئيس واحتضنه، أمسك ساعديه بكلتا يديه، تأمله وابتسم، ما الذي تذكره؟ ربما تذكر الخيمة والأوتاد، والسجف المرفوعة المفتوحة على مدى يتصل بصفحة سماء واسعة غنية بالوعود، وفضاءات لا حدود لها مبشرة بالآمال.

اعتصره بين ذراعيه وعانقه ثانية قائلاً، لا تفتح فمك، طلبك مجاب. فقال، سأفتحه، أريد ابني. التفت الرئيس إلى المستشار، ردوا إليه ابنه. ثم أشار إلى وفد الحزب بالانصراف. وتابع الرئيس حديثه معه، وتذكرا معاً تلك الأيام الخوالي.

****

سجل الحزب انتصاراً على البروشي، لم يكن حاسماً، ولم يحصل بجهودهم، ولم يستبعدوا عندما تحين الفرصة، أن يقتص منهم فرداً فرداً، أو بالجملة. قبل أن تحين فرصته، ولو كانت ضئيلة، عليهم اهتبال سانحة للتخلص منه. حازت الفكرة على إجماع شبه كامل، لكن كيف؟! الأمر بسيط، استعادوا الأسلوب الروتيني المتبع في القضاء على الأشخاص غير المرغوب فيهم. طلبوا من الأصدقاء في المخابرات دراسة ملف البروشي، وكانوا على ثقة من النتيجة، ليس ثمة مسؤول في الدولة إلّا وله ملف مدرج في الأدراج موصول به كظله، ما يفعله سراً أو جهراً يسجل هناك في ملفه المحفوظ. حتى هم أنفسهم لا يشكون في وجود ملفات تحمل أسماءهم. وهذا لا يعيب مسؤولاً. من منا بلا ظل؟! وغني عن البيان، ليس هناك من ملف أبيض أو نظيف.

البروشي حسب معلوماتهم، يعيش حياة ليست باذخة، لكنها قطعاً، لا تتناسب مع دخل محدود وثابت، معروف مقداره، لا يتيح لصاحبه مع زوجة وثلاثة أولاد سوى العيش على الكفاف. على هذا، لن يشذ البروشي عن القاعدة التي لا تقبل استثناء، ملفه سيثبت تلقيه رشاوى كبيرة لتسهيل أمور لا تخص القضاء، لابسها التعقيد أو الإرجاء والإهمال، فينزل بثقله، أي بسمعته المخيفة

فحسب، مما يعني استدعاء مسموعياته المميتة، فتتكفل وحدها بتذليل مصاعب أي أمر والإطاحة بما يعترضه من عقبات. حصيلة مردود اسمه الجبار كانت قطعتي أرض، واحدة في منطقة اصطياف، والأخرى في ضاحية قريبة. الأولى بدأ يبني فوقها فيللا مع مزرعة، والثانية بناية بأربعة طوابق. كلتاهما مسجلتان باسمه بشكل رسمي وفق عقود شراء قانونية؛ ومن الصعوبة إيجاد ثغرة فيهما. أما الرشاوى النثرية فواضحة للعيان، وأكثر من أن تحصى، فهو مثلاً، لا يسدد للباعة مقابل ما يشتريه منهم، ولا يدفع للمطاعم ثمن ما يتناوله لديهم من طعام، ولم يدفع لصاحب محل المفروشات ثمن غرفة النوم الجديدة، ولا لصاحب مكتب المقاولات كلفة بناء غرفتين في حديقته مع كسوتهما. وفي الصيف الماضي، لم يسدد للمتعهد تبديل مطبخه القديم بمطبخ أميركاني، ولم يدفع طوال سنوات من فواتير السوبر ماركت من الجمل أذنه، حتى حساب الكوافير الوسيم لم يسدد منه قرشاً واحداً!! لماذا؟! إذا كان الكوافير يخشى النظر إلى شعر زوجة البروشي المباح للغسيل والصبغة والقصقصة والتصفيف والسشوار والفكساتور، ويكلف آنسات محجبات ومحتشمات بهذه المهمات التنظيفية والتجميلية، فكيف تواتيه الجرأة على رفع نظره والمطالبة بأجره؟!

قس عليهم، باعة الحلويات والشوكولا والألعاب والهدايا والأجواخ، والملابس الجاهزة النسائية والرجالية والولادية، والأحذية وحقائب السهرة والسفر والمدرسية، والخياطين والخياطات. جميعهم، لا يتذمرون؛ الأصح، مبسوطون. لسان حالهم يقول، ربما احتجنا إليه؛ ويتبعونها، الله لا يحيجنا إليه. كان البروشي لا ينزعج من استغلالهم له بالإشاعة عن أنفسهم بأنهم مدعومون منه. كان لقبه القاتل يحميهم من غلاظات موظفي التموين والجمارك والمالية. من

يخطر له عدم تصديقهم، وهم يرون زوجة البروشي وأولاده فايتين طالعين من محلاتهم، برفقة عناصر المرافقة، يأخذون ما يريدون دون أن تمتد أيديهم إلى جيوبهم؟!

أُسقط في يد الحزب، بالمقارنة مع قضايا الفساد المعروفة البالغ حجم الاختلاسات فيها الملايين من العملات الصعبة، تعد قطعتا الأرض مع مجموعة المبالغ الزهيدة من العملات السهلة، فساداً يشكو من ضمور الفساد إلى حد مزر، ومن المعيب تحريك قضية ضده، نقطة الضعف فيها، عدم إضراره بالاقتصاد الوطني، ولا يضير إلّا بضعة أناس لم يشكوا منه، بل جنوا فوائد تفوق الأضرار اللاحقة بهم. وإذا كان ثمة قضية، فمهما بالغنا فيها، لن تفلح إلّا بالتعريف به كرجل هيلموطي، دنيء النفس، لا يتورع عن التطنيش على تسديد مبالغ سخيفة، تؤذي سمعة الفساد وتهينه. وقد يكسب من ورائها دلائل دامغة على ضيق ذات اليد وأمانته القضائية.

فحولوا وجوههم صوب البند الثاني في القائمة، سمعته الجنسية. مظهر البروشي مشجع لخوض مغامرات جسدية، رجل صنديد وفحل مثله، لا تكفيه زوجة بدينة لا يُميز طولها من عرضها، ووجهها من قفاها. أين يذهب بدمه الفائر، هذا إذا تذكرنا عنفوان رجولته المخمدة في بلدته، والتي تفتحت في العاصمة؟ كيف يسد جوعه من طيبات النساء في مدينة توفر لكل راغب لذة، ولطالب المتعة متعاً؟!

ابحثوا في الأخلاقيات. نداء، كان بمثابة استغاثة عاجلة.

على النقيض من الطبيعة البشرية، كان القاضي الهيلموطي عفيفاً،

يعف عن الجنس الآخر، لم تربطه علاقة جنسية بامرأة سوى زوجته. خلافاً للمسؤولين الأشاوس، الذين تزوجوا مثنى وثلاث ورباع؛ بالحلال. أما الحرام فلا تقع أعدادهم البرانية تحت حصر، والجوانية لا يعلم بها غيرهم. هل البروشي من طينة أخرى؟! ألا تهيجه امرأة مغرية؟ ألا يشتهي النساء الجميلات؟ ألم تجذبه أنثى فاتنة؟ أم يشكو من علة في نصفه الأسفل؟!

هذا النمط من الأسئلة الهستيرية المتلاحقة، كان الجواب عنه سلبياً. بيد أنه استدعى تأكيداً لا يقل عنها هيستيرية: إن لم يكن على علاقة مع امرأة، فلا بد أنه على علاقة مع رجل ضخم أضخم منه، أو شاب لطيف ورقيق خداه كالحرير، حسب مزاجيته، راكباً أم مركوباً!! دققوا في السجلات ولا تستثنوا أحداً، لا سيما حجاب المحكمة، والمرافقين، والسائقين، وصداقاته القديمة والحديثة.

باءوا بالخذلان، القاضي لا يخفي شذوذاً، أو ميلاً نحو غير جنسه، بل هو سوي في منتهى السواء، بل ويزيد عن السواء المتعارف عليه، ويصح فيه القول بأنه طاهر الذيل، لم تنكشف عورته إلّا على امرأته، مصداقاً لتباهيه بأنه لم يعرف سوى الحلال. لكن البحث والتفتيش سيثمران أخيراً، ليكتشفوا من خلال أوراقه الخاصة، علاقة عاطفية عذرية، مع امرأة غير معروفة، يخاطبها معنوناً رسائله إليها: ملاكي الطاهر. يبثها لواعجه وأشواقه بحرقة، يناجيها بالأشعار والدموع، يشكو من آلام الغرام المبرحة؛ يضرب لها موعداً بين الخمائل والأشجار، فتخلف موعدها، الهوى القتّال يضنيه، يفري عظامه ويصيبه بالهزال. طبعاً كان يكذب، كان وزن القاضي في ازدياد، ويطفُّ عن المائة كيلو، فيما المفترض حسب رسائله ألا يزيد على وزن الفراشة!!

بعد جولة مكثفة من التحريات، اكتشفوا المرأة الضامرة الخصر والعريضة الكفل، بعد أن استفزتهم مفردات القصائد المقعرة، ولكي يستوعبوا معانيها المهجورة، تقصوها في المعاجم اللغوية ودواوين الشعر العربية. لم تكن الرسائل التي لم ترسل، سوى مناجاة إلى امرأة مجهولة، امرأة في الحقيقة لا وجود لها، مجرد نصوص شعرية ونثرية منحولة، يطلق فيها القاضي العنان لقريحته الأدبية المغمورة. فعاد الحزب من حيث بدأ.

المرافعة

شكّل القاضي البروشي باستقلاليته وتلويحه بسلطته المستمدة من الشعب مباشرة، تهديداً لسلطة الحزب المستمدة أيضاً من الشعب مباشرة. سلطته لم تكن مؤذية لهم، كانت تحرجهم بإصراره على عدم الإصغاء لأحد من الجنس البشري سوى لشخص واحد فقط لا خلاف عليه. لكن ومهما يكن، لا يجوز أن تكون كلمة الحزب غير مسموعة. وبقيت قضية البروشي على رأس القضايا الواجب البت فيها، ليكتشف الحزب ولو متأخراً، الخطأ، بل والحماقة التي سها عنها زمناً طويلاً تاركاً الحبل للقاضي النزيه على الغارب يشنق به من شاء.

الصدمة، أن الكثير من الأكاذيب الرائجة عممت على أنها حقائق دامغة لا تمس؛ وعلى رأسها مفهوم القانون ذاته كما ابتدعه البروشي، بحيث أصبح مستغلقاً ومقتضباً جداً، ومقتصراً عليه

وحده، في لازمة لا تزيد على كلمات ثلاث. هل يصح الإيمان بأن (القانون هو القانون) فقط، ولا غير، لا كلمة زائدة ولا كلمة ناقصة؟! كأن القانون سر أو رموز وطلاسم لا يفقهها سواه، لا تقبل انزياحاً أو تعديلاً أو تحويراً ولا مجاراة للعرف والسائد. أليس للقانون روح، مثلما للحزب والدولة أرواح؟!

نعم، للقانون روح، وتتميز بأنها مطاطة، كان البروشي المستفيد الوحيد منها، إن لم يكن قد أزهقها أو طالعها، وهي روح بوجهين، أبيض وأسود، خير وشر، البروشي استغل وجهها البشع، فاحتكر أحكام الموت ورفع تعداد قتلاه ومساجينه، على حساب قانون يتسع للنقيضين، اكتفى بواحد منهما، ليرضي وساوس دولة، زعم دائماً، أنها مهددة بالإرهابيين. والجائزة، تعود عليه وحده، اسمه الخفاق في العالي، اسمه الباعث على الرجفة والإسهال والتعاسة. لم تكن سمعته المرهوبة إلّا غطاء لزهو يتفاقم، الدنيا لا تسعه، ولا يرضيه أن يمثّل وجه العدالة الطيب، بل همجيتها الصماء، لا يستجيب لنداء أو استجداء، لا رحمة. لا ظروف مخففة، أو لوساطة مهما كان مصدرها، إلّا لأوامر السيد الرئيس. عدالة كالمحدلة تدهس ما يعترضها، وتفرمه تحت عجلاتها المصمتة. هل كلما أرادوا منه شيئاً عليهم أن يشدوا الرحال إلى القصر الجمهوري، وبشرط ألا يكون البروشي قد سبقهم إليه؟

الحل الذي لا حل غيره، نزع الصفة القضائية عنه، بصرفه من الخدمة تمهيداً للخلاص منه. التمسوا من أجهزة الأمن عدم إرسال الموقوفين إلى البروشي. فطلبت منهم المخابرات مهلة، مازالت لديهم بعض القضايا التي تتطلب عدالة البروشي بالذات، قد يخلق استبعاده من الفصل فيها تمييزاً لا مبرر له، وهي قضايا مصنفة مسبقاً

في باب القضايا المميتة، أصحابها مدرجون مقدماً في عداد النافقين، لن يُحالوا إلى البروشي إلّا ليسمعوا الأحكام القاتلة تتلى عليهم بصوته الجهوري مرفقة بحيثياتها القانونية.

بعد ذلك شن الحزب حملة بيضاء، شرسة لا هوادة فيها: الدولة بحاجة إلى تبييض صورتها ببعض اللمسات التجميلية، وتنظيفها من قاذورات الماضي. انظروا إلى الواقع، لا تقتيل، لا ذبح، لا تشليح، لا تفجيرات. واقع هادئ ومسالم، يتعين علينا نقل صورته إلى العالم، ليرى بأم عينيه ما ننعم به من سلام، بل واستقرار يفوق استقرار الدول الديموقراطية التي تعج بعصابات الإجرام. أما اللمسات، فإجراءات عاجلة وسريعة، أولها وأسرعها، إبعاد هذا الرجل البغيض الذي دأب على تشويه صورتنا في الداخل والخارج.

ذهبوا إلى مستشار الدولة القانوني وفاتحوه بالأمر، التبييض لا يحتاج إلى أكثر من إزالة بضع نقط سوداء من وجه سورية الجميلة، فوافق. بادرت الدولة وكفت يد البروشي عن العمل غير آسفة عليه، فتنفس الجميع الصعداء، لكن الدولة لم تصبح أجمل، فاتخذ البروشي فور تأكده من وجه الدولة القبيح طريقه إلى رئاسة الحكومة، هناك أمام المستشار القانوني، كانت الدولة ومعها الحزب قد سبقاه وكدسا له قضايا وقضايا، أبرياء أعدموا، أبرياء اختفوا في غياهب السجون، أبرياء مازالوا بعد مضي عشر سنوات وعشرين سنة يتعفنون في الأقبية، وأبرياء ماتوا دون أن يعلم أهلهم عن مصيرهم شيئاً. كان تسميك ملفه ضرورياً ليرحل حاملاً على منكبيه جرائم الدولة كلها.

دفاعه كان قوياً، هؤلاء لم يكونوا أصلاً بعهدته، سلمهم إلى

الشرطة، أصحاء سالمين لم يصبهم خمش واحد، وما حدث لهم في السجون ليس مسؤولاً عنه. لم يكن سؤالهم عما جرى لهم؛ فيما بعد، وإنما عما لحق بهم من جراء أحكامه الظالمة، كان بوسعه تفادي أحكام قاسية، بل وبعضها كان من غير سند قانوني على الإطلاق!! ماذا تقول؟! وجد نفسه محاصراً، والهجوم عليه يحتاج إلى ما يفوق الرد. ترى، بالنسبة لقاض، حتى ولو كان في طريقه إلى أن يصبح قاضياً سابقاً، ما الذي يفوق الرد؟! المرافعة.

****

انبرى وألقى مرافعته على قسطين:

القسط الأول كان اعترافاً: لا، ليس بعضها كان بغير سند قانوني، بل أغلبها. السند القانوني يحمي المجرمين ولا يحمينا. هل أدعهم ينجون من حكم العدالة لعدم توفر أدلة واعترافات ووثائق وشهود عيان؟! هل أسمح لهم بتوكيل محامين واستدعاء لجان حقوق الإنسان ومراقبين دوليين وممثلين عن السفارات؟!

والقسط الثاني كان تأنيباً: هل أنساكم الاطمئنان وما ترتعون فيه من أمان، الذعر الذي رزحتم تحته سنوات؟ لو أنني تخاذلت وأشفقت عليهم، لكان هؤلاء الذين في القبور والسجون، يتنزهون فوق رماد جثثكم. ولما كنتم اليوم تتبارون في محاسبتي على ما فعلته من أجل الوطن. أخذتُ على عاتقي القوانين الصارمة وتفسيراتها الأشد صرامة، والحيثيات غير المتساهلة. ما الذي كسبته؟! كسبي الأكبر، تعريضي لمحاكمة من نكران الجميل، مقابل إصداري لأحكام، كانت من أجلكم، وعادت عليكم بأكبر المنافع. هكذا نجوتم، لا ألغاز ولا أسرار. حياتكم الوادعة، كان بديلها

الأوحد ألا يتمتع خصومكم بالحياة، أو البقاء على قيد حياة لا يرتجون منها سوى القضاء عليكم.

كانت المرافعة ناجحة ومفحمة، أفلحت في التأثير على ما أعقبها من جدل وما تلاها من مشاورات، ونجحت في تعديل القرار الصادر بصرفه من الخدمة إلى نقله لملاك المحاكم الجنائية. كانت الدواعي رغم أخطائه الشنيعة، قوية لا تقبل المناقشة. هل نعاقبه على موالاته لنا أكثر من اللزوم، أو على تشدده في تفسير قانون، لا يمكن أن يكون فعالاً، إلّا إذا كان شديداً وحازماً... وفتاكاً؟ ومهما يكن لا يجوز التخلي عنه بأي حال من الأحوال، وإلّا دفعناه لأحضان جهات يسعدها أن تتلقفه، وتوغر صدره ضدنا، ليبوح بخفايا نحن بغنى عن كشفها بعد أن كفكف الشعب دموعه، والتأمت جروحه، ونسي آلامه. نرتئي، أن يتوارى في محكمة الجنايات، ليشبع غرائزه في التشدد، هناك فائض في الإجرام والمجرمين من حثالات البشر، وقانون لا لبس فيه، معمول به، لا مجال فيه لأمزجة الإفتاء، صحيح أن فيه متسعاً لعدم الرأفة والمشانق، لكن فيه متسعاً أيضاً، لإسقاط الحق الشخصي وشهادات الزور واليمين الكاذبة والرشوة والاستئناف والنقض، كما يتمتع المتهمون بحق استئجار محامين للدفاع عنهم لقاء أجر معلوم.

إثر تبلغه الحكم عليه بالنفي إلى المحاكم الجنائية المدنية، صحا على صدمة فظيعة وحقيقة أفظع، كأنه استيقظ لتوه. رأى نفسه يسقط من حالق المؤامرات الدولية الكبرى إلى درك الجنائيات المحلية الصغرى. خدعوه، خال ما قدمه لهم على مسؤوليته، سيجنبه وطأة التغيرات الدراماتيكية، ويعصمه من التنقلات التعسفية. عاقبوه، بدلاً من مكافأته، وأطاحوا به من منصبه، حاجتهم إليه انتهت، بعد أن

علّق برقبته صرعى ومشانيق وأحكاماً بالمؤبدات وتوقيفات إلى أجل غير مسمى لأناس بعضهم مذنبون وبعضهم غير مذنبين، من جرائهم ترتفع يومياً إلى السماء آلاف مؤلفة من الأيدي تصب لعناتها وتدعو عليه بالعذاب بنار جهنم. لا يهم، العذاب مؤجل إلى يوم الحساب، إن كان هناك حساب في الآخرة. أما في الدنيا، على ظهر هذه البسيطة، فلِمَ الحساب؟! لم ير يوماً بهذا السواد. أين يداري وجهه في يومه الأسود؟ وأين يذهب بمخاوف أخذت تتفاقم، أعظمها شماتة عائلته التي نبذته، هذا جزاء من يبيع أهله، ليشتري رضا من لا أمان لهم.

حرصاً على كرامته، قرر تقديم استقالته، وقطع علاقته مع الدولة والقضاء والحزب والحكم والحكام، يوماً ما سيحتاجون إليه ويرد لهم الصاع صاعين.

كان حساب النفس عسيراً، ويا للنفس من ذكريات، تعود بنا إلى زمن نظنه قد مضى، فإذا به حاضر لم يتزحزح! هل كان على حق عندما شهد ضد ابن خاله؟ لم يكن على حق، لكنه لم يكن على باطل. قبلئذ، كان قد اختط طريقه، واختار أن يكون مع طرف ضد آخر، ابن خاله كان مع الطرف الآخر. فهل كان الحق مع ابن خاله؟ لا، مثلما لم يكن معه. بعد ذلك، هل كان ثمة حق؟ إن كان، فأين هو، أو ما هو؟! الحق ليس مؤقتاً ولا موقوتاً، أو مرهوناً بفترة من الزمن، ولا يخضع للسلطة والظروف والقوة والسياسة والطوارئ، أو يتبدل بين ليلة وضحاها، كما لا تمتلكه فئة أو جماعة ولا حتى حزب أو قضاء. هذا هو الحق، مجرد لا شيء، الحق ليس شيئاً ملموساً، ولم يكن شيئاً محسوساً، فلماذا يؤاخذ على علاقته بهؤلاء أو هؤلاء؟ عمل طبقاً للأوامر والتعليمات والمقتضيات، وحتى

عندما عمل من دون أوامر وتعليمات ومقتضيات، كان يعرف أن هذا ما يريدونه، ارتكب هفوات لم تكن مدانة، أصبحت الآن مدانة. ما الذي ارتكبه؟ يعرف، كان بمقدوره تجنب القتل؛ جريمته الغباء، كان بوسعه التنازل عن حقيقة مدعاة، موثوقة وقاتلة، إلى حقيقة مدعاة أيضاً، أدنى موثوقية وغير قاتلة، على الأقل، لا تقود إلى الموت.

هل صحا ضميره؟ لا، دفاعه انتهى، مع هذا، يا للنفس من مفاجآت، دهمته كآبة عاتية وعابرة. على أن الكآبة التي رحلت، أسلمته إلى أزمة طاحنة، لم يصادف في حياته أزمة مثلها نازعته فيها مخاوفه هذا النزاع الشرس الذي لا يرحم، سواء عندما أرسل بابن خاله ومعه شبان مجانين إلى التهلكة، أو عندما لم يوفر من الموت عملاء لجهة ما، إمبريالية أو متأسلمة، متدروشة أو إرهابية، ثورية أو انتهازية.

احتدم النزاع في داخله بين منافع لم يحصل عليها، وكانت في وقتها كثيرة جداً وفي متناول اليد، وغرم ضخم وقع عليه، ولا يمكن تحمّله. هل كان في تقشفه على خطأ؟! لا، لم يكن على خطأ. إذاً، هل كان على صواب؟ لا، يبدو أنه لم يكن على صواب. إذاً ما الذي حدث حتى بات لا يميز الصواب من الخطأ؟ وكأن الصواب هو الخطأ أو العكس، أو... دوامة أودت به إلى لغو لا فكاك منه، وعملية تعذيب غامضة ومدوخة، تراوح في مكانها، تدور حوله، وهو فيها يدور حول نفسه.

النزاع الممضّ حسمته أخيراً، الرافعة التي هدرت في الحارة، حملت الكولبة وذهبت بها، واختفى على أثرها عناصر المرافقة من الشارع.

عندئذ تراجع فوراً وحزم أمره، وهرع يراجع فلاناً وفلاناً، قابلاً بما يريدونه، بلا اشتراطات وعنعنات، لم يهدد بالاستقالة ولم تعد لديه طلبات أو رغبات وظيفية عامة أو خاصة، ولا إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، أو تعديلها، وإنما القبول بما ارتأوه تماماً، قاض في محكمة جزائية، لكن بشرط وحيد: إعادة الكولبة ومفرزة الحراسة!!

****

هل يعقل أن يحسم البروشي صراعاً ضارياً دار في داخله، بسبب تافه لا يزيد عن كولبة؟! كيف يمكن تعليل تسرعه واستسلامه رغم تحفظاته الكثيرة؟! أي سبب آخر كان أقوى تعليلاً، إلّا إذا كانت شخصيته مصابة بخلل فادح، وتفتقر إلى التوازن وتعاني من هشاشة داخلية. أما وشخصيته مصابة بالصلابة وتعاني من تماسكها الداخلي الزائد، فكيف تخلص من سديم لغو عبثي كان غارقاً فيه حتى أذنيه، ومرشحاً للبقاء فيه إلى ما لانهاية، وحزم أمره دفعة واحدة، وقبل صاغراً بما رفضه لقاء كولبة مهما كانت، من خشب أو إسمنت، من معدن أو حتى من ذهب؟! أليس السبب واهياً جداً؟! طبعاً، أما إذا اطلّعنا على الكولبة وما الذي تعنيه ليس إليه وحده، بل وربما إلى رعيل كامل من المسؤولين، فسوف نقدر مدى بعد نظره ورجاحة عقله. وإذا أردنا أن نعرف، فللكولبة قصة هي الأخرى.

الكولبة

قبل ذلك الوقت بسنوات غير قليلة ومريرة، في فترة احتدمت فيها المعارك بين الدولة والمتطرفين الإسلاميين، وكانت الأسوأ، استشرى الإرهاب والعنف بين الطرفين، وعاش البلد حالة عصابية وعصبية. لم يعد أحد يدري من أين تأتيه طعنة خنجر أو رشقة رصاص أو قنبلة. تكاثرت الاغتيالات، وتتالت المداهمات، وتفاقم القتل والقتل المضاد. باصات السفر تتفجر بالركاب المدنيين الذاهبين إلى قراهم قبل حلول الأعياد، ركاب يجري إنزالهم من السيارات ويفرزون على الهوية الطائفية واللهجة والسحنة، ويطلق عليهم الرصاص. رجال يضبطون في حي محاصر يوضعون أمام الحائط ويعدمون على مرأى من زوجاتهم وأبنائهم، دونما محاكمة أو سؤال وجواب، لمجرد أنهم رجال وشبان. سيارة تنفجر فيتناثر المارة في الشوارع أشلاء في الفضاء وتلتصق أجزاء من أجسادهم على الجدران والنوافذ. جنود تُفتح لهم مهاجع السجن، فيفتحون النار على مساجين عزّل أفاقوا

من نومهم، ليُقتلوا وهم يصرخون: الله أكبر.

بادرت الدولة، ومنذ الأيام الأولى للفتنة إلى تنبيه الشعب بأنه المستهدف الأول بالاغتيالات الفردية والقتل الجماعي والتفجيرات، وتعهدت بحمايته فرداً فرداً، كافة دون تمييز. بعد فترة، استثنت الأجهزة الأمنية غالبيتهم الساحقة، بعد أن قبضت على عناصر من المتطرفين الإسلاميين، اعترفوا بوجود قائمة محددة تحتوي على أسماء المطلوب تصفيتهم جسدياً من المسؤولين وضباط الأمن والجيش.

إذاً، ما الداعي لحماية الشعب كله، بينما المطلوب حفنة مختارة منهم؟!

تحفظت الدولة على القائمة وأبقتها سرية، فزعم البعض، ومنهم تابعون متمسحون ومستفيدون كبار، أن لهم اسماً فيها؛ كان في تجاوز القائمة لأشخاصهم هدراً لمكانتهم وتشكيكاً بوطنيتهم، مع أنهم ليسوا مسؤولين ولا ضباطاً. وجرى تناقل قوائم عدة ضمت أعداداً كبيرة مرشحة للقتل، وهي قوائم غير صحيحة روجها أصحابها، كان الدافع إليها إبراز أهميتهم والتنافس على إظهار ولائهم للدولة.

لئلا ينتشر الذعر بين المواطنين، احتاطت الحكومة من هذا التهويل والخلط، والتزوير والغش، وحددت أسماء المطلوبين للقتل، والجهات المطلوبة للتفجير من المباني الأمنية والحكومية، وأسبغت عليهم حمايتها بأساليب مختلفة، سواء بإقامة الحواجز الإسمنتية أمام الوزارات والدوائر الرسمية، أو مرابطة الجنود المسلحين ليلاً ونهاراً في

الأحياء السكنية على مقربة من منازل المستهدفين. لكنها أغفلت عناصر الحماية بلا حماية، أي دونما سقف يقيهم تبدلات الطقس. ففي الصيف يتعرضون لحرارة الشمس، وفي الشتاء للبرد والأمطار، وأحياناً الثلوج.

اضطر المسؤولون إلى إيجاد مأوى لرجال الحراسة، ما دعاهم إلى إسكانهم إلى جوار منازلهم، فأصبح لهم جحر صغير إلى جوار الفيلا، أو البناية، دعي بالـ«كولبة». وهي بشكل مبسط كوخ صغير أشبه بقن للدجاج، لكن أكبر، يستعمل قناً للبشر، وعلى عدة مقاسات، لا تحقق شروط العيش الحيواني فما حال الإنساني!! هذه «الكولبة» لا علاقة لها بالكولبة القديمة المنقرضة التي كانت توضع عند مداخل بيوت الوزراء أيام حكومات ما بعد الاستقلال والحكومات الرجعية، وتسمى «محرس» كانت حسب استخدامها تتسع لشرطي واحد يحرس بيت الوزير، يشرب الشاي الثقيل الأسود المحلى بكمية هائلة من السكر، يجلس على كرسي خيزران برفقة راديو ترانزستور مفتوح على العالي، يستمع لما يطلبه المستمعون، خصوصاً الأغاني البدوية التي تغنيها المطربة المحبوبة، السمراء الجميلة سميرة توفيق. ذاك المحرس والشرطي مضى زمانهما مع ذلك الزمان.

أما الذي جاء زمانه، فالكولبة بأنواعها، وباتت تتألف عادة من غرفة واحدة، تُجلب جاهزة واسمها في هذه الحالة «برّاكية» مصنوعة من التوتياء والمازونيت بقياسات مختلفة، غالباً أربعة بأربعة أمتار، أو من الخشب مترين بمترين، أو تبنى من البلوك والحجر، وليس من الضروري التقيد بالمقاسات السابقة. تتسع النظامية منها لسرير ميداني وكرسيين، وتسند الأسلحة إلى الجدران، خالية من متطلبات

الرفاهية، عدا تلفزيون صغير أسود وأبيض قديم، إعارة من بيت المسؤول، يتابعون وهم يشربون المته على شاشته المتموجة والواشّة الخطابات الجماهيرية وحفلات التلفزيون الغنائية والمسابقات ودوران دواليب الحظ وما يطلبه الجمهور.

المستغرب، أن الكولبة بحالتها البدائية هذه، شكلت جاذبية وطنية للأشخاص السابق ذكرهم، ما جعلهم يتهافتون في الحصول عليها زاعمين بشهامة بطولية أنهم على قوائم الموت!! كان سحر الكولبة، مع ما فيها من سيئات جمة، أقوى من حب الحياة، أولها تنازل أصحابها عن جزء من خصوصياتهم، لوجود العسكر إلى جوارهم، إلى حد الالتصاق بهم، فيعرفون الداخل والخارج، ويطلّعون على أسرارهم الشخصية؛ وقد تشكل خطراً على حياتهم، بعد أن أصبحوا شكلياً في عداد المطلوبين لعصابات الإرهاب، مما يُفتّح العين عليهم، فيعرضهم للأقاويل، ومن ثم للقتل!

وعلى الرغم من الإجراءات الأمنية والحراسات المشددة، أو بسبب منها، اغتيل أناس قليلون جداً ممن احتوتهم القائمة الأصلية، واغتيل أناس غير قليلين ممن لم تشملهم، كانوا من تعداد قوائم وهمية روجها أشخاص كان قلبهم دليلهم؛ وكان الأسف عليهم كبيراً، لأنهم طمعوا بالكولبة وما توفره من حماية، فلم يفوزوا لا بالكولبة ولا بالحماية. كذلك قتل أناس أكثر وأكثر بفعل الخطأ وسوء الحظ لوجودهم في المكان والزمان غير المناسبين، وتشابك الأسماء وتشابهها؛ أو قصداً، كانوا مطلوبين من جهات أخرى، فجرى التخلص منهم باستغلال عجقة الاغتيالات، فذهبوا في الزحمة. وكانت العجقة أحياناً فرصة سانحة لإيجاد حلول جذرية لصراعات خفية بين مراكز القوى، وإنهاء تنافسات، واستئصال عائلات

وتصفية خصومات وخصوم وديون ودائنين، وإزاحة أزواج وعشاق وتحرير زوجات وانتزاع عشيقات، ألصقت كلها بالإرهابيين المتأسلمين، هدر فيها دم الضحية وضاع الغريم دون جزاء ولا عقاب.

بعد انتهاء حالة التقاتل مع مثيريها من العصابات المتعصبة، أبقيت الحراسات احتياطاً من المؤامرات الخارجية، وفلول المتأسلمين الشاردين في الفلوات والبراري. مع مرور الوقت، أثارت فوضى الكولبات وانتشارها الاستنكار لدى بعض المدققين من ذوى النظر الثاقب، لم تعد الحواجز والاستحكامات الإسمنتية والكولبات والعناصر المسلحة المنتشرة في الشوارع وبين الأبنية، وسيلة تمييز بين المسؤولين المهمين والمسؤولين العاديين الذين لا أهمية لهم، حتى أن بعض المهمين كانوا بلا كولبة، وبعض غير المهمين كانوا بكولبة!! مما خلق عدم توازن واشتباهاً بينهما، استدعى جدلاً فحواه، لا لزوم للكولبات لانتفاء الغرض منها، وطالبوا بإلغائها كافة، فهبّ أصحابها معارضين.

بعد أخذ وردّ، استحسنت السلطة منعاً للخلط، وسعياً لإحقاق التوازن العادل، تعديل أوزان الحمايات، أي تزويدها لطرف وتنقيصها لطرف بغية المساواة بينهم. وعلى الرغم من الفائدة التي عمت الجميع، أخلفت مغبونين من كبار المسؤولين لم يقبلوا بتحجيم مظهرهم أمام سكان منطقتهم وزوارهم القادمين من البلاد الأجنبية البعيدة والعربية الشقيقة، والمحافظات والقرى القريبة. فبادروا إلى تكبير كولباتهم وزيادة أعداد عناصر حراستهم، تمييزاً لهم عن صغار المسؤولين وكولباتهم الصغيرة، وكانت شكلية، قميئة على قدهم، وفي الحقيقة غير جديرين بها، ولا حتى بكويلبة. بالمقابل،

رداً على التمييز الفاضح، الناسف لسواسية الحماية، سارع صغار المسؤولين إلى تكبير كولباتهم بزيادة مساحتها، مما أسهم بتكبير أحجامهم وتضخيم شخصياتهم، فضاع الصغار مع الكبار ثانية، إلّا لدى العليمين ببواطن الأمور.

ومثلما استدعى سابقاً، إقامة الكولبات من البعض الاعتداء على حدائق جيرانهم والاستيلاء على قبو البناية لاستخدامه منامة للعناصر، استدعى فيما بعد، التنافس على توسيعها، احتلال الرصيف، أو الكراج الملاصق، لتصبح أكبر، وبالتالي أوسع وأريح، تحتوي على سرير أو عدة أسرة وكراسٍ وطاولة تتسع لأربعة أشخاص مع مشجعيهم للعب الكونكان والطرنيب والتريكس تزجية لأوقات الفراغ، بالإضافة إلى مطبخ ومرحاض أو مشخة صغيرة، وغرفة أو غرف للاستراحة. ومهما اختلفت أنواع الكولبات، مساحة وحجماً، طولاً وعرضاً، فعناصر المرافقة مجبرون على أن يأكلوا ويشربواويناموا ويتخانقوا ويتبولوا في داخلها، وفي الظروف المدلهمة والمناوبات الخطرة يتغوطون فيها أيضاً.

عُدَّت هذه المظاهر من علامات الوجاهة المرموقة والأهمية مرهوبة الجانب. وأصبحت مسؤوليات المسؤول تقاس بعدد عناصره ودرجة تسليحهم وكثافة سياراته وحداثة موديلاتها، ولم يعد يطلق عليهم: عناصر مفرزة الحماية، لئلا ينعدم مبرر وجودهم، إذ الحماية مم؟! خاصة بعد انتهاء الفتنة وتوقف إطلاق النار والاغتيالات، وكيلا توحي بأن المسؤولين موسوسون أو جبناء، لتوافر الحماية وعدم توفر الأعداء، فتسيء إلى سمعتهم وشجاعتهم، أطلقوا عليهم: عناصر مفرزة المرافقة، ومهمتهم أن يكونوا على مقربة من رؤسائهم، أي معلميهم، مفردها «معلم» اصطلح عليها عند الإشارة إليهم؛ فيرافقون

معلميهم وأهالي بيتهم وبطانتهم وأقرباءهم والمقربين إليهم، سواء راحوا أو رجعوا، وأينما حلوا أو باتوا، لا يفارقونهم في النهار ولا في الليل. فكانوا بحالة دوام مستمر، يتناوبون عليه، ففي الصباح، عندما يسمعون: المعلم نزل؛ يتنادون على الأثر: المعلم نزل؛ ويَتْشَكّون صفاً واحداً كأسياخ اللحمة بحالة الاستعداد أمام المدخل. وعندما يسمعون: المعلم طلع؛ يطلعون كالصاروخ وراءه بالسيارات. وهكذا دواليك صباحاً وظهراً ومساء، سواء عند جهجهة الضوء أو لحظات الغروب أو في منتصف الليل. وكانوا بالنسبة لضيوف المعلم، بمثابة التشريفاتية، يرحبون بالقادم ويرافقونه كظله إلى الداخل، ويودعون الذاهب ويوصلونه إلى سيارته، ويسهلون له عبور الطريق، ولو كان الأمر عائداً لهم لرفعوا الأعلام وأطلقوا المدافع في الهواء وعلى المليان.

أصبحت مكانة المسؤول والضابط تقاس كذلك، بمتانة بناء الكولبة وجمالياتها، وحسن تنظيم وإدارة عملية الدخول والخروج من وإلى البيت بمظاهرها الاستعراضية العابسة، بالإضافة إلى الأرصفة التي يحجزها، والشوارع التي يقطعها، والبيوت التي يمنع أصحابها من نشر الغسيل على شرفاتها، والأبنية التي لا يتجرأ سكانها على استعمال أسطحتها، مع الأخذ بعين الاعتبار والتقدير كوكبة السيارات التي تلاحقه أو تسبقه فاتحة له الطريق، متجاوزة إشارات المرور بسرعتها الزاعقة، لا يوفرون شتيمة للشرطة والمارة وأصحاب السيارات العابرة، إلّا ويرشقونهم بها، إن لم يهشموا وجه سائق تاكسي أجرة ويطعجوا رفراف سيارته ويكسروا ضوءها الأمامي. أو يصفعوا شاباً طائشاً لم يسارع إلى إخلاء الطريق لهم، أو تمعيس سائق باص غشيم طحش عليهم. وفي أوقات الاستراحة والترويح عن النفس، يهددون الجيران ويتحرشون بالصبايا ويضربون الشبان،

ويمنعون المارة من المشي على الأرصفة الملاصقة والقريبة.

وبما أنهم بعد اختفاء المتطرفين وزوال التهديدات، قعدوا عاطلين عن العمل، والفراغ مفسدة خاصة لأولئك الذين يحملون السلاح، لم يتركهم معلموهم بلا شغلة عالة عليهم، كلفوهم بمهمات أخرى منزلية، بعد أن أمسوا بفعل المجاورة المستمرة من أهل البيت، مع الاحتفاظ بالفوارق الطبقية والتغاضي قليلاً عن الانضباط العسكري، ما دل على مدى الألفة الحاصلة بينهم وبين أهل البيت.

أصبح عملهم الرئيسي شراء حاجيات الأسرة من الخضار واللحم إلى العطورات والملابس الداخلية، والمشاركة في تربية الأطفال وملاعبة الأولاد، وأحياناً وقع عليهم وبالكامل عبء الحضانة من تحفيض ومناغاة وترضيع. وتعليم الأولاد حقائق الحياة الكبرى بالكشف عن المكان الأزلي الذي يأتي منه الأطفال. وتدريب المراهقين على سواقة السيارات والتشفيط والحيونة. وكان من مهماتهم الإنسانية، اصطحاب العجائز والعجز إلى الأطباء ومخابر التحليل والمستشفيات. بينما اشتملت مهماتهم اليومية على مرافقة السيدات إلى الكوافير والحفلات والأسواق والأعراس، والبنات إلى المدارس والنوادي والكافيتريات، والكلاب إلى الحدائق، والمرافقة هنا، المرافقة فحسب إلى المكان دون الدخول إليه، ما عدا الحدائق مع الكلاب. امتيازات تمتعت بها كلها الزوجات والبنات والصبيان دون نقصان، مع زيادة طفيفة، أبرزها لطع عناصر المرافقة المسلحة أطول مدة ممكنة خارجاً في العراء تحت الشمس أو المطر، وأحياناً نادرة كما ألمحنا، تحت الثلج لندرة الثلج، ليتيحوا الفرصة لأكبر عدد ممكن من النساء والفتيات المتواجدين في الداخل، ولنفترض داخل محل للباديكور والمانيكور، لأن يحسدوا أصحاب السيارة السوداء،

أو البيضاء، أو الزرقاء، فيتساءلون عندما يرون عناصر المرافقة شاكّي السلاح: ترى من ينتظرون، السيدة التي تلفلف شعرها، أم الآنسة التي تمنكر أصابعها، أو تحلق شعر إبطها، أو تقص أظافر قدميها أو تكحل عينيها... كم هناك من أعمال يقوم بها الجنس اللطيف والناعم، كي يبدو لطيفاً وناعماً؟

* * *

إذا كان هذا ما تعنيه الكولبة بالنسبة للسادة المسؤولين والسيدات قريناتهم، فالبروشي عندما سمع هدير الرافعة وهي تجر كولبته مبتعدة بها، قدَّر على الفور الكارثة الماحقة التي طالته، وأحس بمدى تأثير فقدانها عليه، فلم يهتم، لكن ما ذنب عائلته؟! هذا ما قاله عندما اجتمع مع المسؤولين، وخاض جدالاً صلباً، اشترط فيه عودة الكولبة دونما تأخير، ولم يتراجع عن طلبه قيد أنملة، بل وذكرهم صراحة بالخدمات التي قدمها لهم، دون التطرق ثانية إلى الله والقيامة والتعلل بيوم الحساب والسيئات والحسنات وأوزار الأموات والمحابيس، أمور الآخرة لا تمر على أولئك الذين لا يعترفون إلّا بالحياة الدنيا، ولو كانت فانية، فقط الواقع الحالي، وهو الواقع الوحيد، وبحسبانهم يغطي المستقبل وما بعد الموت. إذاً، على أرض الواقع الحالي، واجههم بأسئلته، هل تريدون رميِي أعزل في الشارع، بالمختصر المفيد، من يجهل أن الكثيرين يريدون قتلي؛ وأنتم أول من يعلم؟

احتجوا بأن الأوضاع باتت مأمونة، والكولبات تشكل إحراجاً للدولة، مظاهرها المؤذية تشوه المنظر الجميل للعاصمة وتسيء إليه، بينما نقول بسورية حديثة، وسورية البلد الحضاري، ما الحضاري في منظر كولبات تعيدنا إلى عصور التطرف والهمجية؟! دابر التطرف لم يقطع، بل انسحق، ألم تسهم أنت بالذات في القضاء على

رؤوس الفتنة وأعوانهم ومن يلوذ بهم، لم تترك واحداً منهم؟ فاستشاط غضباً، أليس لهؤلاء الذين انسحقوا أقرباء، أخوة، أولاد عم، أبناء، أحفاد؟! هل تتصورونهم بلا أحقاد ولا ثارات؟! إذا كان ثمة من قائمة للتصفية الجسدية، قد تظهر يوماً ما، سأكون الرقم واحد، أول رصاصة ستطلق على رأسي. فأخرسهم، وصدرت الأوامر بإعادة الكولبة مع لوازمها من عتاد ورجال.

* * *

بعد انتصاب الكولبة وعودة مفرزة الحراسة، استعاد البروشي من جديد، مآثره السابقة، لكن هذه المرة طبقاً للقانون الجنائي السوري المعمول به ضمن أراضي الجمهورية، ولئن تشدد في تفسيره وغالى في تطبيقاته، فيقينه، أنه لا يتعامل مع المتدينين القتلة وتابعيهم الجهلة، أو النخبة من اللصوص الكبار الجشعين، والمتعلمين المتعالين من اليساريين الطموحين، وإنما مع مجرمين عتاة وأوباش، ينفع فيهم سيف العدالة البتار، لا الزجر والتأديب والتأنيب؛ فلم يهتم بعدم كفاية الأدلة، وافتقاد البواعث والنوايا، والوقائع غير المثبتة، والنقص في الإجراءات الشكلية، فلم يفلت من حبل المشنقة مجرمون عرضيون، أو بالمصادفة، أو مشكوك في ارتكابهم جرائم من الدرجة الأولى. كانت أدنى شبهة كافية لإيقاع أقصى العقوبات، دفاعاً عن الشرف وقمعاً للموبقات ومفاسد التحلل الأخلاقي. لم تأخذه في الحق لومة لائم، مثبتاً أن الحق يعلو ولا يعلى عليه. فأعاد الاعتبار إلى لقبه، قاضي القضايا المميتة، بعد أن كان مهدداً بالضياع لا بالنسيان.

قضاة ومحامون

لم ينتظر قاضي التحقيق سؤالاً من المتهم، عاجله بخلاصة محكمة:

إذاً، أنا لا أبالغ عندما أقول إن القاضي الموكل بقضيتك لا يعنى بالظروف المخففة أو بمرونة القانون؛ علاوة عليهما، يثق بفراسته المهيأة للفرضيات الأسوأ، أكثر مما يثق بالاختبارات والتحاليل الطبية وشهادات الشهود. بل ويعتقد جازماً أن التعنت في تفسير القانون، نضال في سبيل العدالة، يضمن حقوق الضحية ولا يهدر دقائق القانون.

ولمعلوماتك، القاضي البروشي متعطش للرقاب، يورد المتهمين المهالك، أو شيئاً أقرب إلى المهالك. يتمتع بحساسية شديدة من الجرائم الواقعة على النظام العام وما يمس الأخلاق بشكل خاص، وعلى رأسها الاعتداء على العرض، جريمة يقشعر من هولها بدنه،

كما يقول دائماً. لا أغشك عندما أقول، لن تحتمل أنت وقضيتك في المحكمة أكثر من جلستين. وبلا ريب، ستفتح الاتهامات الكثيرة ضدك شهيته نحو المزيد من التنكيل بك، ولن يكون توصيفه للجرائم المذكورة بأقل من: اقتحام منزل مواطنة آمنة، اغتصاب فتاة صغيرة بعمر الورود، تهديد نفس بريئة وغضة بالقتل؛ ممارسة نوعين مشهورين من جماع البالغين، الأول لا يجوز وقوعه على قاصر، والثاني، لا يجوز وقوعه حتى على بالغ ولا راشد ولا طاعن في السن، فكيف بقاصر؟! كلاهما جماع شائن ومشين، مخالف للأديان والشرائع السماوية والأعراف والتقاليد المحلية. النتيجة، سينصبّ جهده وعصارة فكره، على تكييف أنجع القوانين لمآربه، والحكم عليك بعقوبة لا تنقص عن إحدى وعشرين سنة في السجن.

بعد الخلاصة والنتيجة، لم يأمل أحمد ربيع من العدالة خيراً. فهم أمراً واحداً، أنه مازال مخيراً بين أمرين، أقصى العقوبات، أو القبول بلعب دور الديوث عن طيب خاطر. أطرق برأسه، أيهما يختار؟

كان الموقف يدعو لليأس الكامل.

****

على الرغم مما أورده قاضي التحقيق من دلائل واقعية، تبين وبجلاء أن قضيته باتت في حكم المنتهية، وعلى أسوأ وجه؛ أحمد لم يقتنع، فضل الكرامة مع السجن، على النذالة مع الحرية. فأعجب المحقق أيما إعجاب بصلابته الأخلاقية، مع أنه لم ير فيها سوى حماقة متصلبة. المتهم الأرعن المتمسك بالكرامة والشرف، لم يترك له سبيلاً سوى إغلاق المحضر، لتبدأ فصول المحاكمة المميتة؛ لن يذهب

المتهم إلى الموت، بل إلى ما هو أشق من الموت.

ما حرك سخرية قاضي التحقيق، ولم يظهرها، أن المتهم طلب منه أن يدله على محام يتولى الدفاع عنه.

«محام!».

نبرة السخرية أنبأت أحمد ألّا جدوى ترجى من محام يصول ويجول في محكمة البروشي. فنبس غاضباً ويائساً:

«اللعنة على القضاء والقضاة»!

اللعنة أصابت المحقق، في النهاية هو قاض وإن كان قاضي تحقيق، والمتهم متهم وإن كان بريئاً. ولام نفسه، لقد تبسط كثيراً معه وبالغ في تسويد صفحة العدالة، ليس القضاء بهذه الصورة المتشائمة، والقضاة ليسوا البروشي فحسب، وعليه تحسين سمعتهم قليلاً بعد أن ساءت كثيراً. فقال له:

«البروشي لا يمثلنا. ليس القضاة كلهم من هذا الطراز».

«أعلم، القضاة حماة العدالة».

تبرم قاضي التحقيق، القضاة أيضاً ليسوا بهذه الصورة النموذجية. وغمغم:

«موضوعات مهمة كهذه لا تختصر ببضع كلمات، بل تحتاج إلى شرح».

لا ندري مبعث الضيق الذي شعر به قاضي التحقيق، حتى استنكف عن الشرح قائلاً:

«هذا الموضوع يثير مواجعي».

وكأنه لا يثير مواجع الآخرين. ما الذي يقوله، وهو يعلم حق العلم، وهذا ليس خافياً، بأن القضاة أنواع لا تقع تحت حصر، وإن كانوا ينضوون تحت صنفين، الأولون يحافظون على سمعة مهنتهم الجليلة، وجلّهم من المحافظين الضليعين بالقانون والمتدينين المتنورين، كفهم نظيفة، يمارسون عملهم بنزاهة وكفاية، لكنهم قلة، ولا عجب، فالكرام قليل، هذا ما يقوله دائماً في معرض التحسر على ما آل إليه حال القضاء. ولهذا من الطبيعي أن يعتبر أصحابُ المصالح، هؤلاء القلةَ، أولاد حرام، رأسهم يابس، يرهقون الناس بقوانين وضعت من أجل تسهيل الأمور لا تعقيدها. بينما القضاة الآخرون، وهم الغالبية، يتعاطون القضاء بمرونة وحذاقة تدر عليهم أموالاً وفيرة، ويمتدحهم أصحاب المصالح بأنهم أولاد حلال، أفادوا الناس، بتسيير أمورهم وتيسيرها؛ واستفادوا، بتحصيل ثمنها دونما تعب سوى تشغيل الدماغ، إذ لكل كلمة في القضاء تسعيرة، من الإمهالات وإخلاءات السبيل إلى تخفيف الأحكام والبراءة.

دار هذا بخلده، أو شيء على منواله. تنهد وقال:

«عورات القضاة كثيرة ولا يستهان بها. على كل حال، لا بأس، استعن بمحام، لكن عليك أن تحسن اختياره».

وهذا أيضاً يحتاج إلى شرح وتوعية، لأن عورات المحامين أدهى، لن يصمت عليها، وربما في استعراضها تعويض عن صمته على القضاة،

ولئلا يطيل، اختصرهم بنوعين، محامي مرافعة ومحامي واسطة:

«محامي المرافعة يتعامل مع القانون كنصوص جامدة، يُلينها لتحصيل حقوق موكله، من خلال سجال يدور مع الادعاء: نصوص تقارع نصوصاً، ووقائع تنفي وقائع، وحقوق تصارع حقوقاً. وقد ينجح محامي المرافعة بعدالة قضيته وقوة حجته وبراعة مداخلاته، إلّا إذا صادفه على الطرف الآخر محامي الواسطة؛ عندئذ، تشارف القضية على الخسران المبين. يعتمد محامي الواسطة، وهو النوع الثاني من المحامين، على معارفه في الدولة وأجهزة الأمن والدوائر القضائية، وبالدرجة الأولى على قنواته السرية مع القضاة، همه كسب القضية الموكل بها بأية وسيلة كانت. وبالمقابل يأخذ أجره مضاعفاً عدة مرات».

«إذاً سيفيدني محامي الواسطة أكثر».

«نعم، وكن على حذر منه. يعرف من أين تؤكل الكتف، مهارته ترتكز على قدرته على بلص موكله بأكبر قدر من المال، وهذه وحدها خبرة عريضة لا تشكل إزاءها خبرته في القانون شيئاً. يَعِدُ موكله بكل تبجح بأنه سيحصل له على حكم بالبراءة الكاملة، في حالتك سيتعهد بتسليمك الإضبارة الفضيحة، لتمزقها بيديك، كأن شيئاً لم يكن. ويقنعك بأن براءتك قاب قوسين أو أدنى، فقط مسألة قليل من الوقت، فتطمئن وتستسلم له».

«أعلم، الإجراءات تأخذ وقتاً».

«هذه خطوة، الخطوة التالية، يلمح لك بأن قضيتك تواجهه بالكثير

من العراقيل والعقبات، ويهول من تعقيداتها، أقرب إلى المستحيل، والحكم أقرب إلى المؤبد أو حبل المشنقة!! فتتداعى آمالك وتهبط معنوياتك إلى تحت الصفر، وتتخبط باحثاً عن طوق نجاة، فيطمئِنك».

«كيف بالأقوال أم بالأفعال؟»!

«بداية بالأقوال، يقول لا تشغل بالك لديّ شخص سيدبر قضيتك ويخرجك منها مثل الشعرة من العجين، مقابل مبلغ مرقوم، مدعياً بأنه، لن يلحقه قرش واحد؛ من يدك ليده. إذا قبلت، وحتماً ستقبل، لن تتوقف طلباته للدفعات النقدية، والقابلة للتضخم باستمرار، مع الوعود بالإفراج عنك قريباً. ولن يفيَ بما وعدك به، قبل أن تدفع مئات الألوف، وربما ملايين، من أجل قضية لو توفر لها قضاء نزيه، لظفرت بحكم عادل، مهما كان هذا الحكم، براءة، سجن، غرامة..».

ويبدو أن الحديث نكأ جروح قاضي التحقيق عن زملائه القضاة، فتابع:

«سمعنا عن قضية، دفع صاحبها كذا مليون للقاضي ليخرجه من السجن، وأنكرها القاضي صادقاً أو كاذباً. كيف نتأكد، ومصدر الإخباريات الذين دفعوا لا الذين قبضوا؟»!

«لا بد من إجراء تحقيق».

«هذا ليس وقت التنكيت. بعض الإشاعات وصل إلى أسماع القضاة المعنيين، فأدركوا أنهم تعرضوا لتدليس من محامي الواسطة،

ما قيل عما دُفع لهم يفوق كثيراً ما قبضوه. فانزعجوا، ما العدالة في أن يأخذ محامو الواسطة الحصة الأعظم، أليس غبناً؟!».

«منتهى الغبن أن يأخذ القاضي الحصة الأصغر مع سوء السمعة».

«فبادر بعضهم إلى فتح أبوابهم أمام أصحاب الحاجات ومساومتهم على قضاياهم عن طريق أقاربهم مباشرة، أي من يدهم ليد القاضي دون أن تمر على محام أو وسيط، بلا تدليس ولا تمليس، القضية سعرها معروف، وما سيدفع لقاءها معروف، لا مبرر لذهاب القسم الأكبر منها عمولات، ما دام الحل والربط بيدهم».

«هذا أحسن، فرق المبلغ يوفره المتهم على نفسه ويرده على زوجته وأولاده».

«ولن يقال بأن القاضي أخذ كذا، بينما لم يصله إلّا كذا».

«إذاً أنت لا تنصحني بمحام».

«نعم بالضبط، وإذا كنت لا أنصحك، فليس لأن تسعيرة البروشي معروفة، وإنما لأن الوصول إليه دونه خرق القتاد».

(خرق القتاد، المقصود منها، الصعوبة البالغة في اختراق عدة طبقات من الحواجز الكتيمة المحيطة بالبروشي).

«شخص يقودك إلى آخر، وآخر إلى آخر، وهي سلسلة طويلة من المحتالين غير مضمونة، وقد تتعرض للخديعة من أحدهم، يضع المبلغ في جيبه ويقول لك بأنه أصبح في جيب البروشي. وإذا افترضنا

أنك عثرت على الشخص المناسب الذي سيفاتحه بأمرك، واطمأننت إلى أن البروشي سينظر إلى قضيتك بعين الرأفة، بيد أن المبلغ المطلوب، كبير جداً، لا طاقة لك عليه، لا أقلّ من البيت الذي تعيش من أجرته. الأفضل تقصير الطريق ونقل قضيتك من محكمة البروشي إلى محكمة غيرها، وهذا لا يتم إلّا بالواسطة وبمنتهى السرعة. واسطة تدفش إضبارتك من عند قاضي الإحالة إلى أي قاض عدا البروشي. عندئذ تستطيع القول بأن الحظ قد حالفك. وتبدأ مهمة الدفاع، عندئذ يستطيع المحامي القيام بعمله على ما يرام سواء كان محامي واسطة أو مرافعة».

قال المتهم ببساطة وربما دون تفكير:

«أنا لا أعرف أحداً».

«لا تقل لي بأنك مقطوع من شجرة».

فسكت المتهم. بعد صمت طويل قال:

«أنا مقطوع من شجرة».

في هذا الصمت الذي لم ينبس فيه بحرف، ضجَّ باحثاً عن واسطة، فلم يعثر على جهة تشد من أزره، أو شخص يستعين به. في العمل صُنف على أنه من الناس غير الموثوقين لاختلاقه المعاذير تجنباً لامتداح الثورة ومنجزاتها، لو أنه حزبي، لكان اليوم مديراً لأحد مسارح الدولة، أو مسؤولاً ثقافياً، وربما وزيراً.

«ماذا بشأن المحامي؟».

لم يقل أحمد شيئاً، سوى أن إمكاناته لا تسمح له بتوكيل محام إلّا

بالأسعار العادية، بعد إجراء تخفيضات ملموسة، وتقسيط الأجر على دفعات طويلة الأجل.

«للأسف الوساطات كلها متجهة نحو إرسالك إلى البروشي».

فهبطت معنويات المتهم إلى أقصى درجات اليأس، وقد كان هذا متوقعاً.

الأصلع

قبل أن يغلق قاضي التحقيق المحضر، غيّر رأيه، قرر أن يثبت براءة المتهم، هكذا دفعة واحدة!! لِمَ لا؟! القضية ليست معقدة ولا صعبة، فقط بشعة. ما الذي خطر له؟! نزوة، أم تراه أحس بمرارة الظلم الواقع على رجل منكود قليل الحيلة؟!

خلال حياته المهنية صادفه متهمون أبرياء، ولم يتطوع لتخليصهم. اليوم ولأول مرة، يشفق على واحد منهم، ويتخذ على حين غرة قراراً جريئاً بالبحث عن المجرم الحقيقي. والبواعث كثيرة، أحدها أنه يعرف الجزء الأكبر من الحقيقة. من قبل أثار المتهم غيظه من فرط قنزعته، والآن من فرط يأسه، فيما حرك نحوله المتزايد مشاعر الرحمة في داخله، حتى بدت عيناه كأنما أصابهما الحوَل في وجه كالح لا يزيد عن عضمتين وبخش؛ أي عظمتي الوجنتين وفتحة الفم!! على أن الباعث الأخير، كان أقواها، وهو أن كبرياء المتهم

السخيفة جديرة بالمكافأة، كانت وبلا ريب، محط تقديره الشديد، وإلّا لم يفكر بتجاوز الحدود المرعية للإعجاب المعتاد بالتقدير بالقول، إلى العمل على إنقاذه بالفعل، بالرغم من تمسك المتهم بعناده ولامبالاته بمصيره الأسود، مع افتقاره الكلي للمعين والنصير؛ وعدم تبصره في ما سوف تجره عليه محكوميته بعد خروجه من السجن. الدولة لن تمنحه قيداً لا حكم عليه، ويُمنع من السفر خارج البلاد. ماذا إذا جار عليه الزمان وفقد مورد رزقه وأراد أن يشتغل؟! لن توظفه الحكومة لديها حتى زبالاً ليلياً. وإذا حظي بعمل، فغير دائم، تعزيل ششامي وصوبيات، عتال أكياس شمنتو، بائع شاي على عربة؛ أو يحالفه الحظ بعمل أسبوعي في مكان ما، وإذا علم رب العمل بصحيفة سوابقه، فسوف يرميه إلى الشارع. الأمر الذي لا يدركه المتهم أنه في طريقه إلى أن يصبح رجلاً ذا ماض، أسوة بأية امرأة ذات ماض.

فكر المحقق، يجب أن أساعده.

ولا بد أنه تذكر الاحتمالات المرجحة لإدانته، احتمالات لا يختلف بعضها عن بعضها إلّا بتدنيها في السوء، مادامت جهود خصومه المتسارعة لن تبخل عليه بإيصاله إلى خاتمة محتومة، إن لم تكن عاجلة جداً، لا محالة أكيدة وقادمة. تخايلت في رأس المحقق بتسلسل كان في منتهى الواقعية. عموماً، كانت كلها تؤكد جهل المتهم. أما بالنسبة إلى المحقق، فقد شكلت بمجموعها وضغوطها انجذاباً عميقاً للوقوف إلى جانب المظلوم التعس، والتصميم على انتشاله من مأساته المستعصية.

مع هذا، لم يطمئن لقراره، المحقق رجل ملول، يتحمس اليوم

ويتراجع غداً، والعدالة إجراءات متباعدة تحتاج إلى مثابرة هي من اختصاصات المحاكم البطيئة ومطل القضاة. وهو رجل بسيط كما رأينا في شروحه وتقسيماته المبسطة لأنواع القضاة والمحامين المعقدة. كما أن تشابكات القضاء تربكه، رغم قربه منه، لكن القرب مثل البعد، لا يشق للعدالة طريقاً ولا يردم ثغرة، بل وكثيراً ما راوغته، ونفض يديه من قضايا تبناها. لكنه ليس من النوع الطيب القلب، هذه المهنة تقسي القلوب، بالإضافة إلى تبليد الأحاسيس. إذاً، لماذا تنطع القاضي المحقق لفكفكة ما تبقى من طلاسمها التافهة؟!

هذه القضية خلافاً لغيرها، شكلت تحدياً لقدراته البوليسية التي اكتشفها لديه، عندما كان يافعاً قصيراً غض العود في مرحلة الدراسة الإعدادية، ترهقه النصوص المدرسية بجفافها وغلاظتها، فوقعت بين يديه وبمحض المصادفة قصة بوليسية بطلها اللص الظريف أرسين لوبين، فعلق بتلك السلسلة من مغامراته الذكية والطريفة، ومنها انتقل إلى قصص المحققين اللامعين المشهورين، فأُخذ بحيوية أساليب التحري في الاستنباط والاستنتاج. منذئذ، يقرأ قصص الجريمة سراً، يمضي في عوالم البصمات والسموم والمسدسات، وتشدهه مهارة شرطة سكوتلند يارد في كشف اللثام عن الجرائم الغامضة، وألمعية المحققين الجنائيين الخصوصيين في تقصي أثر مرتكب الجريمة الكاملة من خلال سلسلة منطقية لا تخطر على بال.

مثاله الأعلى، محققون ينتصفون لأبرياء فقراء، ويوقعون بالمجرمين ولو كانوا أغنياء. أصبحت الروايات البوليسية غذاء عقله وتسليته المفيدة، مغامرات تقع أحداثها في الريف الإنكليزي الهادئ أو منتجع على الشاطئ، تحفل بالشكوك المثيرة والعواطف النبيلة والأحقاد القديمة وصراع على إرث ضخم، في أجواء تعبق بسكون

ينذر بطعنة خنجر من الخلف تحت جنح الظلام، أو من يدس السم في كأس شراب. مسارحها الحدائق الخلفية ومشاتل الورود النادرة والشرفات الواسعة وردهات القصور الفخمة. تتسارع فصولها بعد العشاء بين صالة التدخين وقبو النبيذ المعتق والمكتبة وغرف النوم، وفي الليل تدور فوق سطوح القرميد والأرض الوعرة، بين الأشجار الجرداء والخمائل العارية وركن قصي مهمل في حديقة يوشيها الضباب ونباح الكلاب وصرير الجنادب، وتختتم إلى جوار المدفأة، ومحقق يمسك الغليون بيده، وبالأخرى يشير إلى المجرم الحقيقي.

شغفه بهذه الروايات كان أحد العوامل التي ورطته بالالتحاق بمهنة التحقيق. بعد إغراء مديد استمر طوال سنوات مراهقة، عكرتها الوحدة والزيوان وحب الشباب، وامتد إلى مرحلة المشاكسة والشباب، لتصيبه بالإحباط في سنوات النضج الوظيفي، شتان بين تلك القصص المشوقة بالشبهات المحيرة والمآرب الجشعة والانتحارات المريبة، وجرائمنا الغبية المتواترة على نمط سقيم متكرر، يرتكبها أناس يَقتلون لأول مرة بالخطأ، مصادفة أو عن غضب، أو طمع، دون دراية، وأمام شهود، بلا مخطط دقيق، غير محكم ولا طويل النفس! المقارنة بين مجرمينا ومجرميهم مخجلة، مجرمونا يجلبون العار لمفهوم الجريمة الذكية، فارق هائل بين سوية مجرمين غربيين مثال الكياسة، وسيمين وأشراراً، مخادعين ومكارين، عبقريتهم جهنمية وباردي الأعصاب، لا تسترعي تصرفاتهم الشك؛ وبين مجرمينا المنهكين، مثال السماجة، شعر ذقونهم طالع، وشعر رؤوسهم مخبوص، عظام صدورهم بارزة، وعيونهم مبقبقة، ومخلعي الأوصال، وذكاء أقل من المتوسط، وأحياناً منعدم!!

طوال مدة خدمته، لم يشهد جريمة ارتكبت طبقاً للمقاييس العالمية،

أو وفقاً للحد الأدنى من أصول الجريمة المثالية؛ آفاق مجرمينا المحليين محدودة، ودوافعهم مكشوفة، قضاياهم بلا أسرار، لا تشويق ولا إثارة. شرطة المخافر تسبق المحققين إلى حلحلة خيوطها، إن كان لها خيوط، وتفضح غوامضها، إن كان لها غوامض؛ دون استخدام لأصول البحث الجنائي، تعتمد منطقاً بدائياً، كان ناجعاً على الدوام: استدراج المجرم قسراً إلى البوح باعترافات كاملة، أزود من اللزوم، بل وأكثر مما يعرف، تثبتها أقواله الممهورة بتوقيعه أو ببصمته.

إذا لم يكن المجرمون بارعين ودهاة، فما الفائدة من عبقرية شرلوك هولمز وخفة أرسين لوبين، وذكاء هيركول بوارو، وحدة ملاحظة مس ماربل؟! الفائدة، أن رجال الشرطة يشبعون هوايتهم إلى الرياضة العنيفة بتنمية عضلاتهم على حساب الموقوفين، تبدأ بكيل الصفعات المدوية وتسديد اللكمات القوية، إلى... يعلم الله ما يجري في أقبية المخافر.

هكذا جاءه المتهم، قد أشبع ضرباً ورفساً وصفعاً مع قضية كالمعتاد، محلولة تماماً، لكنها لم تكن محلولة، غوامضها على حالها، لا تخلو من آثار تحمل نكهة روايات الجريمة النموذجية المثيرة، في تلك الصرخات المكتومة لفتاة طفلة، وأقدام تتسلل بخفة، رجل تبرق صلعته في العتمة، شهقات تخترق السكون، وفحيح الجنس يعربد في الظلام الدامس. جذبته حالة المتهم المعنوية المنهارة، لكن الأبية؛ ووساطات مضادة لحوح تلاحقه وتريد القضاء عليه دون رحمة، يُشتمّ منها الرائحة المقيتة للأغنياء.

حرضت القضية فراسته البوليسية، استيقظت بعد طول هجوع، ومن أبسط أبوابها، إذا كان الرجل الأصلع الضخم الجثة يرتاد منزل

الممثلة ليقضي وطره ليلاً ويرحل صباحاً، قد أوقف نشاطه خلال يومين قضاهما بلا وطر، فلا بد أن وطره اليوم قد استعاد حيويته، وأخذ هيجانه يؤرقه، ويحرضه على طلب الجماع. وحسب المعروف في علم النفس، أو من راسكولنيكوف بطل رواية دستوفسكي «الجريمة والعقاب»؛ إذا لم يسافر المجرم إلى مكان بعيد، فسوف يعود إلى المكان الذي ارتكب فيه جريمته. فاليوم أو غداً ملائمان لكي يحوم الفاعل في موقع الجريمة. لا مفر من عودته، سيعود خاصة بعد أن اطمأن إلى أنهم قبضوا على رجل غيره، واعترف عوضاً عنه بما ارتكبه هو!!

بلغ الحدس بالمحقق أن قال بثقة للمتهم، لا تهتم، سأطلق سراحك قريباً. هتف المتهم، هل أنت واثق؟ فرد عليه، لو لم أكن واثقاً لما وعدتك. ثم أرسله إلى غرفة الحجز، وحدد له زمن بقائه فيه، اليوم وربما غداً على أبعد تقدير.

ما الذي حدث في اليوم التالي، هل وفى المحقق بوعده؟!

قبل الظهر بساعة، أطلق المحقق سراح أحمد ربيع، بعد إيداع الفاعل الأصلي في السجن وتوقيعه على اعترافاته كاملة!! بالمختصر، حلّ المجرم الحقيقي محل المتهم البريء في غرفة الحجز ومحضر التحقيق معاً!! ما الذي حصل يا ترى؟!

****

كما توقع قاضي التحقيق تماماً، بعد منتصف الليل، حام الفاعل الأصلي في الحارة على مقربة من موقع الجريمة، يحمل كيساً أسود كبيراً. اقترب من البناء، صعد الدرج، فصعد خلفه ثلاثة من أفراد

الشرطة، تتبّعوه على الدعسة درجة درجة. نقر على الباب بإصبعه، فانفتح، دس قدمه اليمنى في فتحة الباب، ثم وهو يرفع قدمه اليسرى عن العتبة لتلحق بأختها إلى الداخل، امتدت أيدي رجال الشرطة، شدوه إلى الخلف وعادوا به إلى الشارع، ورموه في سيارة زعقت وانطلقت به إلى المخفر. كان بانتظاره قائد المخفر وإلى جواره قاضي التحقيق يتابعان العملية عن كثب بواسطة جهاز اللاسلكي. هكذا تمت عملية القبض على المشتبه به، دون عناء، من خلف ظهر القضاء بالاتفاق بين الصديقين قاضي التحقيق وقائد المخفر.

بمجرد دخوله، أحس المحقق بالغيظ، لم تكن تقديراته في محلها، المشبوه يفتقد العلامة الفارقة المفترض أنها الدليل الحاسم على أنه الفاعل، لم يكن أصلع الرأس، وإن كانت أوصافه الأخرى مطابقة: ضخم الجثة، طويل القامة، وكرشه بارز. يحمل كيساً منتفخاً برزت من فتحته العلوية زجاجة كولا ليترين بالحجم المطلوب تماماً، بل ونكاية به، يتميز بكثافة شعر رأسه، ذي اللون الخرنوبي، ممشطاً ومزيتاً. اقترب منه وبحركة يائسة، شد شعره، فانتزع الباروكة الخرنوبية عن رأسه، وظهر الرجل على حقيقته، دونما شعرة في رأسه!!

قرر المحقق ورئيس المخفر قضاء ليلتهما مع المجرم الأصلع يلهوان به، ويتباريان في استنطاقه، باستعمال فطنتهما فقط، دون توجيه صفعة أو لبطة، حتى لو اضطرهما. كان عمره يتجاوز الستين بسنوات، ضخامة جثته فاشوشية، عصبه بدا متيناً، ويتحمل قليلاً من الضرب، لكن يكفي تهديده حتى ترتعد فرائصه من الخوف. الدلائل دامغة جداً؛ الصلعة وتخفيه عليها بشعر مستعار، وهي واقعة مادية لا سبيل إلى إنكارها، الكيس الأسود الممتلئ بأكياس صغيرة ملونة

تحتوي على سكاكر وشوكولا ودربي وعلكة... والكولا طبعاً، تواجده في ساعة متأخرة من الليل أمام بيت ارتكبت فيه عملية اغتصاب ليلية، أصابها التكرار وطالها الاعتياد، حتى أمسى مرتكبها ينقر على الباب في ساعة معينة بناء على موعد سابق، فيستقبله على الرحب والسعة شخص متعاون من الداخل. في هذا كله الكفاية وأكثر، لكن الفاعل قطع عليهما فكرة تجريب ذكائهما، ولم يضطرهما إلى تهديده أو إكراهه على الكلام، وفوَّت عليهما هذا الاحتمال، واعترف ببساطة، دون مبالاة وبلا ضغوط، بأنه اليوم كان على موعد مع صاحبته ليقضيا الليلة معاً. أما المصيبة فكانت عندما أعلن عن اسمه، فكأنه لطمهما على وجهيهما!!

حمد كل منهما الله على أنه لم يرفع يده عليه، أو يوجه إليه كلمة غير لائقة!! في الواقع، حتى لو كان معهما قائد شرطة الجمهورية لحمد الله مثلهما. وجها اللوم لنفسيهما، كيف لم يعرفاه لحظة دخل المخفر، ربما لأنه كان مكلبشاً ومخفوراً بشرطيين، مثل هذا الرجل لا يُكلبش ولا تخفره الشرطة إلّا لتفتح له الباب، ويضربون له التحية، ويقولون له، نعم سيدي، أمرك سيدي.

نبس المحقق بصوت لا يكاد يسمع، يا إلهي، هل يعقل أن يكون هو؟! من فرط السكون الذي خيم، سمعه صديقه قائد المخفر ورد عليه بصوت مخنوق، نعم هو! دون التلفظ باسمه.

صار المشبوه الذي لم يعد مجهولاً، معروفاً جداً، وإذا كانا لم يتعرفا عليه فوراً، فمعهما الحق، من يتوقع أن يراه في مثل هكذا موقف؟! بالرغم مما طرأ عليه من تغير بعد مرضه وتقاعده، كانت تقاطيع وجهه مميزة ولا تُخفى على أحد، من يجهل فالح جادور رجل

المداهمات والمرفأ والمحافظة، وإن أصبحت شهرته كلها في ذمة الماضي، لكن الماضي ما زال حاضراً بقوة وقريباً جداً، حتى أنه لم يمض بعد. كأنه لم يغب عن مناصبه، حكاياته ما زالت تملأ الأسماع بصولاته وجولاته وشراسته. ألم يصطف رجال الدولة في ردهات مستشفى الشامي، واحداً وراء واحد، وقد سبقتهم أكاليل الورد، يطمئنون على صحته طوال فترة غيبوبته، وعندما صحا منها لم تتوقف الهواتف، وكلها تسأل عنه، شو بتأمر يا أبو محروس؟ وشو بدك، فضلك سابق! ما زالت يداه تطولان المناصب والرقاب. من يخطر له إخضاعه إلى تحقيق مهما كان هذا التحقيق نزيهاً؟!

لحسن الحظ، سيلاحظان أن المسؤول السابق فالح جادور لم يكن مكترثاً ولا متزناً، بل أقرب إلى الخرف، صافناً وريالته شاطة. هل يعقل أن يصاب الرجال العظام بالبله، مثلهم مثل العجائز النقاقات؟! يا للعجب، جادور لم ينتبه حتى الآن إلى أنه مقبوض عليه وكل كلمة محسوبة عليه!! يتكلم، ويهرف بما يقال وبما لا يقال، آخذ راحته على الكامل، ويلقي بما يخطر له وكيفما اتفق؛ آناً يتذكر مخافر مشابهة في مناطق نائية، وآناً يحتقر وزيراً لا يفرق بين الرشوة والهدية، وتارة يشتُم رجل دولة يسرق الكحلة من العين، وتارة أخرى يتباهى بقدراته الجنسية، مشيداً بالحبوب الزرقاء والعسل الملكي وشرش الزلوع.

ربما كان مريضاً جنسياً، تغامز القاضي وصديقه الشرطي، لاسيما أن المسؤول السابق استساغ مديح قوة انتصاب عضوه مشبهاً إياه بقضيب من الحديد، يفتح به أعتى الأقفال. وأجابهم عن أسئلة جنسية لم يطرحاها عليه، ولم يتجرأا إلّا على الإيماء بالموافقة، وحكى لهما قصصاً عائلية عن زوجته البقرة الهرشة غير الحلوب،

وشكا لهما عقوق أولاده، منعوه من الزواج بالفتاة التي يحبها، قالوا أنها طفلة، حتى ولو كانت مثلما يقولون، فهم يكذبون، وزنها يعوض صغر سنها، تفهم في الصغيرة والكبيرة.

سألاه شيئاً واحداً، إن كان يرغب في شراب أو طعام، فطلب وتطلب، فسارعوا إلى تلبية طلباته من الشاي والقهوة والمتة والدخان، ومن شدة بخله لم يضيِّفهم حبة علكة واحدة من الكيس المنفوخ العامر بالطيبات، لا تلوموني، وعدت حبيبتي بأكياس الأكلات اللذيذة مختومة. عندما تعب من الكلام، وقف وقال لهما تأخرتُ، واتخذ وجهته نحو باب الخروج. من يستطيع أن يمنعه؟!

سارع المحقق، ورجاه بداعي الأخوة والصداقة ألا يتركهما وحيدين، وبالمقابل سيساعدانه على الزواج من محبوبته الصغيرة، وهذا لا يتم إلّا بتسجيل أقواله في ضبط، لن يأخذ وقتاً طويلاً، على الأكثر، سيبقى معهما حتى يطلع الصباح. فسأل، متى يطلع؟ رد عليه، لن يتأخر. فوافق المسؤول السابق على الانتظار بكل ممنونية، ولئلا يمل، اضطرا لتسليته، فلعبا معه طاولة زهر، يتعب الأول فيتولاه الثاني.

مع اقتراب الصباح أخذ جادور غفوة، فشعرا بالخوف وتحيرا هل يطلقان سراحه، أم...؟! كانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرضان فيها لمحنة إخفاء الحقيقة، حقيقة أنهما يتخفيان على المجرم الحقيقي وهو بحوزتهما، بينما رجل بريء يرسف في السجن. هل هناك مَخرج يرضي العدالة والحقيقة والضمير معاً؟! نعم.

ما جعلهما يتحمسان لإيجاد مخرج، أنهما سيقومان بعملهما لوجه العدالة فحسب، دونما أي مقابل آخر. ولم تعزهما الحيلة. مادام

عناصر المخفر قبضوا على مشبوه حاول التسلل إلى أحد البيوت، واصطحبوه إلى المخفر، هل يُطلق سراحه قبل أخذ أقواله؟ لا، حقق معه رئيس المخفر فاعترف بأنه اعتاد على مواعدة فتاة في البيت ذاته. ومداعبتها...وهلمجراً إلى آخر المشوار. ما الذي يفعله به؟! أرسله إلى القصر العدلي. ما أدراه أن المشبوه لم يصرح عن اسمه الحقيقي وأعطاه اسماً مستعاراً، وليكن حمدي حمود المحمود؟! صَدَّقه، لم لا؟! لم يكن يحمل بطاقة هويته الشخصية.

مع بدء الدوام الرسمي في القصر العدلي، حسب الخطة، تسلمه قاضي التحقيق، وفي مكتبه أعاد المشبوه الذي أصبح متهماً أقواله بكل أريحية، تضمنت وقائع غرامه الكبير بمحبوبته الصغيرة وزياراته الليلية. وقبل أن يقفل المحقق الضبط، ذكَّره بأن اسمه حمدي أحمد المحمود. أرسله إلى غرفة التوقيف، ثم رمى هويته الشخصية في المدفأة. بعدئذ، أطلق سراح المتهم المزيف أحمد ربيع، وأكد عليه عدم الاستفسار عن قضيته بعد اليوم، وعندما تساءل المتهم السابق عن السبب، كان الجواب: لم تعد هناك قضية.

طلب المحقق إجازة مستعجلة لمدة أسبوع بسبب وفاة أبيه، قضاها في حمص مع أخوته، وترحم على المرحوم أبيه، الذي توفي قبل عشر سنوات. قال لأخوته بأنه يفكر بمشروع تجاري، ملمحاً لهم بأنه ربما ترك الوظيفة في القريب العاجل.

بعد انتهاء الإجازة، عاد المحقق إلى عمله، لم يعترضه أحد، تقصى ما جرى في غيابه، قيل له بأن المتهم أرسل إلى سجن عدرا، والقضية أخذت طريقها إلى المحكمة. لأول مرة منذ تسلمه مركزه، أحس بالفخر: لقد أسهم بإنقاذ إنسان مظلوم، وأنجز أمثولة، خارجة

من بطون الكتب تقول: كي تأخذ العدالة مجراها، لا تحتاج إلى حواريين يؤمنون بها، وإنما إلى أنصار يذودون عنها ويعملون على تحقيقها.

لن تتوضح المأثرة التي أقدم عليها قاضي التحقيق، أو تعطى جرأته حقها من التقدير إلّا إذا عرفنا من هو الرجل الأصلع؟! ولا يكفي القول إنه فالح جادور، هذا لا يكفي، إن لم نطلع على تاريخه المثير، وهو مجموعة قصص، لأن قصته تشمل غيره.

بطل المداهمات

سطع نجم فالح جادور إبان القلاقل الرهيبة التي عصفت بالبلاد قبل عقدين وأكثر من الزمن، كان خلالها قائداً لمفرزة من عناصر المخابرات العسكرية، ومن الذين أبلوا بلاء حسناً في القضاء على العصابات المسلحة من جماعات الأصوليين المتشددين المتأسلمين وتقصي آثارهم وملاحقة فلولهم التي عكرت صفو الأمن، وكادت أن تدفع البلاد إلى هاوية الفوضى والاقتتال الطائفي.

كان على رأس حملات المداهمة، لم يتوان مرة عن تعريض حياته وحياة رجاله للخطر، في سبيل تنفيذ المهام المسندة إليه على أكمل وجه، فنجح في تدمير عدة بؤر كامنة في مناطق نائية قاحلة وفي حارات مكتظة بالسكان. تنبأ له رؤساؤه بمستقبل باهر في سلك المخابرات، وطارت شهرته في البلد، وغُدَّ رأسه مطلوباً من قبل الطليعة الإسلامية المقاتلة، وحاولوا كما قيل اغتياله عدة مرات. كان

مجرد ذكر اسمه ينشر الرعب في القلوب، فشاعت عنه حكايات غريبة، أنه مثلاً يهجم على خصمه بيديه العاريتين ويقضم رقبته من جوزة حلقه، أو يضربه على يافوخه فيحطم جمجمته ويفرط مخه، وهي قصص لا تصدق، نتاج فترة مخيفة اصطنعت أبطالاً وبطولات، وكانت في أغلبها قتالاً شرساً، يجري على مبدأ إن لم تقتله قتلك، لم يكن التروي وارداً، الإصبع على الزناد، والقتل باعثه الخوف لا الشجاعة. فالح جادور كان ضابطاً مقداماً جريئاً، لا يهاب الموت، شهد له أعداؤه بالشراسة، وأسهم زملاؤه في ترويج ما دعي بأسطورة جادور.

خلال اشتباك مع مجموعة متمركزة تحت الأرض، أبدى الشبان المحاصرون مقاومة شديدة. أمرهم بالاستسلام، لم ينصاعوا، فأصلاهم جحيماً من الرصاص والقنابل، وتوعد من بقي على قيد الحياة بالموت حرقاً إن لم يرموا أسلحتهم ويخرجوا رافعي الأيدي، أجابوه بصيحة واحدة «الله أكبر» ورفعوا لواء الشهادة، لم يُعد الكرة، لئلا تطول المواجهة بلا جدوى، واقتحم متاريسهم من عدة جهات. بعد قتال بالسلاح الأبيض، قُتل أفراد المجموعة كلهم، عدا قائدهم، قُبض عليه حياً ومصاباً بعشرين طلقة، كما أصيب جادور بعدة إصابات بالغة في بطنه وأطرافه. أثناء نقل الجرحى في عربة الإسعاف، أجهز جادور على قائد المجموعة حينما حاول الأخير اغتياله، كما ادعى. في المستشفى، أُجريت له عدة عمليات جراحية معقدة، لم يخرج منها سالماً، كانت المواجهة المميتة بالسلاح الأبيض قد تركت آثارها على جسده؛ عرجٌ ملحوظ في قدمه اليمنى، وشلل غير ملحوظ في يده اليسرى. أعقبتها نقاهة شهر كان طويلاً ومملاً، رغم كثرة زواره من قادة الجيش الكبار والضباط الصغار من صنوف الأسلحة الثلاثة، إلى رجال الأجهزة الأمنية والوزراء والحزبيين في العاصمة والمحافظات.

تماثل للشفاء، ولم ينقطع توارد البرقيات، هنأته بالسلامة... لا غير!! فانزعج، ماذا بعد السلامة؟! متى سيعود إلى المفرزة؟! لم يُتح الغم الذي أطبق عليه قضاء وقت ممتع مع زوجته وأولاده، مع أنه اكتشف أن لديه أربعة أولاد، وبالتحديد بنت وثلاثة صبيان، رزق بهم في خضم الثورات والانقلابات والملاحقات الداخلية، والأحداث المتلاحقة في حرب لبنان. اكتشافه لم يحبطه أو يذهله، فلو كانوا ثلاثة لما فرح، أو كانوا خمسة لما زعل. أمثاله لا يتوقعون مفاجآت تهب من داخل البيت، بل من خارجه.

لم تسمح الأعباء الأمنية في تلك الأزمنة الطاحنة لضباط المخابرات إلّا بالمبيت الليلي، وكان ليلياً فعلاً، ليلة واحدة في الأسبوع. وفات المقدم جادور النهارات المنزلية، المضاءة بالنور الطبيعي، حيث تجري الأحداث رتيبة، وتنطبع في الذاكرة لوضوح المرئيات. في ليلة المبيت الوحيدة من الأسبوع، يتم لقاؤه مع زوجته في العتمة، على عجل دون تخطيط مسبق، فلا يكتسي حدث ما قبل النوم معالم محددة، خاصة أن عمليات المداهمة كانت تجري في الليل أيضاً، فيختلطان أحياناً مع بعضهما بعضاً، فكان يصرخ بين أحضان زوجته الخائفة ويهجم، في حين لا لزوم للصراخ ولا للهجوم. كان كلما ظفر بإجازة قصيرة بعد مهمة طويلة، يسارع إلى عش الزوجية، فلا يعي سوى أن امرأته جاهزة في انتظاره، لا يحول بينه وبينها مانع، كان قد اعتاد ما يطرأ على حالتها من تغيرات أصبحت روتينية، إن لم تكن حبلى، فعلى وشك أن تلد، أو في النفاس، أو أنها تُرَضّع.

إثر تمديد نقاهته للمرة الثانية، استأثرت به الهموم، وراوده، رغم اطمئنانه لسجله البطولي الناصع، خاطر أرّقه، لن يستعيد موقعه في القوة الضاربة لمفارز المداهمات. في مراجعته الأخيرة للمستشفى، لم

تمدد نقاهته، أو يعيدوه إلى الجيش، أعلموه بتحويل أوراقه إلى الأركان العامة حيث سينظر بأمره. اِنتظرَ، سأل هنا وهناك، دونما جواب. رئيسه ورفاقه في سلك المخابرات هدأوا من مخاوفه: لن نتخلى عنك. لم يتفاءل، والمدة طالت، أيقن أن رجال إدارة شؤون الضباط في الأركان أهملوه، أو نسوه، وإذا تذكروه فقد يوكلون إليه عملاً إدارياً، بيد أنهم خيبوا ظنه، تذكروه أخيراً، وسرحوه من الخدمة؛ ليتهم لم يتذكروه.

رئيسه السابق وفى بوعده وحرك قضيته، ومعه رجال السلك من رفاق السلاح؛ هاجوا وماجوا وأقاموا الدنيا فوق رؤوس رجال إدارة شؤون الضباط، أوَ تجهلون من هو فالح جادور؟! لولاه لكنتم وكنا مقبورين، أو أصحاب عاهات، نمشي على عكاكيز. اعتذر بيروقراطيو الأركان: رجلكم لم يعد صالحاً لحمل السلاح فأُعفي من الخدمة، التسريح كان تنفيذاً لقانون لا يمكن تجاوزه، الجيش لن ينسى خدماته. ولم يقبل رجال السلك بأقل من مكافأة كبيرة ووسام، واشترطوا لرفع معنوياته، الوسام قبل المكافأة.

أحيل فالح جادور إلى العمل المدني في مدينة ساحلية، كانت المكافأة مجزية، منصب مدير المرفأ. تسلم مهام منصبه على مضض، لم يخرج من مكتبه طوال النهار، يطل صباحاً من الشرفة ويتأمل منظراً في منتهى الحرن والثبات، شاطئ وبحر وسفن، شاعريته تدعو للتثاؤب والنعاس. لم تمض بضعة أيام حتى أخذ يشكو من القلق، قلق غريب من نوعه، يدعى قلق السمك، يشبه ما تشعر به السمكة حينما تنتزع من الماء وتبلعط لافظة أنفاسها على اليابسة؛ إحساسه كان مثل إحساس سمكة قبل الموت. وفي الليل، تهاجمه الكوابيس، يرى نفسه يقفز بين الخنادق وفوق الجثث، يبحث عن منفذ، يجد

أمامه حفرة مظلمة وعميقة، صخَب الأمواج يصك سمعه، هناك من يدفعه إلى الحفرة، يقاوم ويصرخ بأصوات مبحوحة، خائفاً من السقوط والغرق. مم هو خائف؟! كان خائفاً من الغرق في هذه البلادة المرعبة.

استولى عليه إحساس بالشلل، وافتقر إلى القليل من الحيوية والفضول لتخطي عتبة المكتب، ربما اشتباك بالنيران الخفيفة أو الثقيلة، أو انفجارات قوية على مقربة منه، تطرد عنه الخمول. من سوء الحظ، كان زمن النيران والانفجارات قد ولّى.

على الشاطئ، تشبث بالصمت، واستكان في غرفته وأبى مغادرتها. العمل في المكاتب يسير بهدوء، ولولا الهدير المتقطع للأمواج والرافعات ونداءات العمال لكان السكون تاماً، أشبه بيوم عطلة مديد وسقيم. كما كان التنزيل والتحميل في المرفأ مسالماً يفتقر إلى الحد الأدنى من عدم الأمان. ما الذي سيخلصه من قلق النهار وكوابيس الليل؟ الخطر بالذات.

أين هو الخطر المخيف والناجع فعلاً؟! بعد ترقب وتربص وتمحيص، اكتشفه، كان ما يخشاه قبل تطوعه في الجيش أن يصبح موظفاً في الدولة، حتى ولو صار موظفاً بدرجة عالية، وفي منصب كبير. ها هو تحقق، وأصبح موظفاً ذليلاً؛ إزاء خطر الوظيفة الرهيب!! ما الذي فعله؟! ألقى بنفسه في غمراته.

ترك مكتبه صباحاً، وظهر على رصيف المرفأ بين العمال. أعطى العمل جهده وصبره، وكرس له نهاره وليله. بعد أشهر، ازدهر المرفأ وأخذ يعمل أضعاف طاقته القصوى. لم يرجع إلى مكتبه إلّا بعد أن قضى على العلة الدائمة التي تشكو منها مرافئ العالم أجمع: التأخير.

كان ما فرضه من تنظيم دقيق فعالاً ومجدياً، لم يأت بثمراته من جراء سمعته كضابط سابق، مقاتل وعنيد، بل لاستخدامه الأمثل لقدراته المخابراتية الفذة، بتشكيل فريق سري من الموظفين والعمال يقوم بالتجسس على سير العمل، والمراقبة الدائبة لحركة الخروج والدخول من وإلى الميناء، وعدم إهمال شاردة أو واردة، والتدخل في أتفه الأمور. بعد فترة قصيرة، أعطت التفتيشات المفاجئة للمكاتب والمستودعات نتائجها الباهرة، لم يكن التراخي الشاعري الثابت للسفن المتهادية بين الأمواج سوى السطح البارد البادي للأعين، يخفي تحته الحجم الحقيقي لنشاط شبكاتٍ، الضالعون فيها والمستفيدون منها، كسبوا من وراء عملياتهم المريبة وتواطؤهم مع المخلصين الجمركيين ثروات تقدر بالملايين.

في ليلة كانت الأكثر صفاء، قاد على حين غرة حملة مداهمة أشبه بتلك التي كان يقوم بها ضد خلايا المتطرفين المتأسلمين، من دون توتر وبلا نيران، وقبض على بعضهم بالجرم المشهود، والآخرين جاء بهم من فراشهم. أجرى تحقيقاته معهم في مكتبه، وفي المكتب المجاور كان طاقم من العناصر المدربة على عجل ينتزع أقوال من يتلكأ عن الاعتراف، عموماً التعذيب لا يحتاج إلى تدريب. عندما أرسل الموقوفين إلى دمشق، مخفورين برجاله، كانوا حسب الأصول، مكبلين بالقيود، متورمين ومكسرين مع محاضر التحقيق كاملة، لم يترك لقضاة العاصمة عملاً سوى إصدار الأحكام.

دفع النظام المتبع الكثيرين إلى تشبيه إدارة المرفأ بثكنة عسكرية يراعى فيها الانضباط وتطبيق العقوبات المسلكية التأديبية، وأحياناً الجسدية، مع غرامات مالية. كان عندما يغضب ينهال بيديه وقدميه على من حوله من الموظفين والعمال، ويسجن الكسالى المتقاعسين

والمتمارضين المتهربين من الأعمال المرهقة، ومعهم الأغبياء ممن يشكون من عسر في الفهم، في قبو مخصص للمخالفات الخفيفة والجسيمة. كان المرفأ كما تندر أحد المفتشين، الإدارة الوحيدة في الدولة التي يسير فيها العمل بشكل منتظم. واكتست ملاحظة المفتش إلى الحكومة في العاصمة معنى عملياً ساخراً بنصيحته لهم إرسال مديري الإدارات والمؤسسات التابعة والمستقلة إلى المرفأ لإجراء دورات تدريبية على فن الإدارة الناجح.

حتى مساوئه التي طفت بعد نجاحاته، كانت في مفهوم الرعيل الثوري الحاكم، مزايا لا يستهان بها، كتعاطي المسكرات يومياً حتى ساعة متأخرة من الليل مع معارف كانوا يتزايدون باستمرار، بصحبة رفاقه المخلصين من رجال المخابرات الذين لم يتخلوا عنه، أو تتراجع صداقتهم معه، بل توطدت. كانوا أصدقاء حقيقيين، يزورونه من وقت لآخر محملين بالأخبار والذكريات، ويعودون محملين بصناديق الويسكي والنبيذ والشمبانيا والسمك الطازج. كان تعاطي المشروبات الكحولية بإفراط يعد دليلاً على رجولة بوهيمية تليق بالرجال الجسورين اللامبالين الناقمين على الحياة البرجوازية الوادعة التي يرتع بها سكان المدن. وبعد حفلة السكر، ربما ابتدأت حفلة ثانية، جولة في المدينة، تحتوي على برنامج حافل: تطبيش سيارات، ضرب سكارى، تحرش بعمال الأفران والحراس الليليين؛ للتسلية فحسب، حتى أنهم اعتقلوا مرة دورية من رجال الشرطة جردوهم من أسلحتهم وحبسوهم في مستودع المرفأ. كان العنف مزية، ألم تثبت هذه الوسيلة نجاعتها في الحرب على دعاة تمزيق الوطن إلى طوائف، ومن ثم تنظيف المرفأ من اللصوص والمرتشين، وأخيراً العلاج الأمثل للتسيب المستشري في بيروقراطية أدمنت الإهمال؟!

تمرس في العمل السواحلي من جمارك وبواخر وكشف وتخليص

وشحن وترانزيت. أصدقاؤه المقربون من رجال السلك اعتبروا المرفأ مرفأهم، وبالمقابل اعتبر صداقتهم حصنه الحصين والمنيع. ولم يخيب المتنفذين في العاصمة بمختلف درجاتهم وتدرجاتهم، كانوا يقصدونه بطلباتهم الشخصية، أو يتوسطون لسيدات جميلات وأرامل لعوبات وآنسات لطيفات، يسألونه الإسراع، أو تلافي تأخير شحنات محجوزة في المستودعات، بالتخفيف من الإجراءات تفادياً لوقوع أضرار محتملة. المفروشات قبل أن يأكلها العث، البيانو لئلا يسرق، الأقمشة قد ينصل لونها تحت الشمس؛ غرفة نوم الأطفال، تجهيزات الرشاقة، سيراميك الحمام، أو... وكلها عالقة لعلة في شهادة المنشأ، أو عدم السماح بالاستيراد، أو نقص في البيانات المرفقة، أو اختلاف في المواصفات... من نوع تلك الإشكاليات الروتينية التافهة.

لم يبخل على أحد من معارفه أو أقربائه بخدمة. كان بعد أن يلبي حاجتهم، يصطحبهم أو يرسل معهم سيارة أو أكثر، ومرافقاً أو أكثر، إلى جولة في المدينة والقرى المجاورة، نحو المرتفعات الخضراء، أو الآثار الجرداء. في المساء يدعوهم إلى سهرة عارمة حافلة بالكاس والطاس، والسمك مشوياً ومقلياً، وأحياناً مع الموسيقى ومطرب ناشئ يبدأ خطواته الأولى بالميجانا والعتابا؛ وبين الوصلة والأخرى، يتحفهم الضابط السابق بمغامرة من مغامراته العسكرية الشيقة. في اليوم التالي، يودعهم مثلما استقبلهم بالأحضان والقبل، ويغادرونه سالمين غانمين، وهم يلهجون شاكرين، ما هذا الرجل الكريم والشهم؟!

****

في العاصمة دمشق، أخذت الأخبار المتناثرة تصلهم حول تجاوزات

البطل المؤتمن على الميناء. قائمة مصاريفه الهائلة فضيحة، من فواتير الولائم اليومية، وحسابات الفنادق والمطاعم والشاليهات، إلى حمولات اللحوم والفواكه وصناديق الخمور والعرق وكروزات الدخان الأجنبي؛ ثم كمجرد فكرة: ما يدفعه في سهرة واحدة يزيد على خمسة أضعاف راتبه الشهري!! على هذا النحو كانت أخباره تتوارد.

هبَّ أصدقاؤه من رجال السلك هبّة رجل واحد: فالح جادور مضياف وأريحي، رجل كسَّاب وهَّاب، يمر المال إلى جيبه مروراً عابراً لا أكثر. هل في استعادته بعضاً من زهرة شبابه جريمة؟ أحلى أيام عمره أضاعها في المناوبات الليلية والمداهمات القاتلة. ألا يكفيه تعرضه للموت في الماضي، حتى نشوه سمعته في الحاضر؟ ثم، ليست قدمه التي أصيبت فحسب، بل يده أيضاً مشلولة.

الأخبار لم تفتر عن القدوم؛ شفهية ومُدَعَّمة، ثم أصبحت مكتوبة وموثقة، ومعروفاً مصدرها ومرسلها: فرع الحزب في الساحل؛ مرفقاً بها نسخ طبق الأصل لفواتير المطاعم والفنادق. وأفلام فيديو مصورة التقطت من بين أغصان الأشجار، لعربدات تمتد حتى الصباح، تضم فالح جادور وضيوفه من رجال معروفين ونساء غير معروفات، وفرقة موسيقية ودبيكة ومطربين ومطربات، وفي الخلفية، مناقل الشواء، ومقالي السمك، وشاحنات محملة بما لذ وطاب، ورجال ينصبون الطاولات، يمدون الشراشف، ويحملون الصواني العامرة، يتنقلون بين الضيوف بالقناني كلما نقصت كأس يملأونها.

لم تضف الأفلام وما حوته شيئاً، سوى أنها أكدت ما هو مؤكد، وفحواها لا يستحق عناء الاصطدام مع رجال المخابرات، الذين

سيسألونهم، ومعهم الحق: ما الجديد؟! هذا إن لم يثوروا على اقتحام الكاميرا لحياة رجلهم الخاصة على الشاطئ خارج أوقات دوامه الرسمي، واتهامهم بعرض صور زوجات ضيوفه وأقاربه على أناس أغراب!

في العاصمة، بعد التداول، اختاروا تصنيف الأخبار مع الأفلام الحية المصورة بالألوان الطبيعية، على أنها شائعات مدسوسة تلاحق الإداريين الناجحين، على شاكلة ضريبة النجاح التي يدفعها المطربون والممثلون المشهورون! وخلصونا من هذه القصة.

لكنها ستشهد تطوراً، عندما انتهج مرسلوها أسلوباً فضائحياً، اعتمد كالمعتاد، النساء:

... ولا يخفاكم أيها الرفاق الحزبيون الأفاضل، أن فالح جادور يقتني وبشكل علني، ثلاث صاحبات يوزع أوقاته بينهن!! الأولى للمكتب، حاملة أختام وسكرتيرة نهارية وليلية، رواتبها السرية على بياض، غير محددة ولا قيود لها. والثانية سيدة تبدو محتشمة لكنها بلا حياء، للنزهات البرية الخلوية وشم الهواء، استأجر لها جناحاً دائماً في فندق على رابية يطل على الوادي. والثالثة فتاة رياضية، للنزهات البحرية والأهواء العاصفة، اشترى لها شاليه، مجهزاً بملعب كرة سلة على الشاطئ.

وماذا فيها؟! تساءل رجال المخابرات متعجبين.

فيها أن تكلفة كل واحدة في الشهر ما لا يقل عن مائة ألف ليرة، بينما راتبه كموظف لا يزيد عن عشرة آلاف ليرة، أجابهم رجال العاصمة متعجبين أكثر.

لكن رجال المخابرات سيفحمونهم، مستحيل، مصروف الواحدة شهرياً، حسب أقوالكم، يعادل تكلفة زيجة بحالها. هل يعقل أنه يتزوج ثلاث مرات في الشهر الواحد؟

فأبرق رجال العاصمة إلى الساحل: وافونا بالتفاصيل.

جاء الرد من الساحل: لا نستطيع، جادور يغلق الباب خلفه عندما يختلي مع أي من نسائه.

فأبرقوا ثانية: أيها الحمقى، تفاصيل المائة ألف، على ماذا يصرفها؟!

ووردتهم القائمة: تايورات صيفية قصيرة، أرواب نوم شفافة، ملابس داخلية فاضحة، مايوهات قطعتين، عطورات فواحة، خواتم وأطواق مضادة للصدأ والأملاح، زيوت للمساج، ومراهم للحروق، كريمات مضادة للشمس، لوسيونات للبشرة الجافة، وحليب مُطري، وماكياجات فاقعة، وكوافير مخنث، وبنزين للسيارة وأجرة السائق، بالإضافة إلى الطعام والشراب والفخفخة والأدوية المُنَحِّفة والفيتامينات والمقويات والمنشطات والمشهيات والعوازل المطاطية، وعناصر حماية أخصائيون بالمراقبة عن بعد والمتابعة عن قرب.

لم تؤخذ الإخباريات بجدية، أو يشفع لها ورودها من فرع الحزب؛ إذا لم يهول الحزبيون ويقلبوا البحر رأساً على عقب، فما الذي يفعلونه على امتداد ساحل خوت شطآنه من المصطافين المترهلين والمصطافات السمينات، وفتيات أجسادهن ممشوقة ووجوههن مقمرة وأبدانهن محروقة، يتسترن بمايوهات ملونة ومخرمة وشورتات شرعية؟ وريثما يتوافدون بسياراتهم وشاحناتهم وهوندایاتهم

وباصات الرحلات الجماعية، ليس للحزبيين إلّا التصبر بالصيد وشرب المتة وتفصيص البزر وتدخين النراجيل ومضغ الشائعات وتفتفة النمائم. وحتى بعد أن حل موسم الاصطياف، وتدفق المستجمون، لم يتوقف السيل المضجر، كأنما أمين الفرع أوقف اجتماعات الحزب الدورية وفرّغ رجاله لمراقبة فالح جادور ليلاً ونهاراً، ولا عمل له سوى تدبيج التقارير تلو التقارير، وإرسال أدق حركات وتحركات الضابط السابق المتلاف إلى من يهمه الأمر في قيادة الحزب والدولة معاً.

بلغت البلبلة أشدها لدى من يهمهم الأمر في الحزب. ما الذي بوسعهم فعله؟! كانوا محاصرين بأصدقاء جادور العتاة من رجال السلك، وسيبقون هكذا مقيدين إلى أن اتصل بهم مسؤول من القصر الجمهوري وصرخ: إلى متى؟! بصقة تحت حجر لا تختفي، الدنيا مطبولة بالقصة. وطالب قيادة الحزب باتخاذ إجراء فوري صارم، حلّوا القصة بمعرفتكم وإلّا أحلناها إلى القضاء! ومع أنه شد من أزر القيادة بتشبيه جادور بالبصقة، لن يتمكنوا من حلحلة القصة بالحسنى ولا بغير الحسنى، أصدقاء جادور لا يستجيبون للوسيلة الأولى، ولا تنفع معهم الثانية. ومن الحيطة تحويل القصة كلها مع حواشيها إلى القضاء العادل.

للأمان، ارتأت قيادة الحزب استمزاج رأي الأكثرية، على أن الأكثرية كانت مثل الأقلية، عاجزة عن الإتيان بحركة، لا أحد يرغب في الاصطدام مع رجال السلك. غير أن الحزبيين العقلاء ممن تخضرموا بأمثال هذه القصص سيتدخلون، هل تريدون التخلص من القصة من شرشها؟ نعم. فأفادوهم بمختصر واف ومفيد: أعيدوها إلى موطنها وأهلها، علقوهم ببعضهم. كيف لم يخطر لهم هذا

الرأي الحكيم من قبل؟ لا تتعجبوا، هذه الحكمة من تلك الخضرمة!!

أعيدت القصة إلى فرع الحزب، هناك موطنها وأهلها القادرون على حلها، مع توجيه:

من الآن فصاعداً، أرسلوا تقاريركم إلى الجهة ذات الاختصاص.

من هي الجهة ذات الاختصاص؟!

جيرانكم، مخابرات فرع منطقة الساحل.

بعد أقل من أسبوعين، جاءهم الجواب: جادور اشترى المنطقة والفرع والمخابرات، وأخذوا يسهرون كل ليلة معاً؛ مع الوثائق: تسجيلات صوتية تفضح عملية شراء يومية طالت رئيس فرع المخابرات وضباطه.

وسيزداد الوضع تشابكاً، بعدما تفرغ فرع الحزب للتجسس على فرع المخابرات!! والأخطر، إذا استمر هذا التعدي على الاختصاص المهني، ألّا يعود للمخابرات من عمل سوى السهر والسكر مع مدير المرفأ، بينما يقوم فرع الحزب بمهام المخابرات التجسسية من مراقبة وتلصص وتنصت!! لم يتوقف سيل الإخباريات، والتقارير باتت مروّسة «عاجل جداً» و«سري للغاية»، وكلها يضرب على الوتر الغليظ نفسه، مع إضافات لم تكن جزئية: المرفأ أصبح ملكية خاصة لفالح جادور، وضعيته لا تقل عن وضعية مرفأ مستقل تجبى فيه الجمارك حسب تعرفة خاصة مخفضة، غير خاضعة للتعرفة المنصوص عليها في اللوائح؛ وحسب الأصول، أُرفقت بيانات تبين التلاعب الحاصل في حساب عائدات الدولة الجمركية!! فثارت من جديد ثائرة العاصمة، مهما كان الجهد الذي

يبذله فالح جادور والإخلاص الذي يبديه، فلا يبيحان له مشاركة الدولة وارداتها، ولا اقتطاع حصة لجيبه من مداخيل المرفأ.

لم ينجم عن المناقشات التي احتدمت، وقوف رجال السلك صفاً واحداً منيعاً دفاعاً عنه فقط، بل هددوا باعتقال كتبة التقارير والتحقيق معهم. ولو كانوا من الحزب القائد؛ نحن حزبيون أيضاً، فالح جادور يمثل كرامة الجيش، إذا رماه سوء حظه في العمل الوظيفي فلا تظنوا أننا سندع المدنيين ينهشونه بأكاذيبهم، لن نسمح لبضعة مرتزقة أنذال بالإساءة إليه، ليسوا في حقيقتهم إلّا حفنة من المندسين الحساد اللئام، يستغلون عضويتهم الحزبية في تشويه سمعة بطل!! كلنا يعرف، ما يقتطعه جادور من العائدات يذهب لتغطية مصاريفه وهي مصاريف كبيرة، إن كانوا يهدفون إلى قطع أرزاقه القادمة من البحر، فهو يصرفها في البر، منصبه والتزاماته في المنطقة، تحتمان عليه الظهور بمظهر لائق يتناسب مع مركزه، ولئن كان لا بد من إجراء، فليس أكثر من تنبيه، فنبِّهوه.

يا رفيق فالح، الشباب في شعبة الحزب عاتبين عليك.

وتنفسوا الصعداء، ليتهم نبهوه من قبل، لوفروا على أنفسهم كل هذا الضجيج. انقطع اللغط، ونال فرع الحزب نصيبه من الليالي الملاح والسكر المباح، ومع هذا لم يتوقف القيل والقال نهائياً!! ولم تعدم العاصمة تقارير تتسلل إليها من حين لآخر، كتبها حزبيون أغرار، غيورون على المصلحة العامة، لا تجد أذناً صاغية. بيد أن التقارير الأخيرة، كانت كارثة مفزعة!! أبلغت عن عملية ضخمة، تنزيل حمولة باخرتين تحتويان على شحنتي مواد أولية وأدوية، تقدر قيمتها بمئات الملايين، أُدخلت لقاء رشوة كبيرة، حوالي عشرة ملايين، تقاسمها مع الوسطاء.

بلغ الانزعاج في العاصمة أشده، وعلى أعلى المستويات، الاقتصاد ليس لعبة طائشة، حتى التهريب كان خاضعاً لقواعد لا يجوز العبث بها، الرشوة لم تكن كبيرة، العملية نفسها عُرضت على عدة جهات هنا في العاصمة، ولم يقبل أحد التوسط لتمريرها عبر الحدود لقاء مبلغ تجاوز عشرين مليوناً. الخدعة ذكية، صاحب الشحنتين ساوم أطرافاً في العاصمة وأطال المفاوضات، وفي الوقت نفسه استغشم بطل الميناء واتفق معه على إدخال حمولة الباخرتين عن طريقه، وضحك عليه بمبلغ صغير. الكارثة، إذا فُتح باب البحر على مصراعيه وبهذه الأسعار المهاودة، فسوف تتدهور الأسعار على طول الحدود البرية، وتنعكس على الأسواق الداخلية. من سيدفع ثمن الخسائر؟! ليس ذلك الأحمق الأخرق الذي يتلهى بلعبة يجهل حجمها ومداها وتكاليفها، بل الذين أفلتوا له العنان: أزيحوه بأسرع وقت ومهما كلف الأمر.

****

عندما تسلم أمر استدعائه إلى هيئة التفتيش في العاصمة، لم تهتز شعرة من رأسه، رغم أن المفاجأة كانت كبيرة وحقيرة. من هم حتى يحيلوه إلى التحقيق، ومن خولهم محاسبته؟ أين كان هؤلاء السفلة المضطجعون في مكاتبهم عندما واجه الرصاص بصدره؟ لا ليس فالح جادور من النوع الذي يؤكل لحمه، لحمه مرٌّ المذاق. هذا ما قاله لحظة تبلغه أمر استدعائه وطلب من الموجودين حوله أن يبلغ الحاضر الغائب. وأردف، رأيت الموت بأم عينيَّ أكثر من مرة ولم يطرف لي جفن.

لم يغافلوه وحده، كانت ضربة موجعة لرجال السلك، طار صوابهم

وبادروا من فورهم بالاحتجاج وعلى المكشوف: هناك من يحيك الخطط لسلب فالح جادور المرفأ. منصبه. ولا نجهل، مطلوب من عدة جهات في العاصمة. وتحدثوا بأكثر من المكشوف: من سيأتي ليس أفضل، بل أسوأ، ما يجنيه من وراء أعمال المرفأ بجهده، أموالاً زائدة، وبضائع البواخر التي أدخلها، ممنوع أصلاً استيرادها، إن لم يأخذها هو فيأخذها غيره، والفارق كبير، غيره سيأتي دون خبرة ويأكل الأخضر واليابس، أما هو فمكتفٍ، لا يغريه مال ولا منصب، عينه شبعانة. أما حساده الجوعى فيركضون وراء فتات المال والمناصب. من يتهمه، أول من يعرف بأن خبرته لا تدانى، لم يتوفر للمرفأ منذ تدشينه رجل مثله، بسط سيطرته على الساحل، وأدار الأمور فيه وجعلها تمشي كالساعة. صحيح أنه يأخذ من المستوردين والمصدرين والمخلّصين الجمركيين وشركات التأمين والقباطنة، لكن برضائهم الكامل، مقابل تسهيلات واستثناءات يقدمها لهم على مسؤوليته، ويرضي معهم الأرتال المرسلة إليه من مختلف محافظات القطر، كل منهم يرجوه شيئاً، يقدمه إليه من غير مقابل، ومهما كانت حنكة الشخص الذي سيخلفه، لن يقيم توازناً بين مصالح الناس ومصلحة الدولة، سينقض على كل ما يشتم منه منفعة. ألم تتعلموا بعد؟!

أعدَّ جادور عدته لخوض معركة لا تبقي ولا تذر، أكد عليه رفاقه بأن يجرب أولاً الوسائل السلمية. وقالوا له، اذهب نحن معك. في العاصمة، لم يتوقف عند مبنى هيئة التفتيش، تابع طريقه إلى هؤلاء الذين كانوا وراء قرار إنشائها وتشكيلها. يعرفهم واحداً واحداً، من منهم لم يرسل إليه، ويسأله خدمة، أو يتوسط لقوادة أو قحبة، أو ابن زنى؟ وعاتبهم عتاباً قاسياً: إذا كانت جماعتكم ستستمع لمزاعم من هب ودب من المأجورين والأوباش، فلن يبقى معمل أو مؤسسة

أو إدارة في القطر تقوم بعملها على الوجه الصحيح، وسيساق المديرون مع موظفيهم إلى السجون. لم يجرؤوا على الرد، ولا أن يضع أحد عينه في عين جادور القوية. لكن وعدوه خيراً.

تابع طريقه، وقابل أولئك الذين أسدى لهم صنيعاً لا ينسى، والبرهان: ما زالوا جالسين بأمان على الكراسي التي حفظ رؤوسهم فوقها سالمة. عاتبهم عتاب الخلان الأوفياء؛ لن يحقق معي أي شخص كائناً من كان، سأذهب إلى السجن وأنا أعرج على قدمي هذه، لن أدفع عن نفسي مزاعم وترهات مهما كانت دناءتها، سأقبل بما تقبلونه لي، قدمتُ لكم ما عجزت عنه المصفحات والدبابات. شملهم بنظرة اتهام، رفع يده المشلولة وسألهم، ماذا كان جزائي؟ سكتوا، فأجاب: جرجرتي إلى العاصمة وبهدلتي بالتحقيقات.

كانوا مدينين له بمناصبهم أيضاً، وحانت ساعة الاعتراف بالجميل، قد... في يوم ما، يردّ لهم عدم نكرانهم الجميل في موقف مماثل، ثم، من منا لا يتعرض لمثل هذه التقولات؟! ما المبرر في سَنّ سابقةٍ، تهدد في يوم قادم أي واحد منا؟ اتفقت كلمتهم على الإعراب عن تضامنهم معه قولاً وفعلاً، وطمأنوا الغالي: رفيق فالح، لا تهتم، ما يصيبك يصيبنا.

عقدت المشاورات بين المسؤولين وهيئة التفتيش المنتدبة، وعن كثب كان رجال السلك يراقبون. كانت المزاعم الدنيئة دامغة ضده ومدعمة بالشواهد. فلم تعد المشاورات بينهما تبادلاً في الرأي، بل مناورات مبطنة بتلميحات. عرض المسؤولون القضية بطريقتهم: ننصح بـ... ونرتئي كذا... لئلا... كلنا معرضون لأقلام السوء،

كما لا تنسوا، جادور لديه وضع خاص، ثم ألم يكن ولاؤه كاملاً؟ الأفضل التريث... وأنتم تعلمون.

هيئة التفتيش لم تلن، كانت التعليمات السرية: إياكم أن تعيدوه إلى المرفأ، هذا الرجل محكوم سلفاً، لديكم وثائق ترسله إلى السجن عشرات المرات، وفواتير حسابات لا يكفي لسدادها مئات السنين. لم ينصع المفتشون لمناورات المسؤولين وضغوط رجال السلك، وتشبثوا بالتحقيق معه. كانت فرصة للهيئة المنتدبة لتثبت حرصها على القانون بمحاسبته حساباً صارماً، وجعله عبرة لمن اعتبر. أعيت الحيلة المسؤولين فلوحوا لهم بما هو أشد، هذا الرجل رمز، لا تزعزعوا ثقة المواطنين بمسؤوليهم والقائمين على أمورهم، نحذركم، عملكم لن يروق لسيادة الرئيس.

الرئيس!! فتراجعت هيئة التفتيش بكامل أعضائها عن تعنتها، وباحوا بالقيود التي تمنعهم من عدم محاسبته، هناك تعليمات سرية تلزمهم بترحيله من الميناء؛ ودلالة على نواياهم الطيبة صارحوهم؛ أخلوا سبيلنا من قضية جادور، نحن غير متمسكين بها.

تكهن المسؤولون، عندما يعلم الرئيس بالقصة، سيقدر على الأغلب ماضي جادور البطولي، وإذا كانت هناك قضية كبيرة ضده، فلن يبت فيها قبل الاستئناس بملفه العسكري، عندئذ ستتكفل التقارير الطبية والصور الشعاعية بإنهائها على ما يرام، لكن من يستطيع التنبؤ على أي وجه ستنتهي، وإلى أي مدى سيتسامح الرئيس معه؟! اطمئنوا، مع القدم العرجاء واليد المشلولة ثمة أمل كبير.

على كل حال، الهيئة ستنتظر، لكن ليس طويلاً. الأفضل إنهاء

القضية بالتوصل إلى مصدر التعليمات السرية، قد ينجحون بحلها بتبويس الشوارب، وعندما سيعرفون أصل هذا الداء الوبيل، لن يعسر عليهم مكافحته بالدواء المبيد.

لسوء الحظ كان مصدر التعليمات السرية إدارة مصغرة هي الأخرى سرية، لا تزيد عن بضعة أشخاص، وكما يشاع عادة، مقربة من القصر الجمهوري، وهو أسلوب متبع لتيئيس كل من يخطر له الاحتجاج أو الاعتراض. الأسلوب نفسه، أضيفت إليه لازمة محددة، الإدارة المذكورة على صلة مباشرة بمكتب الرئيس، وللمبالغة، بالرئيس، ويُعتقد، لتكتمل المبالغة وتصل إلى هدفها، بأن الرئيس شخصياً منحها صلاحيات واسعة للمساعدة على تنظيف الوزارات والمرافق والمؤسسات العامة من اللصوص والنهابين، هكذا بصريح العبارة الرئاسية. من جهتها سعت الإدارة منذ اعتمادها، إلى طلب المزيد من الصلاحيات، وتفسيرها تفسيراً غامضاً، بشكل يتيح لها التحرك بحرية على جميع المستويات دون استثناء، لتطال المحصنين الكبار. لن تخفق في قضيتها الأولى، الخطة مرسومة لكي تثبت الإدارة موجوديتها، فبدأت أعمالها بخبطة كبيرة؛ جادور: خبطتها الكبرى.

رداً على الإدارة الغامضة، لم يعد المرفأ مرفأ جادور وحده، ولا جادور المقصود، بل جميعهم، رجال المخابرات، الأجهزة كلها؛ وبكلمة واحدة: المرفأ مرفأهم!! وخط دفاعهم الأمامي والأول ضد إدارة لو ترك لها الأمر، ولم توقف عند حدها، فلن تقف عند حد. فاستعدوا للتصدي لها.

حسب المناهج العسكرية في إدارة المعارك الحربية، تمهيداً للضربة

القاضية، وقبل البدء بتطويق الهدف، أو تحديد إحداثياته؛ لا بد من إجراء عملية استطلاع تتناول أشخاص الإدارة. بدأوا باستقصاء آراء أصدقائهم من الضباط العاملين في القصر. وكم كانت المعلومات عن الإدارة العظيمة المقربة من الرئيس سارة، الإدارة بضعة مدنيين لا يزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة، تسللوا إلى القصر، وشكلوا مجموعة من الوصوليين الحقيرين المهووسين بالدس والوقيعة، من النوع المعروف بأنهم «حاطين جلدة طيزهم على وجههم»، لا أحد يعرف من رشحهم لهذا العمل، أو كيف تمكنوا من الوصول إلى مكتب الشكاوى، هذا إذا وصلوا، أما مكتب الرئيس فمستبعد، ولابد أنهم لفقوا بعض القصص عن التسيب في الدولة، ذريعة للإيقاع بخصوم لهم، وهم يعملون لحساب جهة جديدة، مما يطلق عليها قوة طالعة، تحاول أن تجد لها مكاناً تحت الشمس، كيف تجده إن لم تطح بغيرها؟ إذا أردتم إزاحتها فباستطاعتكم النيل منها بسهولة، حتماً ستجدون شيئاً يدينها، حاولوا بالتهديد، ولا بأس أن تجربوا أولاً اللين، لن تواجهوا عقبة كبيرة.

بات الهدف محدداً: إحباط الخبطة الأولى والكبرى لإدارة لم تقف على قدميها بعد؛ لو حققت الجهة التي وراءها نجاحاً فسوف تستبيح البلد. والمعركة، حسب الوصف: معركة بين مراكز القوى، سوف تدور بين تكتل مجموعة من الأجهزة الأمنية الراسخة، وقوة طالعة تستمد الدعم من جهة غير معروفة في القصر، لا بأس، من هي؟! حسناً، سنتعرف عليهم وعليها.

وجهت المخابرات الدعوة (للدقة كانت أشبه بـ«الدعوة») إلى الإدارة الغامضة. قبل أن يتمكن أعضاؤها من إبلاغ أحد، جاءوا بهم من بيوتهم بسيارات المارسيدس، فلم يستطيعوا الاعتذار عن عزيمة على

كأس ويسكي لئلا تشتبه بفنجان قهوة، سمعته مشبوهة.

أفلح كأس الويسكي، أكثر مما هو مقدر له، مزمزوه في بناء الفرع على مهل وبمنتهى الرواق، وتنقرشوا بعيدان البسكويت المملح والفستق الحلبي والزيتون الجلط الأخضر، والمنظر البهيج لجاطات الفريز والكرز والكيوي. كانت وجوه أعضاء الإدارة بشوشة، على طبيعتها، بلا جلدة ولا طيز. ربما لأنهم أحسوا بالحامي. فحلف عليهم الضباط بشوط ويسكي آخر. سرعان ما أصبح الطرفان من أعز الأصدقاء، لا فارق ولا مفروق بين المخابرات والتفتيش؛ وشو بدكم جاهزين.

بعد النكت والتنكيت، رجال الإدارة لا دخل لهم!! نحن معينون تعييناً لنكسب الوجه القبيح. فألحقوا شوط الويسكي بشوط ثالث وعشاء حافل باللحومات، فتعاونوا معهم أكثر من المأمول؛ جاءوا بنا كما جئتم أنتم بنا بالمارسيدسات، وأوعزوا لنا بإعداد ملف لقضية جادور، الملف أرسلناه إلى الهيئة ليجري التحقيق فيه، على أن ما سيجري فعلاً، لا يعد تحقيقاً، كل ما سوف يقومون به منجز، وعلى أتم وجه، من أوله إلى آخره، لا تتعبوا أنفسكم، يحال جادور إلى المعاش، سينالونه، إن لم يكن هناك أكثر.

أهذا معقول؟! كلما وصلوا إلى جهة تخلي مسؤوليتها!! إذاً، من الذي كلفكم بالقضية؟! فتتالت حلقة أخرى من سلسلة اللامتوقعات، لم تكن جهة وإنما شخص واحد لا غير، شخص يديرها بمركزية!! المركزية نفسها، التي تمارس في السياسة والاقتصاد والإعلام، وأصابتها سهام النقد مراراً. من هو؟! فاختتمت بمفاجأة: السفير الشبح!! هل ثمة سفير وشبح لا تعلم المخابرات بوجوده؟!

كان السفير الشبح، سفيراً بالفعل، لكنه ليس شبحاً، وإن كان معروفاً بهذا اللقب، يتجسد بين فترة وأخرى، لا يستقر في مكان، يسرح داخل البلد وخارجها، يذهب من هنا إلى هناك، الاشتباه الحاصل جاءه من مروجي شائعات محترفين، يسمعون عنه ولا يرونه. أما لقبه الحقيقي المتداول فهو:

سعادة السفير

لم يكن ما وُصف بالشبح أكثر من سفير سابق ومغمور، لا يتذكر رجال الدبلوماسية السورية ولا العربية متى كانت سفارته الميمونة. وإن كان قد أمضى بضعة أشهر سفيراً في بلد إفريقي فقير، يعاني من الجفاف والجوع والإيدز. بلد لا يمتلك ثروات معدنية مرموقة، ولا موقعاً مؤثراً على الخريطة الاستعمارية. بعد الاستقلال، لم تتنازع عليه الدول الغنية، تركته لنوبات سخائها الإنساني.

خلال الأشهر التي قضاها سعادة السفير سفيراً، لم يجد ما يروح به عن نفسه؛ الحر الشديد والحشرات السامة، ولا ننسى الإيدز، كانت له بالمرصاد. كما لم توفر الغابات إثارة آمنة. لدى عودته، شحن مع أمتعته ما يؤكد اقتحامه مجاهل الأدغال العذراء، وإلّا هل يذهب إلى القارة السوداء، ويرجع دون رؤوس محنطة لحيوانات مفترسة، وصور تذكارية أكثرها دلالة، صورة تتصدر صالون بيته، يحمل

نسخة عنها في محفظته، تثبت أنه ليس أقل جرأة من المكتشفين والرحالة والصيادين لابسي السفاري المتمنطقين بأجندة الفشك. في مقدمة الصورة، السفير الصياد على رأسه قبعة تعود إلى العصور الكولونيالية، إلى جواره المترجم، وخلفه الخيام وسيارات الجيب ولوازم الصيد، وإلى اليمين محليون سود أنصاف عراة، تبدو من بينهم امرأة يرضع من ثديها الشاطط والممطوط طفلٌ رأسه متطاول وعظامه بارزة. أما الصياد المقدام فقد امتشق بيده اليمنى بندقية بمنظار، ووضع قدمه اليسرى فوق رأس خرتيت!

الإنجاز الوحيد للسفير السابق كان في شرائه مقراً للسفارة وتأثيثه على نحو لائق يوحي بمعالم باريسية في بهو الاستقبال؛ قوس النصر وبرج إيفل...عدا العَلَم، كان سورياً. فنجح في بعزقة مبلغ هائل من الفرنكات الفرنسية، بعدها انقطعت صلاته بالخارجية والسفارات، احتفظ بلقب سعادة السفير. فطار اللقب معه ورافقه في جولاته. عندما يستقر في البلد فلأشهر معدودات، لا يمكن الالتقاء به؛ تحط الطائرة في مطار دمشق، فتستقبله سيارة مسدلة الستائر تغيب به في مكان ما ليوم أو يومين، ثم تنطلق به إلى مصيف قريب، أو مدينة شاطئية، أو قرية في المرتفعات مشهورة بنسيمها المنعش، قبل أن يطير مثلاً إلى القاهرة، ومنها إلى الرباط، فبيروت، إلى باريز، لتحط الطائرة أخيراً وليس آخراً في لندن أو فيينا وربما واشنطن. طيراناته لا تتخذ الشكل الرسمي، وتنقلاته الغامضة تأخذ طريقها إلى الأسماع بالأسلوب الشفاهي المستند إلى شهادات عينية. أحدهم مثلاً، صادفه في شارع سليمان باشا، أو محلات هارودز في لندن، أو أحد البيوتات الباريسية المشهورة، يتبضع أغراضاً غالية الثمن لشخصيات مرموقة في الدولة، يعتمدون على ذوقه المرهف في اختيار ما يراه مناسباً لهم من ملبوس ومنظور ومأكول ومشروب ومشموم.

في دمشق، يلمحونه خارجاً أو داخلاً إلى مطعم في المالكي أو باب توما، وربما أفلح أحدهم وألقى عليه سلاماً مع بضع كلمات في صالونات لطيفة تغص بالسيدات أكثر من الرجال، يمارس فيها سعادة السفير نشاطاً اجتماعياً ذا طابع أدبي محض، لا يقتصر على تبادل الآراء حول قضايا اجتماعية وثقافية، بل أكثر، إنه شاعر مطبوع على الغزل، ينظم شعر الحب بشكل بناء؛ الإشادة بمراهقة خجول تفوقت في امتحان البكالوريا، أو التشبيب بسيدة فاتنة أهملت زوجها وأولادها، أو امرأة على خلاف مع زوجها فيصلح بينهما ببيتين من الشعر. النوازع القومية تحتل مكانة متواضعة في أفقه الشعري الرحب، متأثراً خطى من سبقه من السفراء الشعراء عمر أبو ريشة ونزار قباني، معترفاً بأنه لا يمتلك موهبتهما الشعرية، مثلما لم يحققا إنجازاته الدبلوماسية.

كان حلالاً للمشاكل على المستويين العربي والدولي، ترسله وزارة الخارجية وأحياناً رئاسة مجلس الوزراء في رحلات خاصة وسرية إلى دول الخليج، ليطمئنهم إلى عدم جدية الانتقادات الإعلامية الحادة لسياساتهم: لا تهتموا، أُطلقت للاستهلاك المحلي؛ ويعدهم بمعاقبة المتسببين بها، ويسألهم شيئاً لا يعود قبل الحصول عليه. رشحته أطراف في الدولة ليتسنم منصب المندوب الدائم لسورية في الأمم المتحدة، لاتصافه بمزايا شخصية ودبلوماسية بحتة، متزن، رصين، زئبقي لا ينكمش من طرف، صوته هادئ ومنخفض، لا يشوبه عكر أو توتر، لا يفصح ولا يوضح؛ إصغاء كلي دون انفعال، مع ابتسامة استخفاف ستثير بلا ريب أعصاب المندوبين الدائمين في مجلس الأمن، لاسيما مندوب الولايات المتحدة الأميركية الذي سيصر على أسنانه، ويلتفت إلى نائبه: ترى ما المفاجأة التي أعدتها سورية لهذه الدورة؟! السفير لم يقبل بمنصب

يسلط عليه الأضواء، شرطه ألا يظهر إلى العلن، كان مغرماً بالخفة والتخفي والاختفاء، والقيام بمهمات لا يفلح بها غيره.

هل دعي بالشبح جزافاً؟! لا، ليس جزافاً، المهمات السرية والمعقدة تتطلب الخفاء والكتمان الشديد، والأولى أن يطال التكتم السفير وتحركاته الخفية. مع العلم أن صلاته العضوية من قرابات ومصاهرات وما أشبه، كانت برؤوس الدولة، الرؤوس فقط، تدفعه مرغماً إلى التحرك علناً، فيراه الناس في مناسبات القران والعزاء؛ عداها، نادراً ما يسعد أحد برؤيته، يدخل إلى الوزارات بلمح البصر (وهو تعبير دقيق يدل على استحالة حتى إلقاء السلام عليه) ويخرج دون أن يراه أحد. اعتاد أن يأتي ساعة يشاء ويقابل من يشاء؛ وأمام باب القصر الجمهوري يجد اسمه مسجلاً عند المدخل. إلى هنا ونقف، نحن نرجع على أعقابنا، أما هو فيعبر آمناً، لن نعرف من أجل ماذا جاء، ومن سيقابل، وإلى أين؟! الرئيس نفسه، المستشارون، المعاونون، الموظفون، ضباط الحماية... ترى من يوجد غيرهم؟!

****

في ختام الاجتماعات الضاربة أطنابها، جرى الاتفاق بين ضباط المخابرات وأعضاء الإدارة على أن ينقل الأخيرون إلى سعادة السفير رغبة الضباط بالاجتماع به في أقرب وقت، وإنذاره طالما هو مختف بتعطيل أعمال الهيئة على نتيجة لقائهم به. فوعدتهم الإدارة خيراً؛ هذا إذا رأيناه، فهم لم يروه سوى مرة واحدة عند تسلمهم مناصبهم!! بعد فض الاجتماع، انطلقوا على أمل أن يروا السفير الشبح ثانية، لكن دون جدوى، كانوا قد أخذوا حظهم من رؤيته كاملة في تلك المرة. أما الضباط فلم ينتظروا، حاولوا الاتصال به،

وبثوا عيونهم، وقلبوا البلد بحثاً عنه، أيضاً دون جدوى.

ولئن بدت أشبه بلعبة ظهور واختفاء، لكنها لم تكن، السفير صمم تركيبته الشبحية على هذا الأساس من التجلي والغياب، لا ظهور إلّا بسبب أو لسبب، ولا ظهور عشوائياً مهما كان السبب، ومثلما صمم على ألا يراه من يرغب، كذلك ألا يجده من يريد. ومع هذا لن تزيد عن لعبة ستنتهي عاجلاً، لا شيء يستحيل على رجال المخابرات. ما دام الرجل حالياً موجوداً في البلد، فلن تنفعه شبحيته. صمم الضباط على دفعه للتجسد، فقرروا إغلاق مكاتب هيئة التفتيش وإرسال المفتشين إلى بيوتهم ووضعهم تحت الرقابة مع الإقامة الجبرية.

عند ذلك الفاصل الحاسم، ظهر سعادة السفير، كأنه كان واقفاً على الوجه الآخر للجدار يتنصت عليهم. ظهر على الهاتف وأدركهم، وبالتحديد أدرك الشخص الذي يريده وحده. كانوا قد انصرفوا بعد سهرتهم، ولم يبق غير الشخص المطلوب. فطلب منه الاجتماع معهم لفض النزاع، على أن يكون ليلاً في مكان (سأعينه أنا) ومع واحد منكم فقط (لتكن أنت).

وأعقبه الحديث التالي:

ما اسمك؟ الرائد حسيب حسن.

هل لديك مانع في مخاطبتك باسمك؟ لا مانع.

وهل لديك مانع يا حسيب في ألا تخاطبني بأي اسم؟ لا مانع.

حسناً، حسيب، موعدنا غداً في مطعم «الطبيعة الغناء» هل ستأتي؟ نعم سآتي.

وافق الضباط على أن يمثلهم حسيب رغم أنه أصغرهم سناً، ولم يخطر لهم أن السفير كان يريد حسيباً بالذات، لاعتبارات رآها ضرورية لإنجاح اجتماع محكوم عليه بالفشل، لو عقد مع الأعلى رتبة، الأكبر سناً والأكثر تجربة.

****

يمثل حسيب الرعيل الطيب من الشبان المؤمنين بالثورة التي تقاعدت قبل أن يروا النور، ولم يعرفوا أنها أغلقت أبوابها دون أن تعطي مفاتيحها لأحد، وإذا كان ما أنجزته قليلاً، فلا ينبغي الاستهانة بإنجازها الأكبر؛ تركت لحسيب وأمثاله أحلاماً ستراودهم الآمال بتحقيقها، وواقعاً لا يأبه بهم وبها، وأعداء ينبغي محاربتهم، دون أن يقهروا. وريثما يكتشفون خطل أوهامهم، سوف يمرون بخيبات لا بد منها تشحذ رؤيتهم للواقع، هذه إحداها.

ومع أن حسيباً كان أطرى أقرانه عوداً، شاءت له الأقدار أن يعمل في جهازٍ أول ما يتطلبه القسوة، ورمته بين ضباط أشداء يأكلون رأس الحية مع أنهم ليسوا من المغاوير. في الحقيقة، كانت أمه العجوز وراء مشيئة الأقدار، فقد اشتغلت في زمن بعيد مضى في بيت وزير الدفاع، فذهبت إلى الوزير وزوجته ورجتهما تسريح وحيدها المتطوع في الجيش، ابنها ضعيف البنية والتدريبات قاسية جداً في مدرسة المدرعات. ابنها لم يشتكِ، مجرد أنه كان يتندر على العقوبات التي يفرضها المتقدمون على المستجدين في الكلية العسكرية. قلب الأم رقيق لا يحتمل، وعقلها لا يفهم ضرورة التعذيب في الجيش لتعويد الجندي على إطاعة الأوامر دون تردد أو تذمر!! ولقد ساعدتها الظروف، فوزير الدفاع ما يزال يشغل منصبه،

غير أنه لم يتذكرها، زوجته تذكرتها، وتذكرت عدم طلب أم حسيب شيئاً لنفسها ولا لغيرها طوال سنين خدمتها، فنُقل حسيب قبل أن يكمل الدورة إلى مدرسة مرفهة. بعد التخرج، تسلم منصباً في سلك المخابرات.

نسب حسيب حظه إلى تلطف الأقدار به، أمه لم تقل له أنها كانت وراء تلطفٍ لا تبديه الأقدار إلّا تحت ضغوط دموع الأمهات. حسيب لا يرضى أن تُهين أمه كرامتها وتسأل أحداً شيئاً، ولو كان رئيس الجمهورية، يكفي ما بذلته من عناء بعد وفاة أبيه لتوفر له ولأخوته البنات الطعام والكسوة والدراسة. الأقدار المحسنة لم تتخل عن ابنها، لكن مسيرتها الغريبة انعكست تماماً، وانقلبت إلى ما يشين، الجيران يثرثرون، ابنك يا أم حسيب لن يتعذب، هو الذي يُعذب، ونقلوا لها صوراً عن الأهوال التي يفعلها ابنها بالشبان طلبة الجامعة، ابنها لا يجلس وراء المكتب، بل ينزل إلى قبو يحتوي على محابيس وجنازير وكرابيج وآلات حديدية. قبو لا تتسرب من جدرانه الثخينة والكتيمة أصوات صرخاتهم وبكائهم. يا أم حسيب المساجين وأهاليهم يدعون على ابنك بالسرطان والسل.

بالمناسبة، لم تستعمل أم حسيب اسمها الموجود في البطاقة الشخصية منذ زمن طويل، وأحفادها يجهلونه، وأصهارها نسوه، لا يعرفه إلّا بضعة أشخاص لا ينادونها به، وأغلبهم قضوا نحبهم. اسمها فقط أم حسيب، صفة الأم عالقة بها كيفما اتجهت، ولا ترى في نفسها سوى أنها أم، وفي ابنها حسيب مجرد ولد مع أنه تجاوز الثلاثين من عمره، وتنظر إلى الشبان سواء كانوا بشوارب أو بلا شوارب على أنهم أولاد، وبعضهم ما زالوا أطفالاً. إذن لا عجب عندما لم تفهم لماذا ابنها الضابط يعذب أطفال المدارس وأولاد الجامعات!! إذا

كانت أماً، فلهؤلاء أمهات. ومن حالتها تعرف ما يقاسينه من فراق أولادهن، فما البال بحبسهم وتعذيبهم. الله يصبر أمهاتهن.

ذهبت إلى بيت وزير الدفاع، لترجوه نقل ابنها إلى قطعة محاربة، على الأقل إذا ضرب يضرب الأعداء. وللمرة الرابعة أو الخامسة، وربما المائة والألف على التوالي يساعدها القدر، فقد كان يساعدها خفية دون أن تدري (لم يصب حسيب بأي مرض رغم ابتهالات آلاف المساجين وأهاليهم). الوزير ما زال نفسه؛ وزيراً للدفاع، لكن القدر لم يكمل معروفه معها، كان قد مضى خمسة أعوام على زيارتها الأولى (القدر أيضاً ينزعج ويصيبه الملل، كأنه لا عمل له إلّا الاستجابة لطلبات الناس، وبعد حين يسألونه الرجوع عنها!!) قال الحاجب للوزير، أم حسيب على الباب. فتذكرها الوزير وقال لزوجته، شو راح تعملنا شغلتها، لن ترتاح إلّا إذا وضعت ابنها رئيساً للمخابرات العامة. فأرسلت لها زوجته مع الحاجب خمسة آلاف ليرة، رفضت العجوز لمسها بأصابعها. فقالت الزوجة لزوجها، شو بدها أعطيها مليون ليرة حتى ترضى!! من هنا ينشأ سوء التفاهم بين البشر رغم نواياهم الطيبة، هم لم يسمعوا منها، وهي لم تفتح فمها.

حسيب لم يعلم بما فعلته أمه، لكنها طلبت منه الامتناع عن تعذيب الأولاد والكبار. تحير حسيب، من جهة كان ضابطاً ملزماً بتنفيذ الأوامر، ومن جهة أخرى كان باراً بأمه. طيبة أمه أوقعته في أزمة مع الله، لا سيما أنها لم تتهاون معه، بل وهددته بغضبها إذا نزل إلى القبو، ودعت عليه بتكسير يديه إذا ضرب ولداً، وكما نعلم غضب الأم من غضب الرب، والجنة تحت أقدام الأمهات. فحلف لها ألا يمس معتقلاً بسوء، وكانت محلولة: الضرب ليس مهمته وإنما الوعد

والوعيد، أما نزلة القبو فهو ينزل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ربما أشرف أحدهم على الموت، بينما يظنون أنه مغمى عليه؛ وقد أنقذ الكثيرين.

العمل لم يأخذ وقته كله، خاض في العاصمة غمرات حب طويل وعفيف، وفي السنة الماضية تسلم بيته من الجمعية السكنية وعلق رتبة رائد وتزوج الفتاة الجامعية الرائعة التي تمردت على أهلها وأجبرتهم على القبول بحبيبها الضابط الوسيم، رغم ما جابهته من معارضة وتعريض انصب على محاسنه ومساوئه معاً:

ـ لا تغترّي بقامته الممشوقة، أصله ضيعجي، مهما صار وتصور يبقى ضيعجي.

ـ كونه ضابطاً ليس ميزة، العسكر لم يحاربوا، بل خربوا البلد.

ـ إذا كانت طائفته محظوظة، فهي مارقة، يظهرون عكس ما يبطنون. لا يدري أحد بماذا يؤمنون، بالله أم بالنار أم بالنجوم، إن لم يكن بالهواء؟!

عاندتهم جميعاً، قرويته كانت الصدق والوفاء والإخلاص، تطوع في الجيش ليدافع عن الوطن، ما ذنبه إذا كانت الحرب قد توقفت في زمنه؟ وهو مؤمن، أقسم لها بأنه يؤمن بالله عزَّ وجل، لا بغيره. ما يبطنه يظهره، وهي تصدقه. وانتصر الحب.

مواصفاته الشخصية عنت الشيء الكثير بالنسبة لسعادة السفير، ترى لسذاجته؟ لا، بل للتنويع فحسب، لا ينبغي أن يكون ضباط

المخابرات نمطاً واحداً، تمس الحاجة فجأة إلى شاب نظيف الكف وطاهر الجسد، من أين نأتي به في هذا الزمن الرديء؟! (وصْف الزمن بالرداءة، جملة تروق للسفير، يلغو بها بقصد لوم الزمن الحاضر، فهو السبب في تردي أخلاق البشر، وليس السلطة أو الحكومة. وبذلك يجاري في استخدامها مثقفين يتفاصحون بها مستندين إلى معارفهم التاريخية، لكنهم خلافه، يفصلون بين هذا الزمن وبين الأزمنة السعيدة السابقة، كأن الزمن لم يكن رديئاً من قبل، ولن يكون لو استمر على هذا المنوال، أكثر رداءة فيما بعد.) ففي هذا الزمن الرديء، والاستطراد لسعادة السفير، لا نلمس لدى الضباط تشدداً إزاء إغراء المالَ والنساء؛ هذا الشاب لم ينتفع من وظيفته، أو يعرف امرأة قبل زواجه، عدا أنه أهبل، ناصَرَ جادور بدافع الشهامة الرجولية والأخوة العسكرية، خلبت لبه بطولاته الاقتحامية منذ كان طالباً في الكلية الحربية. ما دام بهذه البراءة، سيكون خائفاً، ويصغي جيداً، لا مصلحة شخصية ولا مادية يحافظ عليهما، أو يدافع عنهما، ولن يتعنتر على شاكلة رؤسائه الذين لا يجدي معهم الكلام، ويستصعبون استعمال عقولهم، ولا يعرفون من المناقشات الحصيفة والذكية سوى الزمجرة والجعير. أما حسيب فيمكن التأثير عليه بمخاطبة عواطفه وتشويش عقله، وإذا استجاب إليه سيمنحه فرصة ذهبية، إذا تلقفها لن يذهب ضحية الشهامة والأخوة. كذلك الآخرون، الأمر لا يستحق إرسالهم إلى بيوتهم، ولا إلى السجن، ما دام من الممكن إرضاؤهم جميعاً... والآن إلى الاجتماع.

****

مطعم «الطبيعة الغناء»، اسم على مسمى، ينقل رواده إلى أحضان

الطبيعة الخلابة، فورق الجدران المتوزع على الحيطان الأربعة، يُؤمِّن متعة بصرية طبيعية وإن كانت صناعية، يأخذهم من حائط: غابات كثيفة الأشجار الخضراء، ويصعد بهم إلى حائط: جبال شاهقة قممها تطاول السماء، يليه جدار: يطل على مدينة غطى الثلج سقوف بيوتها القرميدية، ومنه إلى جدار: بحر لا نهاية له يتشمس المستجمون على شاطئه؛ جولة بين الفصول الأربعة في أجمل بقاع العالم، بمصاحبة صوت يشدو وموسيقى تتهادى.

انتهز سعادة السفير الفرصة وتأمل الربوع الساحرة مستعيداً سياحاته، بعض هذه الأماكن زارها بالفعل، قال السفير وعقب، في الواقع كانت أجمل. رمق حسيب باستخفاف جدران الطبيعة المصورة ومعها الرجل الذي تقزمت شبحيته، إلى سفير لجهة شبحية، هيئته لا تعزز اللغط الدائر حوله، حديثه تافه، ما المغزى من قولته هذه؟! لا شيء. لكنه لم يعلق.

ومثلما كانت الطبيعة صامتة، كانا صامتين، داخل مكان بات يعاني من الصمت، المطعم فارغ من الزبائن، الأوركسترا تضم بضعة عازفين واقفين بلا حراك، الندل يتخاطبون بالإشارات ويغيبون بين المطبخ والبار والتواليت.

فجأة قطع السفير الهدوء، بصوته المنخفض؛ استأجرتُ المطعم بالكامل، كي لا يزعجنا متطفل. واقترح برنامجاً لطيفاً لجلستهما، فلم يبد حسيب اعتراضاً، وكان حسبما استعرضه السفير شيقاً جداً:

سنبدأ حديثنا بالقليل من الشعر مع المقبلات والموسيقى الخفيفة، بالمناسبة، القصائد من نظمي. مع العشاء نتناول موضوع جادور، لن

نأكله طبعاً هاهاها (اعتاد السفير الضحك على ما يرميه من نكت، لئلا تفوت محدثه خفة دمه، فيشاركه مرحه) جادور غير قابل للبلع، لا تحاول ستغص به، هاهاها (اضطر حسيب إلى مجاملته بتكشيرة أقرب إلى ابتسامة) نتوقف للاستماع إلى وصلة غنائية لنانسي؛ فتاة دلوعة وصغيرة صوتها لذيذ مثل البقلاوة قولة الشوام هاهاها. بعد العشاء، معدة ممتلئة، ذهن رائق، ومزاج معتدل، فنغوص في عمق المشكلة. هل أتيت معك بمعدات الغطس؟! هاهاها (تضايق حسيب، بات مجبراً على مجاراة هاهاهاته، بابتسامات مزعومة ولو كانت صغيرة) اطمئن، لن نغوص عميقاً. سنأخذ نفساً مع وصلة راقصة لنيران لهلوبة المسارح، ستشعل في داخلك النيران. لا تخف، مطافئ الحريق متوفرة في المطعم. هاهاها. بعدها نباشر البحث عن أسلم الحلول، فترتفع حرارتنا، لا تتهم نيران، هاهاها نيران بريئة. لكنها تستطيع إطفاءها، هاهاها، الأفضل حالياً تنزيلها بالمثلجات. مع الفواكه ننتهي على أحسن ما يرام؛ على التأكيد سنتفق، حتى لو اتفقنا على ألا نتفق، هاهاها».

السفير كان خفيف الظل ومتفائلاً. حسيب كان متوتراً، ولم يكن متفائلاً، هل يعقل وجود سفير في العالم بهذه الغلاظة؟!

حسب البرنامج، عزفت الأوركسترا، بدأا برشف الكامباري وتناول لقيمات من المقبلات الخفيفة. ثم ألقى السفير الشاعر ترافقه الموسيقى، بصوته الشاعري الهامس قصيدة عنوانها «حب جنوني»، امرأة هجرها حبيبها، تكابد الوحشة بين الطيوف والظلال، تستعيد ليلة وصال مع عاشقها امتدت بهما حتى الصباح، تذكره بها وتستحلفه العودة. ألقى السفير نظرة على حسيب، خمن قصيدته الرومانتيكية حازت على إعجابه، وكي لا تفوت الضابط الشاب

بعض الجوانب الجمالية، نبهه:

«قصيدتي تحفل بالطبيعة».

رفع حسيب حاجبيه مستغرباً، تابع السفير:

«أظنك لاحظت أنني عرّجت على الغسق عند الهجران، وعلى القمر في ليالي الغرام، وعبرت عن الوحشة في تساقط أوراق الخريف».

أخذهما الشعر إلى المزيد من المقبلات مع كأسين سنزانو وقصيدة ثانية، تغزل فيها بمتعرية سمراء، يبدو أن لها ساقين جميلتين وفخذين ملفوفين، صعد منهما إلى السرة، ثم نزل إلى القبة المثلثة ولم يتزحزح عنها، وكانت أشبه بتلعة، بتلة، بكثيب، بعرش، ثم تاج على رأس، هامة، جبين العاشق النهم، فتناوله بشفتيه.

شاعر حقير، علق حسيب في دخيلته، بينما كان السفير يترنم بالتاج ويلمعه بلسانه مستدرجاً اللمى... فاجتمع اللميان!! حسيب اكفهرت ملامحه ولم يخف اشمئزازه، لم يستوعب المعنى بالضبط، وإن كانت شكوكه اتجهت كما مرَّ في ذهنه، نحو تفسير قبيح ومقرف، لم يكن هناك غيره. كيف يضع السفير فمه في ذلك المكان، ولو كان تاجاً، وما سيرشفه ماء الحياة؟!

لم يستغرب السفير ردة فعله المتقززة، الأمر مفهوم، نقص في التمدن، عقلية تتباهى بذكوريتها الشرسة، فنبهه إلى المكانة التي يحتلها الشعر الخليع.

«شعر برع فيه القدماء، منذ الجاهلية إلى عصور الانحطاط، الخلاعة لا تدرجها وزارة التربية والتعليم في برامجها التعليمية».

بعد تلميحه إلى ثقافة حسيب المتوقفة عند منهاج المرحلة الثانوية، استأنف السفير كلامه بصيغة الجمع، لئلا يعتبر هذا المتحفز أمامه أنه المقصود وحده بالتخلف:

«تراجع التعليم أحد أسباب تأخرنا الرئيسة».

«أي تعليم؟!».

«للأسف ثقافتنا لا تزيد عن معرفة القراءة والكتابة وبعض المكبوتات والخرافات. منذ مراهقتي، اعتمدتُ على المطالعات الحرة».

ثم أردف بجرأة لكن بتواضع جم:

«الشاعر المحترف يخوض في الموضوعات الحساسة، لا تُثبت شاعريته سوى الممنوعات الرجيمة. أنا لم آتِ بجديد، التاج وما سبقه وخلافه، تفكهات حضارية، تؤخذ على محمل الافتتان الجمالي بالجسد الأنثوي».

حسيب لم يقتنع، في رأسه بقعة كانت مغلقة، هناك علقت تساؤلاته، ما علاقة اللحس بالشِعر، السفير الفاسق لا يخفي شرهه للمناطق المحرمة من جسم المرأة، بمقاربتها نظماً، مسوغاً سفالاته، بحجة قرض الشعر.

مع العشاء والنبيذ الفرنسي الأحمر، تدرجت الأطباق على مراحل.

كان السفير قبل كل مرحلة، يراعي ضيفه بتخييره، شوربة بصل أم شوربة فطر، سلطة ناعمة أم خشنة، ستيك أو فيليه، مع الكاري أو الخردل، كريم كاراميل أو توتي فروتي، ومن الفواكه، انتقى له حبة دراق كبيرة، ريانة وناضجة، قشر طرفها بسهولة قائلاً:

«قحبة، بتشلح لحالها هاهاها».

أما الأغاني، وأشار بيده للمطربة الصغيرة التي اقتربت: ماذا تحب أن تسمع؟ نانسي على ذوقك ستلبي لك أية رغبة، لتكن أغنية عزيزة على قلبك. ونبهه للمرة الثالثة، اسمها ليس نانسي عجرم، نانسي حاف. اعتذر الضابط بأنه لا يسمع الأغاني الشبابية. خسارة، عقب السفير، واقترح شيئاً ما حزيناً، ترك اختياره لنانسي؛ حبيبتي نانسي لا ترفعي صوتك. فابتعدت نانسي وامتشقت الميكروفون وأخذت تتمتم بأغنية حزينة خافتة، فيما تظاهر العازفون بالضرب على آلاتهم.

دهش حسيب من روح التوادد والتعاون الساري بين المطربة والموسيقيين والندل. خمن أنهم معتادون على خطط السفير، وزع عليهم الأدوار، ليؤمن جواً من الانسجام يستعرض فيه شاعريته، هل استأجر السفير الاستوديو بكامله لهذا الغرض؟!

عندئذ التفت السفير نحوه مبتسماً، حان أوان الجدّ!!

****

لن أطيل عليك، قال السفير، كلانا لديه من ينتظره.

هبط السكون على المطعم، نانسي لم تعد تتمتم، العازفون والندل

تسمروا بعيداً في أمكنتهم. فيما ترحرح السفير في كرسيه، وتكلم بهدوء:

أقول لك، وافتح أذنيك، صاحبكم جادور حمار.

بهت حسيب وفتح فمه.

كيف لم تدركوا هذا حتى الآن؟! أتعجب من مناصرتكم له، أنتم أذكى من أن تقعوا في حبائل رجلٍ مأفون. نصيحتي لكم، لا تربطوا مصيركم بمصيره. إصغ جيداً، جادور مجنون وبغل وعديم أخلاق، انتهت صلاحيته. لا تقل لي، يده معطوبة ورجله مفكوحة، اِعلمْ بأنه معوَّقٌ، هنا، في رأسه.

لم يتوقع حسيب هجوماً لاذعاً بهذه القوة والسرعة من سفير سافل غرر به بشعر بذيء، ثم شن حملته على حين غرة، كأن وراءه لواء مشاة معززاً بكتيبة دبابات. تمنى لو يصفعه على وجهه ويقلب الطاولة فوق رأسه، لن يتعجل سيصغي إليه.

كانت تقديرات السفير في محلها. ضابط غيره لا يفكر، وإنما ينتفض واقفاً ويهجم عليه ويخبصه بقدميه قبل أن يتم كلامه. أما هذا فبلع ريقه بصعوبة وتنحنح، وأبدى حركة صغيرة عبرت عن عدم رضاه.

لا تقل لي بأنكم مخابرات تعرفون الشاردة والواردة. لن أحطَّ من قدركم، تعرفون شيئاً وتغيب عنكم أشياء. إياكم والتفكير باستعراض قوتكم؛ ماذا تكون أسلحتكم؟! مسدسات، بنادق، رشاشات، وماذا أيضاً؟ كهرباء، دولاب، بساط الريح، أسيد، ما

اسمها الآلة التي تقتلعون بها الأظافر..ماذا غيره؟ ماذا تشكل إزاء قصف مدفعي وصاروخي؟!

لم يخف عليه أن السفير يتكلم من مركز قوة، فأجابه بحركة أخرى نَمَّتْ عن نفاد صبره، جعلت السفير يدرك أن حسيباً لن يفتح فمه قبل أن يسمع حديثه بكامله.

ضعوها حلقة في آذانكم، المرفأ بالنسبة للبلد، بوابته وأمنه وأمانه، ترسو بواخر ضخمة، صاحبكم الحيوان جادور يجهل ما تحمله ولا يعرف ما تحتويه الحاويات والصناديق، بضائع أم أسلحة؟! تُرى أسلحة... فقط؟! تخيل جيشاً من المرتزقة بكامل عتادهم الخفيف والثقيل، وبالتعبير العسكري عملية إنزال. صاحبكم الحمار، يظن الحمولة كرتونات دخان، أكياس مخدرات، رقيق أبيض وأصفر، تدخل البلد وتعبره، ترانزيت!!

أحس بالعرق البارد يخرج من مسامات رقبته ويندلق على ظهره. لا لم يخطر لأحد أن يكون التهريب على هذا المستوى. يستحيل أن يكون جهاز الأمن الغافل شارك جادور المغفل في فتح أبواب الميناء على جيش من المرتزقة!

ما يحدث يتجاوزكم ويتجاوزه. لا تتورطوا بحمايته، انصحوه ألا يعاند. نستطيع أن نفعسه بأقدامنا كالصرصور تماماً. نفهم مؤازرتكم له؛ إلى هنا وكفي. ولكي تدركوا حجم مشكلته، الإدارة والهيئة شكلتا خصيصاً له، عندما نتخلص منه، أو نجد حلاً لقضيته، فسوف ينفرطان تلقائياً. اعرض عليَّ أي حل، لكن لا تفكر بالمرفأ، المرفأ أمره محسوم، المرفأ عائد إلى القصر.

أحس بضيق، تلفت حواليه، وقبل أن ينبس بكلمة..

اهدأ، لا حركات طائشة، عملنا حساباً لكل واحد منكم.

كان محاصراً، العازفون والندل يراقبونه، وربما يتأهبون للانقضاض عليه. لا، لم تصل الأمور إلى هذا السوء. نبس بصوت كان على المستوى نفسه من الانخفاض:

نحن رجال الرئيس، أعترف بأننا بالغنا في الدفاع عن جادور، وقصَّرنا في تفهم قصة المرفأ. لا حل لدينا، نقبل بالحل الذي تقترحه الرئاسة. لن نعترض على الإطلاق.

لم يحس بالارتياح إلّا عندما أعطى السفير إشارة إلى الفرقة، فتعالت الموسيقى صاخبة مع غناء نانسي، واندفعت من خلف الستارة الراقصة نيران تشعل النيران تحت الأضواء، لترتمي بعد دورتين على كتف سعادة السفير، فباسها بوستين، واحدة من خدها، والثانية من جبينها، وكان في منتهى الكرم وهو يدير لها وجهها صوب حسيب، ويغمزه، مرسلاً النيران إلى أحضانه.

لم يثر جسدها إحساساته الخامدة، لا حينما كانت بمرمى بصره، ولا عندما أصبح رأسها على كتفه، تتقصع على صدره، وحتى في لحظات احتكاك ثدييها العارمين بوجهه، غاص بنظره عميقاً في النفق المظلم بينهما، لم يفكر بشيء سوى أنه عالق في مصيدة وضائع تماماً، يدرك رغم أنه يمثل جهازاً جباراً، لكن هشاً، لا يتوخى الحقيقة ولا يدافع عما هو حق، ويذود عن مرتش وليس عن بطل، وهذا الذي أمامه ليس أفضل منه.

صحا على اصطدام عينيه بوجهها الشهواني. ليس ثمة دعوة أبلغ من عينيها، لا، لن يشتهي امرأة، طالما هذا الخليط المرعب من الشعر البذيء والإنزال العسكري والميوعة والعتاد الثقيل، وكمين كاد أن يكون قاتلاً، عالق في رأسه.

ختاماً، جاء الحل مع أنغام الموسيقى الخفيفة.

ثمة تسوية سترضيكم وترضيه، لن نحاسبكم على تهوركم وعدم انضباطكم، سنغفر للرفيق جادور حماقته، ونقدر بسالته وجهوده، ونحافظ على سمعته؛ لن نعرضه للتفتيش، بل سنكافئه، سيُنقل من الميناء إلى محافظة بعيدة عن البحر، وكإجراء تأديبي، اخترنا محافظة قريبة، تحت أنظارنا، لتسهل مراقبته، نرجو ألا يفعل ما ينافي القانون.

موافقون، عقب حسيب بامتنان ساخر.

****

عندما نقل وقائع جلسته للرفاق، كانت جملة واحدة كافية لتزيل أي اعتراض: المرفأ أمره محسوم، وأمنه عائد إلى القصر.

بالنسبة لحسيب، لم يعد سعادة السفير مجرد شبح بعد أن خاض معه جولة كانت خاسرة؛ ولقد فكر طويلاً، وخامره الظن بأنه كان أسير لعبة جهنمية، ومع هذا لم يبح بها لأحد. الأمر الجيد، أن السفير تماثل أمامه بقيافته الكاملة مع خبثه وسماجته؛ وأمر آخر على الهامش، لا شيء يخفى على المخابرات، سيتتبع أخباره ويعرف بأن سعادته شريك في تجارات واستثمارات أحدها «مطعم الطبيعة الغناء»، أسوة بغيره من المسؤولين الذين يستغلون طمع التجار

بالاستثناءات والتجاوزات، فيشاركونهم مشاريعهم، لا يطول الوقت إلّا ويبتلع المسؤول المشروع برمته، ويخرج شريكه التاجر خالي الوفاض.

أما سعادة السفير، فسيختفي، ويرتد شبحاً، بانتظار مهمة دقيقة أخرى.

المحافظ الجديد

بعد أسبوع واحد تسلم جادور المحافظة الموعودة. عند المدخل، كاد المحافظ الجديد أن يرتد على قفاه. لطشته كآبة المدخل الكالح، وفي الداخل عاجله الغم؛ مظاهر الخمول مخيمة على البناء الباهت المؤلف من عدة طوابق كاحتة تتلوى فيها دهاليز وممرات، يصل بينها مصعد ذو مرايا لامعة وأدراج معتمة، على أطرافها مكاتب لا حصر لها، أثاثها قديم، جدران تقشر دهانها، وحُجّاب لا عمل لهم سوى التصمغ فوق الكراسي والتمطي حتى نهاية الدوام. بعد ساعتين، عند الضحى، تجوّل بين الموظفين والموظفات، فاجأهم منكبين كالعناكب فوق طاولاتهم، وقطع عليهم إفطارهم الصباحي، فول مدمس وبصل وفجل وخبز تنوري، والإبريق يغلي فوق السخانة الكهربائية؛ وعلى الرف العلوي لخزانة الأضابير علب البن والشاي والسكر، وعلى الرف السفلي قطرميزات والزيتون والمكدوس والجبنة.

لم يتخيل أن يكون للموظفين شكل الحشرات النهمة، أخذ نفساً، تحلل في فمه إلى عفونة، وزفره من خياشيمه، تخمرات صدأ وغبار. تفاقم غمه إلى قنوط، ودَّ لو يعود من حيث أتى، أين هذا البناء من منظر الموج الصاخب وزمجرة الروافع ونداءات الحمالين الخشنة ونفير البواخر الضخمة؛ وهؤلاء الذين يمضغون على مهل ويتجشأون بين جدران كئيبة، من ذلك الغروب الهائل الجميل الممزوج بعري السابحات المتعبات ورائحة العرق والسمك المتبل بالثوم والبهارات الحريفة؟! على التو، دونما فاصل، اختفت النوافذ الضيقة والستائر البشعة، واشتعل غروب برتقالي احتل مساحة الرؤية، تمدد متراخياً على أفق بطول البحر وعرضه، وفوق أديم الماء سرحت الزوارق الصغيرة ومراكب الصيادين عائدة إلى الشاطئ، ثم انطفأ. أحس بدوخة، رأسه يدور مع شفرات المروحة، أنفاسه تضيق، أخرج منديله ومسح سيلاً من العرق تصبب منه بغزارة خلال ثوان.

لم يكمل يومه الأول، انطلق إلى رفاقه رجال السلك واستغاث بهم، لن يداوم في المحافظة مهما حدث، لا دولة ولا حكومة تجبرانه على البقاء، وإلّا أصيب بالجنون، سيعود إلى المرفأ ولو احتله بالقوة، لا يلزمه أكثر من سرية جنود ودبابتين. إن لم يأخذ المرفأ سلماً، سيستولي عليه حرباً؛ نقله كان مكيدة، القرار صادر عن رئيس الوزراء، وليس القصر الجمهوري. نصحه الرفاق بالتريث.

في رئاسة مجلس الوزراء، لم يجد رئيس الوزراء الموقر، كان في جولة استطلاعية على سدود القطر. ترك جادور لدى مدير مكتبه ورقة كتب عليها، العودة إلى المرفأ أو الاستقالة، ومعها عنوان ضيعته.

في الضيعة، حدث ما يحدث في مثل هذه الأحوال والظروف، لا سيما أن أحداً لم يتصل به، استعاد طفولة بدت جميلة، ومراهقة لم تكن عذبة، وعاف الزوار، قال للأهل والأقرباء ممهداً لإقامته الدائمة، سأبقى في الضيعة، لم يعد لي شغل خارجها، أنا فلاح ابن فلاح لا عمل لي غير الأرض والزراعة. وقبل أن يؤدي به الهدوء القاتل إلى الملل القتال، وصل صديقه مبعوثاً من رفاق السلك، من فرط سعادته برؤيته، كاد أن يهجم عليه ويعانقه ويقبله، لكن كبرياءه منعته من إظهار فرحته. لـمَّح عاتباً: كنتُ في محنتي وحيداً.

لم يرض الصديق أن يشرب فنجان شاي ولا رشفة قهوة؛ ما الذي تفعله هنا؟! أوَ تريد أن تقبر نفسك حياً في حظيرة؟ وأشار بتقزز إلى البقر والدجاج، وكانوا على بعد أكثر من مائة متر، وكانت كافية ليشم جادور روائح البهائم والروث والوخم واخزة، ويحس بالصدمة، مع أنه في الأمسيات المقمرة السالفة، حلا له الاضطجاع على العشب الرطب وأسند رأسه إلى الأحجار وتشمم رائحة التراب، وأحس باكتمال شيء غامض في داخله، أضاء الظلام في قلبه، وشعر بروح قديمة ترفرف في صدره، تلامحت الحياة معافاة وواعدة، ارتدّت به إلى زمن بعيد، يا لجماله!! لم تزل الأشياء في أمكنتها، كما ألفها تماماً، متخمة برحيق الليل والنهيق، النباتات والحصى، البقر والطين، القمح وأشجار الزيتون، وطيبة بشر يصفو العمر معهم. هذه اللمحة لم تصمد عندما أتبع الصديق إشارته بملاحظة ذهبية:

«هل تعرف بأن المحافظ السابق، كان جالساً فوق بئر بترول؟».

«ماذا تقول؟».

«بئر لا تنضب».

الملاحظة لا علاقة لها بالذهب الأسود، وإنما بالذهب فقط، وكانت كافية ليلملم أغراضه ويعود إلى العاصمة.

****

في المحافظة، رأى على أرض الواقع والخرائط الفرص الذهبية المفتوحة أمامه، ضواحٍ على الطرز الحديثة متشعبة وممتدة الأطراف، مزارع للأثرياء على مد العين والنظر تحتوي على كل ما تشتهيه العين والنظر. مصايف هواؤها عليل وماؤها سلسبيل، حركة العمران فيها على قدم وساق، تحفل بالمقاصف والفنادق الفخمة، وفيلات أشبه بالقصور باتت مأوى للأغنياء، وأراض حكر على المضاربات، موقعها المتميز مرغوب من الأمراء العرب، مساحتها تُحسب بالمتر، وأسعارها بالسنتيمتر.

أعاد تقييم ما رآه على ضوء تجربته السابقة. لا فارق بينهما!! سوى أن البحر والبواخر غائبة عن صورة بغنى عنهما، صورة متخمة بمصالح البشر ومعاملاتهم المعطلة على توقيعه. كانت طلبات التراخيص متراكمة والمخالفات تتزايد، إذا تهاون، فسيحل أصحابها أمورهم بأيديهم، وتضيع عليه أموال، سيتنكب وحده لوعة خسارتها، وإذا لم يتهاون، ستبدأ عندئذ مهام عمله وعائدات وظيفته.

أخباره التي سبقته مهدت له الطريق، لم يجد عناء في الدعاية لبرامجه في إنعاش الحركة العمرانية والسياحية والترفيهية، وابتكارات لتشجيع الاصطياف وتنشيط الاستهلاك بشق الطرق وإقامة أسواق بيع وملاعب للأطفال ومعارض ورخصات وتنزيلات. تدفقت عليه الفرص، أو أن الفرص كانت تنتظره فلم يدع فرصة صغيرة أو كبيرة. خطواته التالية، ملاحقة المخالفات قبل استفحالها بشتى

صورها في محافظته والمناطق التابعة لها، فسيَّر دوريات تفتيش ومراقبة من الموظفين تمارس عملها ليلاً ونهاراً دون استثناء العطل الأسبوعية والرسمية والأعياد الوطنية والقومية، لم يفلت أحد، لا شيء بلا ثمن أو بالمجان، لم يتسامح مع أدنى التجاوزات، لكل شيء مهما دق شأنه تسعيرة، تأخذ بعين الاعتبار حجم المخالفة ومقدار الفائدة العائدة على المخالف، تخضع أحياناً للمساومة والوساطات، وإذا حاول أصحابها التهرب، أو التشاطر بالدفع أقل، أو تمرير مخالفاتهم عن طريق موظف صغير في البلدية، فيا ويلهم، وويل الموظف!! سرعان ما تنطلق شرطة المحافظة في أثر المخالف، تعتقله وتعتقل المرتشين معه، ويجري تأديبهم بتوقيفهم في سجن المحافظة، والتهديد بإحالتهم إلى القضاء، أو دفع المستحق عليهم مع الغرامة المتوجبة وفوائد التأخير. ومع هذا كان يتساهل في الدفع، فإضافة إلى الدفع نقداً، فتح قيوداً للدفع بالتقسيط، وعلى آجال، وبلغ به التساهل، عند عدم توفر المال، التسديد أجهزة ومعدات من المنقولات الجديدة غير المستعملة، فكان المدين يفي ديونه من بيته سجاداً، أو مما يبيعه في محله: قماش، كومبيوتر، جلاية، براد...إلخ. وترك الاختيار مفتوحاً لذوي الحاجات لاختيار الطريقة الملائمة لهم.

اضطرته أعماله التي توسعت والأموال المتدفقة عبر قنوات متعددة إلى إنشاء جهاز محاسبة إضافي، ففتح قوائم حسابات خاصة باسمه، منفصلة عن حساب المحافظة، لئلا يتداخل الحسابان ويختلط الرصيدان، فتقرط المحافظة من حصته، أو يقرط سهواً من حصتها، وحسناً فعل، زاد رصيده على رصيد خزينة المحافظة. كانت مدخولاته دخولاً صافية دون تكاليف، التكاليف تدفعها الخزينة.

ودفعه غلاء الأراضي المتسارع والمتتالي في منطقته إلى ابتكار

أساليب للمشاركة بنصيب في ارتفاع أسعارها، فاستأجر من أحد الزملاء الأعزاء، كتيبتين واحدة دبابات والثانية مشاة، كانتا تتمركزان في أراض تتصاعد أسعارها دونما جهد يبذله أصحابها القاعدون على مؤخراتهم لا يفعلون شيئاً، بينما أسعارها تتضاعف كل موسم اصطياف. وبمجرد ظهور الدبابات والجنود، تتدهور أسعارها إلى الربع أو لا شيء، وتصير أرضاً بوراً غير قابلة للبيع أو البناء أو الزراعة. عندئذ تبدأ المساومات، قد يشتري الأرض برخص التراب، أو يقاسم أصحابها عليها، أو يدفع خمسين بالمائة من قيمتها المتدنية، مقابل إخراج الجيش منها. فيخرج الجيش من هذه الأرض، ويتحرك إلى تلك الأرض، وهكذا دواليك.

أما لماذا أصبح المحافظ العتيد بخيلاً جداً بعد أن كان سخياً جداً، فلم يكن سراً. عندما أعفي من إدارة المرفأ، خرج خالي الوفاض، يد من ورا ويد من قدام؛ دونما خميرة، لم يخبئ في أيام اليسر ما يقيه من أيام العسر، كل ما شفطه أضاعه على الفخفخة والعربدة. وكانت الأيام القليلة التي أمضاها عاطلاً بلا عمل ولا مال، معارفه ينفضّون عنه ولا يأبهون لحاله، بعد تهافتهم عليه، حتى كاد أن يعود فلاحاً يستدين البذار من الجمعية الفلاحية، درساً علمه معنى أن يكون منبوذاً بلا حول ولا قوة. أما اليوم، فلا تبذير، حتى رفاق السلك الأعزاء لم تعد تجمعه معهم سوى المصلحة، وبمقدار دوامها ومردودها. وقد استعاد، حينما عاد إلى الصفر، نشأته الفقيرة التي علمته قيمة الفرنك السوري، أيام كان له قيمة، فما بالنا بالليرة والمائة والألف... والملايين؟! عدا أنه كبر على السكر والسهر والنسوان والتعريص اليومي، لم يهملها، باتت خاضعة للانتقائية الشديدة. ورفاقه كذلك، كبروا مثله، وبات تعامله معهم حسب الأصول واحدة بواحدة. أما عندما تقع الواقعة، فيدٌ واحدة.

ذهبت عهود الإسراف الطائش إلى غير ما رجعة، وحل أوان التفكير بالأمان، هذا ما راود الآخرين أيضاً، وأصابت عدواه الجميع. ماذا سنترك لأولادنا النجباء كارهي العلم والفهم والأساتذة والقراءة والدراسة والكتب؟ لم يجتز فلذات أكبادنا المرحلة الثانوية وينتقلوا إلى الجامعة، إلّا بعد أن حصلنا لهم على أسئلة فحص البكالوريا، وأستاذ لكل مادة ليجيب عنها بخط واضح ليتمكنوا من قراءتها، وأوعزنا للأساتذة المراقبين سواء بالرواق أو بالصرماية، غض النظر عنهم في قاعة الامتحان، والسماح لهم بإخراج أوراق الأجوبة من جيوبهم ونقلها حرفاً حرفاً إلى ورقة الامتحان. ماذا لو جاء وقت، تغيرت فيه الأحوال، ألن يتبرع الآلاف لكشف أمرهم، ويتطوع عشرات الآلاف لرميهم إلى الشارع؟ من سيعترف بشهاداتهم وكفاءاتهم، ويجنبهم المقدور بعد حصانة عهود أخذوا فيها مجدهم بالزعرنة والبنات والسيارات؛ إن لم يعيشوا على الحصيرة فعلى الحديدة. العقل الرشيد يعمل حساباً لمستقبل لا محالة آت، ما الضمانة في بلد، العيون الضيقة مفتوحة علينا وتتربص بنا؟ مخاوفه كانت في محلها؛ ففتح جادور حساباً مصرفياً في بلد أجنبي، يقي الأولاد من مصير بلد قد يصبح في يوم قريب على كف عفريت، من يدري ما يحدث؟ من لا يحسب لا يسلم.

هذه بعض المقدمات والمؤخرات التي دفعت جادور إلى التوجه نحو التخزين ليوم أسود حين لن ينفعه سوى قرشه الأبيض. منذ ذاك الوقت لم يستفد منه أحد من أهله وأقربائه، ما الذي سيخسره؟ العتب والنكد والدس واللس. ضنَّ عليهم حتى بالفتات، باتت الفتات محسوبة ومحسوسة، حرام هدرها، خاصة عندما تقدر بالألوف، وما جعله حريصاً على عدم إظهار ملايينه، خشيته من الحُسّاد والفُسّاد، فتكدست في قبو فيلته، بانتظار الترحيل إلى

حساباته السرية في البنوك الأمينة في البلاد الآمنة. فيما احتوت مستودعاته الكائنة في مزرعته على الذهبيات والعينيات من البضائع، والدفعات غير النقدية من برادات وغسالات وجلايات وبوتوغازات وكونديشنات ومفروشات وسجاجيد ولوحات فنية وأثريات وتحف شرقية وغربية... إلخ.

أصبح لجادور مزاج يهوى العزلة والتأمل، يقضي في قبو بيته ساعات طويلة بصحبة أمواله النقدية السائلة، يشهد دخولها بالأكياس، ومن ثم تفريغها وفرزها إلى أكوام، كل كوم يحتوي على عملة من جنسية مختلفة. ساعة التجلي الأثيرة، تحل بعد انتهاء حفلة الفرز والتكويم، حينما يرنو إلى أكداس أوراق الخمسينات والمئات وأمّات الخمسمائة والألف. يليها، المنظر الرهيب، رزم العملات الصعبة، لا سيما الفرنكات السويسرية، الأكثر مدعاة للاطمئنان حتى من الدولارات القوية. يليها المنظر الذروة، الهرم المهيب للسبائك الذهبية المتراصة إلى بعضها، والمصفوفة فوق بعضها، أشبه بخزائن البنوك الأوروبية. أما المنظر الخلاب، فهو المجوهرات من الذهب والماس واللؤلؤ وربما الزمرد والمرجان والياقوت أيضاً، كان بريقها يرفع ضغطه ويسرع ضربات قلبه.

في مستودعات المزرعة، القابعة تحت الأرض، والهواء النقي يصب من النوافذ العليا المفتوحة على جذوع الأشجار الوارفة وعواء كلاب الحراسة وخرير الماء ورائحة الشواء، كان جادور يمارس ما أصبح هوايته المفضلة، المتعة التنظيمية، يجرب فيها قواه العضلية، فيعتني بترتيب ممتلكاته المنقولة الثمينة والضخمة، متضمنة عمليتي التصنيف والتنسيق: التصنيف، حسب الأحجام والأنواع؛ في المقدمة الأشياء التي ينبغي بيعها بأقرب فرصة، تأتي بعدها الأبعد فرصة، ثم الأنواع

المهددة أسعارها بالتدهور، والمعرضة لرياح تقلبات الموضة وحمّى التجديد، فيبيعها من خلال عملاء موثوقين. أما الأخرى فريثما يحل دورها. والأخرى البعيدة جداً، يحتفظ بها، كان مرور الزمن لا يطالها بتنزيل، بل يُعَتِّقُها، ويرفع أسعارها.

في المستودع الخلفي من المزرعة، وهو يعيد ترتيب مقتنياته، كما اعتاد دون أن يعاونه أحد، انهمك بإزاحة برَّاد أميركي جنرال إلكتريك ٢٤ قدم، ليُرحِّله صباحاً. أخذ بإبعاد البراد الملتصق بالحائط قليلاً، ليفسح المجال لنقل بعض الأجهزة المكومة مخلياً الطريق أمامه. بعد جهد جهيد، نجح في زحله، ثم دفعه من أسفله بقوة، فمال البراد الضخم عليه، لم يتمكن من التحكم به، فزلقت قدماه وانفسختا، وفيما كان يزحط منسطحاً على قفاه، اصطدم رأسه بالحائط وأغمي عليه، بينما هبط البراد وئيداً وبتؤدة على عظام صدره وبطنه وركبتيه. صحا بعد وقت، لم يستطع الحراك، البراد أطبق على أنفاسه، وهو محشور بين الحائط والأجهزة المتكومة من حوله. أحس بالألم فصرخ، صرخته لم تصل إلى أذنيه، سمع صوت تنفسه يتصاعد بصعوبة شديدة، تخيل أن روحه تتصاعد، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

حذره لم يكن في محله. أنفاسه طال ترددادها بعسر، لا هو حي ولا روحه تطلع، ربما كانت روحه تخرج من فمه أشلاء على دفعات، يأخذ النَّفَس بصعوبة ويخرجه بصعوبة أكبر. ميتة سخيفة، أن يذهب ضحية برَّاد ولو كان متين الصنع. طارده الموت مراراً ونجا منه، وشارك في حربين، لم يخضهما دفاعاً عن الجبهة، كان في المواقع الخلفية المحصنة، مُستهدفاً من أسلحة العدو الإسرائيلي، أخطأته الصواريخ المتطورة بعيدة المدى الأميركية الصنع، ولم ينج

من البرّاد الضخم الأميركي الصنع.

كان قد أخذ البراد منذ سنوات عوضاً عن خمسة وعشرين ألف ليرة، لقاء السماح لصاحبه بحفر بئر في مزرعة تابعة لمنطقة حُظّر فيها الحفر لندرة المياه، قال بأنه دفع ثمنه ثلاثين ألفاً. لم يكذب عليه، كان البراد جديداً لم يستعمل. وضعه على قائمة البيع، وكلما أراد التخلص منه، يشير عليه عميله في السوق، انتظر قليلاً، سعره في صعود. الشهر الماضي أبلغه بتجاوز ثمنه مائة ألف ليرة؛ والبارحة، أعلمه بأن سعره سيهبط ويوالي هبوطه حتى يرتد إلى مركزه قبل سنتين، آنئذ لن يزيد عن خمسة وخمسين ألفاً، المستحسن بيعه دون تأخير، وأكد محدداً: فوراً. أدركته غصة، سينتقل إلى العالم الآخر قبل نقل البراد وبيعه بسعر جيد، وتضيع سنوات تخزين عديدة.

موته تأخر، الدفعة الأخيرة من روحه لم تصعد، فتمنى أن يأتي أحد أولاده ليطمئن عليه، لينبهه إلى المسارعة بتسليم البراد الأميركي اللعين الرابض فوقه، كيلا يتأخر عن تسليمه غداً. أثناءها، وريثما يأتي أحدهم، مرَّ شريط حياته على جدار البراد، حاول أن يتبين نفسه فيه، فلم يعثر على أثر له في شريط طويل لم يغفل مراحل حياته الثلاث، لا لم يكن موجوداً!! شبه له أنه التقى بنفسه في إهاب ولد أرعن، وعاشق غض، يقرأ شعر قيس والمجنون ويبكي من الحب، يتطلع إلى قمم الأشجار الخضراء والمنحدرات الصخرية والشفق الأحمر والنجوم المتلألئة في السواد، يبحث عن وجه فتاة أحبها تزوجت مساعداً في الجيش، ربما خيبته الغرامية دفعته إلى الالتحاق بالكلية العسكرية! ثم لمح صبياً يركب حماراً ويمضي إلى الحصاد، لا بد أنه هو، يلتقي معن وأسامة وحسين، يختبئ معهم

ليدخنوا سيجارة، ويسولفون عن البنات. لا، هذا الولد لم يكنه، ولم يعرفه، ربما وقع عليه بصره في إحدى زياراته إلى الضيعة. ما الذي حل به؟ ترى أين هو الآن؟! يا إلهي لماذا أفقد نفسي، وأنا أحوج ما أكون إليها الآن؟!

سمع وقع أقدام، أحدهم أتى، إنه محروس، ما الهاتف الذي ناداه حتى جاء لابساً بذلته البيضاء؟! لم يكن ما سمعه وقع أقدام، بل طقطقة عظام صدره، وما رآه لم يكن ابنه محروس وإنما عزرائيل لابساً الأبيض، الالتباس الحاصل كان من جراء لون البراد الأبيض. ألصق عزرائيل فمه بأذنه وأحاطه بذراعيه، وأخذ يسحبه، يحاول أن يرفعه من تحت البراد، ثم غير رأيه وامتطى البراد وأخذ يضغط عليه بثقله، ثم ارتفع عنه وعاود بعد قليل، فجحظت عيناه مستغرباً، روحه تزهق رغماً عنه وبالتقسيط غير المريح، تصاعدت غمغماته من فمه حشرجة، أنا أموت!! أخذ يضرب رأسه بالأرض بقوة ليبتعد عنه دون جدوى، كان في طريقه إلى الظلام، نسمة رطبة تلامسه، فودع الحياة والنور، وأحس بالدفعة الأخيرة من روحه على وشك أن تفيض.

بقي جسده إلى اليوم التالي، على حاله مفعوصاً بالبراد. تفقد الأولاد أباهم في الأماكن التي يغشاها، بلا فائدة. اكتشفوا مكانه عندما طلب العميل البراد، كان سعره في السوق يسجل خسارة كل يوم لا تقل عن ألف ليرة. قبل أن يزيحوا البراد عنه، رثاه ابنه محروس في سره: أبي، تلهث وراء القروش وجعبتك تتفزر بالملايين؟! كان المنظر القاسي مزرياً، من أجل فرق في السعر تافه هدر أبوه كرامته، وربما فقد حياته. وسيدرك الابن مدى عمق الهوة بينهما، ما لا يزيد عن قروش في عرفه كان في عرف أبيه مبلغاً عظيماً، لا يستهان به.

نُقل جادور الأب إلى المستشفى. المفاجأة: لم يمت، كان ضائعاً في غيبوبة. قال الأطباء، ربما لن يعود منها، لكنه سيصحو بعد أشهر. لن يعود كما كان، جادور القديم مات فعلاً. جادور الجديد، ساهم ومهموم بأشياء كثيرة لا يتذكرها ولا يعرف لماذا؟! وطرأت على هيئته متغيرات، أحدها أنه أصبح أصلع الرأس بالكامل. كذلك انفتل عقله، زهد بالمال والتهبت عواطفه، فاستعاد شهيته للعشق والهيام وأعمال الغرام.

جلاء الحقيقة

لم يعتقد أحمد أن القاضي سيبر بوعده، فلم يصدق خروجه بريئاً، مع أنه كان في تلك اللحظات المبهرة يجر قدميه خارجاً من القصر العدلي، يتمشى بين الناس كالمسطول وهم يتدافعونه. تصفح الأرصفة والدكاكين في شارع النصر ومدخل سوق الحميدية. خال أنهم يتواردون من ذاكرته، لا من هذا الفضاء المختنق بالبشر. زحام شديد وضجيج هائل، عسر في حركة المرور، صراخ وأبواق سيارات، شمس ساطعة، شرطي يلوح بيده، قرويون يتأملون واجهات المحلات، نساء سافرات ومحجبات، عرضحالجية، أطفال يبيعون بطاريات، الدنيا تغيرت!! لا، كان العالم كما تركه قبل أيام، لم يطرأ عليه أي تعديل. وأخيراً، ما أحلى الرجوع إلى البيت!!

في آخر الليل، مع الشاي والموسيقى الكلاسيكية، كان رضاه بالغاً ومشاعره استعادت رهافتها. عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي، ولا

محل للشكوى من شيء، وما جرى حدث في زمن بعيد جداً. الهدوء يرنق من حوله، الأمور لم تكن تستحق كل تلك المخاوف، بدت الحياة من فرط بساطتها تسير على أكثر من طبيعتها، وكأن شيئاً لم يحدث. من المستحيل أنه كان صباحاً موقوفاً في سجن قضى فيه بضعة أيام، أو تعرض إلى تهمة باطلة وتحقيقات مطولة، وعلى وشك أن يعلق في قبضة قاض جائر، بل وكاد أن يكون إحدى قضاياه المميتة. مجرد كابوس!!

كاد في سهومه أن يستسلم للتفسير الكابوسي، لولا أن الكابوس نفسه تكرر في رأسه بوقائعه الرهيبة من لحظة القبض عليه إلى لحظة الإفراج عنه. كان حقيقياً، وكاد وهو يسترجعه أن يطلب النجدة؛ عاناه من جديد مع ما خالطه من مواقف لا معقولة تصاعدت بقوة، إلى أن أحبطت بإنقاذه، بعملية كانت أشبه بمعجزة.

استعاد كل ما رغب في نسيانه، وكل ما أراد أن يبدو وكأنه لم يكن، ومعه تواردت الأسئلة: لماذا حاولت دنيا الانتقام مني بهذا الأسلوب؟ هل هو انتقام نظيف فعلاً، أم أكذوبة انتقام؟ من هي الجهة التي كانت وراء العملية؟ ومن هي الجهة التي حاولت تحذيري بواسطة امرأة في مسرح القباني؟ هل كانت العملية برمتها تمثيلية طويلة، أم أنها أحداث حقيقية شابتها تمثيليات صغيرة؟ هل لحبيبته الممثلة المخضرمة أخت ممثلة ناشئة تدعى دينا؟ ثم المحقق، هل علاقته بالقضية بحكم المنصب أم كان متعاوناً مع إحدى الجهتين؟!

إلى هنا وكبح رياضته الفكرية، مهما كان نهماً إلى الحقيقة لا يجوز اتهام المحقق، هناك أكثر من حلقة مفقودة، وتساؤلاته لم تزح اللثام عن واحدة منها. كيفما أدار قصته تقوده إلى فصول تتتابع، لتدرج

في غموض، يتقدم خطوة، ويتوه خطوات في مأزق سافل أثار رعبه، والآن يثير حنقه، كان في داخله بطل لا يسترعي الانتباه لسلبيته المرضية؛ في حين تسترعي دنيا الاهتمام بإيجابيتها المعافاة، وقوة تعبيرها في دور مصطنع ومتميز كان قمة في دراميته. ما الذي جعلها شديدة الإقناع؟! بضعة أفراد من الشرطة، قاضي تحقيق، قضبان، أقفال؛ زد عليها، أدلة إثبات، فتاة صغيرة بدينة، واغتصاباً وهمياً، وحملاً كاذباً!! لكنها كانت ملفقة كلها.

هذه الخواطر لم تفارقه عدة أيام، ينبغي عليه معرفة حقيقة ما جرى، لن يكلفه أكثر من مبادرة لطيفة نحو دنيا، يتظاهر فيها بالتغاضي عما حدث، يُرفقها بمجاملة طيبة، يطمئن فيها إلى أحوالها وأحوال أختها... إن كان لها أخت. ما الضرر من عتاب رقيق؟ وقد يعتذر لها، ويلومها قليلاً على شكوكها به. ستطمئن إليه، إذا أحست أنه لا يحمل نحوها أية ضغينة على ما حل به بسببها، وبأنه يريد طي، كما سوف يقول لها، صفحة سيئة من علاقتهما.

بعد أن يكشف كذبها ويحصل على بغيته منها، يُعْلِمُها بأنه يعرف بأن قصة غرامها به مفتعلة، ويحذرها من محاولة استثمارها ثانية. لن يكون خشناً معها، سيقول لها: لقد انتقمتِ مني بما فيه الكفاية، سامحيني، وأنا سأسامحك. وهكذا، مرة أخرى، يذهب كل منهما في طريقه غير آسف على ما مضى.

ما الخطأ في معرفة الحقيقة؟! قد يحصل على شيء ما ينير له هذا الظلام الدامس.

****

من فتح له الباب؟ الطفلة دينا!!

كانت طفلة فعلاً، وضخمة على نحو أضخم مما كانته قبل أسبوع. دينا لم تعرفه، بصرها لم يقع عليه إلّا مرة واحدة، كان وجهه المذعور يومئذ، مختلفاً عن وجهه غير المذعور الآن. سدت دينا فرجة الباب وسألته عما يريده. قال لها بأنه مصمم إعلانات، هل دنيا موجودة؟! نعم. هل هي أختك؟ نعم. إذاً...هي أختها.

قال لها، أريد رؤيتها لبضع دقائق لا أكثر. قالت له انتظر. شاورت حالها وأدخلته. كان يعرف بأن دنيا تستيقظ في الساعة الثانية عشرة ظهراً، فجاء في الوقت المناسب، كانت الساعة الواحدة. سألته دينا عما يريد أن يشرب، قهوة، شاي، أم شراب بارد؟ شكراً، لن أبقى طويلاً، مستعجل.

بقيت واقفة أمامه، تتأمله مستغربة، تسأل نفسها أين رأته من قبل؟! تأملها، لو تخلصت من أرطال اللحم الزائد، فسوف يشير انتفاخ بطنها إلى أنها في الأشهر الأخيرة من حملها، ربما كانت حاملاً فعلاً، ووالد الجنين محبوس في السجن، نادم على فعلته، أو يعد الأيام الباقية على رؤية ولده.

«ماذا ستسمين طفلك؟»

أحاطت بطنها بيديها، وأفتر وجهها عن فرحة طفولية. قالت هامسة، تطلعه على سرها:

«إذا جاء صبي سأسميه ريمي، وإذا جاءت بنت سأسميها ساندي بل».

وسكتت. إذاً هي حامل، وحملها غير كاذب. بينما عادت تشاور حالها، هل تقول أم لا تقول؟! قلبت شفتها، وتابعت زعلانة:

«أختي تقول بأنني غير حامل، الكولا عملت لي نفخة في المعدة».

النفخة يعني غازات، والغازات سببها الكولا!! حبلها انتفاخ في البطن، لا بد أنها شربت خمسين ليتراً من الكولا لتحبل على هذه الشاكلة. هبَّ واقفاً، إذاً هي غير حامل!! وأخذ يضحك كالمجنون:

«يا إلهي!! كشف الحق وزهق الباطل. انتبهي يا حبيبتي لا تفتحي فمك، إذا كان الصبي من غازات، فسوف يتطاير في الهواء».

على العكس فتحت فمها متفاجئة وخائفة. سمع وقع خطوات مسرعة من خلفه، التفتَ، دخلت دنيا وأخذت تنقل نظرها بينهما عابسة. فهتف مهنئاً:

«حمل غازي، جنين أثيري، لا لحم ولا عظم، فقاعات، مبروك ستلد أختك عبوة كولا مائة مللي، انبسطي!!».

أمرت دنيا أختها:

«اطلعي بره».

فطلعت بره. رمقته بصرامة وبعقت:

«لا تفرح يا فهيم، البنت حامل».

فانتزعت الضحكة السعيدة عن وجهه.

هرعت إلى الشرفة، أطلت منها، أجالت بصرها في الشارع، وارتدّت إليه.

«هل رآك أحد عندما دخلت؟».

«لا أدري».

حدقت إليه بجد صامتة، عيناها كامدتان، بدت قلقة، ربما لأنها بلا ماكياج. لم يقل شيئاً. بعد حين من الانتظار، أراد معاتبتها، لكنها صرخت به، كانت قد تذكرت:

«ما الذي جاء بك؟!»

وسارعت تغلق الستائر، وهي تبربر:

«حذرتها ألا تفتح الباب، ولا تُدخل أحداً مهما كان السبب قبل إعلامي. هذه الحمقاء ستجنني بهبلنتها».

«ليس ذنبها، كذبت عليها».

خرجت، غابت قليلاً، ثم عادت، وقالت له الحقني، لحقها في الممر، ودخل وراءها إلى غرفة النوم. أغلقت الباب، طالعته الجدران ملونة بألوان فاقعة، ومرايا طويلة، ومرايا عريضة، ورسوم لنساء مستلقيات بأوضاع مثيرة، وسرير وثير، أشارت إلى الخزانة الضخمة.

«انتبه، إذا اختبأت داخلها لا تصدر حركة، ولا تأخذ نفساً».

أحمد ليس صاحب خيال متهتك، كي يظن أنه مدعو إلى الفراش،

بمجرد أن تضمه أربعة جدران مع امرأة، حتى لو كانت الغرفة غرفة نوم، والسرير يتسع لاثنين، والمرأة حبيبة سابقة، رغم توافر خزانة مثالية على قياسه، كمخبأ أمين ومضمون طالما أنقذ عشاقاً جبناء من بطش أزواج غيورين. أحمد واقعي لا يجهل البتة أن هذا الموقف ليس نكتة، وإن كان شبيهاً بنكتة، وإنما ترتيب عاجل يهدف إلى إخفائه، فيما لو حضر أحد على حين غرة، غير مرغوب فيه حالياً.

اقتربت منه، والتصقت به، لم تترك فاصلاً بينهما، لو أنها تابعت وأحاطت جسده بذراعيها، لأصبح بين أحضانها، واستعاد الخاطر الجنسي السابق وبإلحاح. أمسكته من مرفقيه، وتطاولت على أصابع قدميها لأنها أقصر منه، ودنت برأسها نحو رأسه، لم تدفع فمها إلى فمه، بل إلى أذنه، وأخذت تهمس، فضاع عليه من تداخل جسديهما الفجائي سماع فحوى همسها. التقط حرارة لهاثها ممزوجة بتهدج أنفاسها واختلاج طراوة ثدييها على صدره، وأحس بلسانها وكأنه يلعق صيوان أذنه، أم يتخيل؟! كان الموقف الماكر الذي تعدى بسرعة التلامس العفوي، صالحاً للتطور إلى وضع جنسي مهيأ ليباشرها على الفور وعلى الحامي، يبدأ وينتهي على الواقف، دون أن يمنحه تهيجها البالغ فرصة لاجتياز بضع خطوات ليتمددا ويأخذا راحتهما على الفراش. ما أجرأها! حقاً، للنساء نزوات مفاجئة يشق على الرجال فهمها!!

على أنها لم تفتر عن الوشوشة في أذنه! انشدّ إليها، وكانت مشدودة إليه كلية دونما فسحة لأي شد إضافي، انتظر منها مبادرة تكميلية، تتابع بها ما بدأته، تبتعد على الأقل عن أذنه، وتنزل إلى رقبته، أو تنحرف إلى فمه، ليتجاوب معها بالحركات الملائمة، ومنها يتدرجان في العملية الجنسية، حسب خطوات معروفة يشارك بها

كلٌّ بنصيبه في الاتصال الجسدي ليحصلا على متعة مشتركة، تساوي بينهما فيبلغان الذروة الجنسية مجتمعين، وفي آن واحد معاً. لكنها ظلت تلغو، كأن اللغو هو العملية كلها!! فتساءل متعجباً.

«ما اللذة التي تجدينها في الكلام؟!».

لاحظت دنيا تهيجه، هذه الحركات لا تغيب عنها، فنهرته.

«هذا ليس وقت أكل الخرا».

لم يصدمه انشغال أفكارها عن كل ما راوده، وإنما تشبيهها متعة الجنس بأكل الخرا. وما صدمه أكثر، تعبيرات وجهها المتقززة الخالية من أي تلذذ. هاله ارتعاش أعضائها، فطارت من رأسه الخواطر الشهوانية. كانت ترتعش من الخوف، لا من طلب الجنس. فذهب حنقه وتعجب أكثر. وعاجلته بالهمس.

«لا أريد لأحد أن يسمعنا».

نظر حواليه، أصلاً لا وجود لأحد يتكلم، أو يسمع سواهما، فلم يفهم. أخذت تشير بيديها إشارات تدل على وجود شيء خطير تخشى وجوده داخل الغرفة. عجز عن معرفته. فاشتدت عصبيتها، وأومأت بأصابعها المرتجفة إلى الفراش والخزانة والوسادة والهاتف.

«مم أنت خائفة؟!».

أغلقت فمه براحتها، وهمست في داخل أذنه:

«ألم تسمعني؟! كم مرة حذرتك. ألا تفهم؟! لا ترفع صوتك، أجهزة التنصت مبثوثة من حولنا».

فدهش من قلة سمعه وشدة غبائه، وضرب على جبينه بيده، وضرب أيضاً بتخيلاته السفيهة بعيداً، وخجل من شطط توقعاته الجنسية، لم يكن للتلاصق الشديد علاقة بالجنس البريء، وإنما بالتجسس غير البريء.

من حسن الحظ كانت الأفلام السينمائية قد أمدته بخبرة عريضة في معالجة قضايا التجسس التكنولوجية المعقدة، بحيث تبدو أجهزة التنصت التافهة بالقياس إليها أدوات بدائية. أبعد دنيا جانباً، وتنطع للكشف عنها. استبعد أولاً الأماكن المطروقة كالفراش والهاتف والخزانة، التي تخطر أول ما تخطر على رؤوس عديمي الخبرة، التي ترجع معلوماتهم إلى فترة الحرب العالمية الثانية.

تفحص محتويات غرفة النوم، فأحس بالدوار، من أين يبدأ؟ زجاجات العطور بالمئات، علب الماكياج بالعشرات، موانع الحمل المطاطية بالرزم، علب الدخان المستورد بالكروزات، عدا الورود الاصطناعية والهدايا الذهبية والفضية وتحف السيراميك والزجاجيات، وأجهزة العرض المتنوعة والأشرطة بمقاييسها المختلفة.. إلخ. أين ينقب؟! سيحتاج إلى أسابيع وربما أشهر لتفتيش هذا الكم الهائل من الأغراض، ليضمن خلوها من جهاز دقيق بحجم رأس الدبوس.

ما وقع عليه بصره، لم يصادفه بهذه الكميات الوفيرة حتى في أفلام جيمس بوند، ولم يخطر لدهاقنة جواسيس عقود الحرب السرية المسعورة الباردة على السطح بين الكتلتين الشرقية والغربية، ولا الأفلام الأميركية الحديثة لكنه سيتذكر أن عميلاً أميركياً واجه موقفاً مماثلاً، وإن كان هزيلاً بالقياس إلى موقفه هذا، ما الذي فعله؟

أمسك العميل بيد المرأة نصف العارية، وجرّها معه إلى الحمام.

اقتفى أحمد أثره، وجرّ دنيا بملابسها الكاملة نحو الباب، وجرب، دون أن يفتح فمه، بالايماءات فقط، أن تدله على الحمام، فلم يفلح، فلم يجد مهرباً من أن يطلب منها ومن غير احتراس أن تقوده إلى الحمام لحاجته الشديدة إلى التبول.

في الحمام، لم يتبول بالطبع، بل باشر احتياطاته، مثلما احتاط العميل الأميركي، تناول سلة الغسيل ووضع فيها الشامبويات وسوائل المطرّيات وملطفات الشعر والصابون ومزيلات شعر الساعدين والقدمين والمناطق الحساسة، والملاقط والسشوار ومعاجين الأسنان وأدوات الغسيل والمبيضات وكل ماله علاقة بعادات المرأة السرية ودوراتها الشهرية وغير الشهرية، وأعطاهما لدنيا مع تعليماته، فأبعدتهما إلى المطبخ، ووضعتهما تحت المجلى، ثم أجلس دنيا على التواليت وجلس على البيديه.

قال أحمد: تكلمي، فلم تتكلم. كانت عيناها تدوران في محجريهما. فظن أحمد أنها محرجة منه بسبب وجودهما معاً بملابسهما الكاملة، في مكان يتنافى مع ارتداء الملابس. إذ في الحمام، لا يخطر للمرء سوى خلع ملابسه والوقوف عارياً تحت الدوش، والتمرغ في أحضان الماء الساخن والرغوة ذات الرائحة الزكية.

سرعان ما لاحظ أن عينيها تدوران في الاتجاه البريء ذاته، بحثاً عن أجهزة تنصت، وهي عملية مرهقة، لاسيما إذا كانتا تدوران بحثاً عن خرم، دس فيه جهاز صغير جداً، لا يراه إلّا أصحاب البصر

الحاد، ولا يُستغرب أن يدوخ صاحب العينين العاديتين فلا يرى شيئاً. دنيا رغم أنها جميلة لكن عينيها عاديتان، فتدخل أحمد واستعمل نظراته الثاقبة، تفحص المكان ونبشه، ثم طمأنها إلى أنهما باتا في أمان تام.

ملامحها متلبدة، الأرجح أنها تشعر بالخزي، لما ارتكبته في حقه من اتهامات باطلة، لا تدري أين تخبئ وجهها منه فود لو يزيح عنها خزياً كان في محله، ويزيح معه كربتها. انبسطت ملامحه، وتلونت نظراته بذكريات الأيام الجميلة التي قضياها معاً. وقال لها متبسطاً، بأنه لم يوفر جهداً في إسعادها، ولم يحاول إيذاءها، وساعدها قدر طاقته، وأحبها طالما كانت إلى جواره، وعندما تركته ذهب الحب معها. نهرته:

«ليس الآن وقت الذكريات والاعتذارات، هناك ما هو أهم».

فعلاً هناك ما هو أهم، ووجودهما مختبئين في الحمام يدل عليه، دنيا موضوعة تحت المراقبة والتنصت!! من القادر على امتلاك هذه الأجهزة سوى عصابة لا تقل عن المافيا إجراماً، أو جهات مخابراتية محلية طورت إمكاناتها باستيراد أجهزة متطورة، أو جهات غربية أجهزتها تتطور يومياً.

«ما القصة»؟!

فأخذت تروي قصتها، وكانت قصة غرامية غريبة من نوعها في بلدنا، الذي لا يعرف هذا النوع من الغرائب المستحدثة، وإن كانت كما يبدو قد انتشرت أخيراً وبشكل محدود، ومع هذا ما زالت مستهجنة. لكنه فيما بعد سيدرك أن البلد قد تقدم كثيراً خلال

السنوات الأخيرة في هذه النوعية من الغراميات. أما لماذا لم يعرف بها، فلأنه بقي على حاله، والعالم من حوله يتقدم.

وقعت دنيا في غرام شاب التقته في إحدى الحفلات التي يحضرها كبار الموظفين والمسؤولين. الشاب اسمه محروس، أحبها بجنون، وهو ثري جداً لا قيمة للمال عنده، أخذ يكب عليها النقود كباً، ذلل لها عقبات عالم الإعلان وأطلقها فيه بماله ونفوذه. اشترى لها هذا البيت وأثثه ووفر كل ما يحقق سعادتها. وأصبح بيته الثاني، وأئتمنها على أعماله، فكان يصطحب أصدقاءه والمتعاملين معه من رجال الأعمال، يسهرون ويعقدون صفقاتهم لديها، يشربون ويلعبون البوكر ويرفهون عن أنفسهم مع البنات، فدارت قصص الحب والانبساط والخصام تحت رعايتهما. هذا كله كان يجري تسجيله بالصوت، وأحياناً بالصوت والصورة، كي لا ينسى أحد ما اتُفق عليه، أو يتلاعب ببعض الأرقام الكبيرة.

«في غرفة النوم؟!».

«بعض الاتفاقات كانت تحسم فيها».

في العام الماضي، جاء محروس برجل كبير في السن، قال عنه بأنه مريض ويعاني من الكآبة، أتى به ليتسلى، لكنه لم يتسلّ. البنات غنوا ورقصوا له ولغيره، غيره تسلى، أما هو فقعد ساكتاً لا يهش ولا ينش. مع الأيام ازدادت كآبته، وعاف الشراب، قال بأنه يكره الضجيج، يسبب له الصداع، فانسحب إلى المطبخ واختلى بنفسه، وأخذ راحته فيه، يفتح البراد يخرج البندورة والخيار والبقدونس والليمون، يحضر صحن فتوش ومسبحة ومتبل وشنكليش، يمزمز على كيفه، ويشرب كأسي عرق على رواق. أختها دينا لاطفته

وسايرته، وشاركته هواياته في تحضير مائدته، وزادت عليها اللحم والفراريج، طبخت ونفخت وشوت وقلت تحت إشرافه، اتبعت تعليماته وتقيدت بوصفاته. دينا صغيرة وعقلها أصغر، أبوها كان يضربها على رأسها فمخمخ لها عقلها. اهتمت بالرجل فدللها وعاملها كابنته، هكذا ظننا، كان يجايلها في العقل، يجلب لها هدايا وأكلات طيبة وكولا وشوكولا، ويداعبها، فأحبته وصارت تلعب معه ويلعب معها.

أخذ الرجل يعود ليلاً بعد مغادرته، تفتح له أختها الباب، ويتابعان ألعابهما في العتمة. عندما اكتشفت ألعابهما الليلية، أخبرت حبيبها محروس الذي جاء به. فقال لها بأن الرجل يعز عليه، ومرضه ناجم عن سقوطه على رأسه، الضربة التي أصابته ردته إلى الطفولة: اعتني به، هذا رجل محترم جداً، لا تخافي منه، عجوز لا يزيد عن ولد عابث، استعاد شقاوته التي لم يعشها. في جميع الأحوال، ما يجري بينه وبين أختك لعب أطفال.

وقبل أن يدركا بأنهما كانا يلعبان كالكبار، كانت دينا قد حملت منه.

«هل هو الأصلع الذي...؟».

«أخفض صوتك، هو بالذات».

أين تذهب البنت بحملها؟! اقترحت على محروس أن يصلح الرجل خطأه ويتزوج أختها، وإلّا سوف تشكوه للشرطة وتحبسه. فثارت ثائرة محروس واستشاط غضباً، لم يوفر شتيمة ومسبة لها ولأختها، لقبها بالشرموطة الكبيرة وأختها بالشرموطة الصغيرة، وادعى بأنها

استغلت شيخوخة الرجل وعقله الصغير، عملت على اصطياده طمعاً بثروته، ودفعت أختها لإغوائه. تعجبت دنيا من ثورته واتهاماته، وبطل تعجبها عندما عرفت بأن الرجل هو أبوه. قال لها بأنه لن يقبل هو وأخوته بأن تخدع أباهم فتاة بعمر حفيدته. فواجهته بأنها فضيحة بالنسبة إليها وإلى أختها، فضيحة لا يسترها سوى الزواج. فقال، إذا كان الأمر أمر فضيحة وزواج فسوف يضطر إلى تزويج أبيه من خادمتين محليتين وثلاث خادمات آسيويات. وهددها: افهمي، أبي متزوج، وأمي على قيد الحياة، لو عرفت أنه سيتزوج عليها، فسوف تقتلك أنت وأختك.

استبعدت الزواج، ما الذي تفعله بالجنين؟! الحمل في أشهره الأخيرة، أما لماذا لم ينتبهوا، فلأن بدانة دينا ضللتهم. محروس لم يصدق، في البداية اعتقد أن الحمل عبارة عن سمنة وابتزاز. فأخذوا دينا إلى الطبيب لتنزيل وزنها، لكن الطبيب فصل في أمر السمنة، وشخَّصَ حالتها بأنها حامل، ولا يمكن إجراء عملية إجهاض لأنها في الشهر السابع. محروس أصر من جديد على رأيه، لا أريد أخوة من أبي، يكفيني ما لاقيت من أخوتي الحقيقيين. فتفهمت رفضه النهائي؛ المشكلة الحقيقية فعلاً، هي المال، لن يسمح محروس وأخوته بقدوم وارث آخر، ولو كان طفلاً بريئاً لا ذنب له، يقاسمهم أموال أبيهم حتى لو اضطروا لتمويت أخيهم الجنين وأمه، وخالته أيضاً.

الأب العاشق لم يرتدع، وأصر على القدوم ليلاً في موعده المحدد عند منتصف الليل، وإذا لم يفتحوا له، يخبط على الباب ويملأ الحارة صياحاً. ولكي تبقى الأوضاع على حالها، بات من الضروري تدبير شخص يتزوجها.

«فكنتَ أنت».

بررت دنيا اختيارها له بأنه كان يستحق أن تنتقم منه، فألصقت التهمة به. أما إيقاعها به، فالذنب ذنبه، حاولت إقناعه قبل أن تقدم على أي إجراء، فلم يستجب، فعادت مع الشرطة، وإذا كانت قد حاولت تسويغ الأمر بتمثيلية الغرام، فلأنها كانت واثقة من قدرتها على أداء دور العاشقة المظلومة. في الحقيقة لولا هجرانه لها، لأصبحت ممثلة حقيقية.

«ألم ينجح تمثيلي في غرفة الحجز؟ ألم تقتنع بأنك أجرمت في حقي؟».

نعم، ربما خذلها، ودمر مستقبلها الفني، حسب زعمها. لكن كيف خطر لها أن تجبره على التكفير عن خطيئة غيره بهذا الأسلوب.

«ألم يكن الأمر مُبيّتاً؟».

«لم يكن هناك غيرك».

«أقصد الدعوة إلى المسرح، هل أردت تحذيري؟».

«أي مسرح، ولماذا أحذرك؟!».

«لكي...آخذ احتياطاتي».

«ممن تأخذها، مني، من أختي؟! العملية كانت سرية».

«أليس هناك طرف آخر يعمل ضدكم؟».

«لا، ما الذي تقصده؟!».

«أقصد أنك تحاولين أن تحصريها بمسرحية غرام وانتقام و..».

«بالنسبة إليكَ، حتى لو كانت مسرحية فقد انتهت على خير، الشرطة صادفت الفاعل ليلاً في الوقت المناسب يبغي دخول البيت، فاعتقدوه لصاً وقبضوا عليه. لو لم يعترف بما اقترفه، لما نجوت أنت، وخرجت من السجن».

«وبالنسبة إليك أنت وأختك؟».

«لم يتبدل شيء، حياتنا على حالها؛ الفاعل مازال يأتي ويرحل ساعة يشاء».

«كيف يأتي ويرحل، وهو في السجن؟ إلّا إذا قبل بالزواج من أختك دينا، في هذه الحالة يحق له اقتيادها إلى بيت الزوجية، لا أن يأتي ويرحل كلما عنَّ له».

كانت ملاحظته القانونية صحيحة، لأنه لا يعلم بما جرى فيما بعد.

«ما الذي جرى؟».

«عرف محروس بخبر القبض على أبيه في اليوم التالي، فاستنفر رجاله ووساطاته وأطلق سراحه بعد أن استبدله برجل غيره، زجه عوضاً عنه في غرفة الحجز، رجل حسب المواصفات، غيروا اسمه في المحضر، وحلقوا شعر رأسه على الزيرو».

«لماذا حلقوا شعر رأسه؟».

«ليصبح أصلع مثل أبو محروس».

«أفلتوه بعد أن قبضوا عليه!! مستحيل، أعرف قاضي التحقيق، يستحيل أن يقدم على مثل هذا العمل، أنتِ مخطئة».

بل صحيح، ودنيا لم تخطئ، وبإمكانه اليوم عند منتصف الليل رؤيته قادماً إلى البيت حاملاً كيسه معه، كأن شيئاً لم يكن، ليفعل اليوم ما يفعله كل يوم.

«لا يجوز أن يتعرض إنسان بريء للمحاكمة، فيما الفاعل الحقيقي سادر في غيه، يمارس جريمته بكل ارتياح».

فطمأنته: لمعلوماتك، الإنسان البريء مجرم عن طيب خاطر، وليس متبرعاً ولا أريحياً، سيأخذ ثمن أتعابه كاملاً مع حبة مسك.

هل يمكن أن يتبادل المجرم والبريء مكانيهما؟ نعم، إذا صدقنا حكاية التواطؤ هذه، ما جرى بات مفهوماً. لكن أحمد سيتمسك بأمر واحد، ثمة جريمة أخرى ارتكبت، ولا ينبغي السكوت عليها.

«اذهبي معي إلى قاضي التحقيق، نبلغه بالحقيقة كاملة».

«أيها الأحمق، لا تفكر بهذا الأمر مطلقاً».

«سأذهب وحدي إلى القاضي».

«إياك، هل تعرف من هو؟! طبعاً لا. إذاً لا تسأل عنه، ولا تجلب البلاء لنفسك، إذا قلت لك اسمه فسوف تدرك ما سيحيق بك».

«العدالة ستأخذ مجراها إن شئت أم أبيت، إذا لم تقولي لي من هو،

فسوف أبلغ عنك، وتحاكمين بجريمة إخفاء معلومات».

«كما تريد، اسمه فالح جادور، هل سمعت به؟».

فبهت، ما الذي جاء بفالح جادور إلى هذه القصة؟!

«لكنه راقد في غيبوبة».

«صحا منذ سنة».

«أخالك مخطئة؟».

«لا، غير مخطئة. هو بالذات وتغير كثيراً، أصبح لا حول له ولا قوة. عاد طفلاً عقله أصغر من عقل دينا».

«إذاً، هان الأمر، سنسلمه إلى الشرطة».

«هل تعرف أولاده؟».

«لماذا أعرفهم؟! القضاء سيقتص منه».

«أي قضاء، لا تضحكني، افرح لأنك نجوت منهم، كل واحد منهم أرذل من الآخر، أهملوك لأنه لا ذنب لك. إياك والتدخل، الجميع راضون، الأب والأولاد وأنا وأختي..».

فكر. لكن ثمة بريء، ما ذنبه؟

«والسجين؟!».

«سيصبح زوجها، وهو أول الراضين».

الجميع مبسوطون، والخاتمة كانت سعيدة، وإن لم يتحقق الانبساط من البداية إلى النهاية. ما الذي يعنيه من السجين، مظلوماً كان أم غير مظلوم، ما دام سيقبض مقابل زواجه، أيقطع رزقه في سبيل تحقيق مآرب العدالة؟ منذ متى كانت العدالة تأخذ مجراها، اللهم... إلّا مصادفة؟

عند هذا الحد قرر أن يغادر، فنهض لكنها سبقته وقفزت من مكانها كالملسوعة، سمعت أصواتاً صادرة من الداخل، هتفت، جاء!! أي جاء حبيبها، أو رجل على شاكلة حبيبها. احتارت ما تفعل. والأصوات تقترب، احتار معها، عيناها عادتا إلى الدوران باحثة عن خزانة بحجمه. طبعاً لم تجد خزانة حتى بربع حجمه، لكنها حظيت بحلٍّ. قالت: تظاهر بأنك عامل تمديدات صحية. وخرجت.

بعد حين، وصله صوته خشناً وعالياً، وصوتها ناعماً ومنخفضاً، الأصوات تقترب والأقدام تدنو. نكش قميصه، أجال بصره، رأى الخضاضة تحت المغسلة، شمر عن ساعديه فتح ماء السيفون، وأدار ظهره للباب، سمع صوت دوران القبضة والباب يفتح من خلفه، انحنى يخضخض بالخضاضة، واندفع برأسه إلى التواليت، غطّس كلتا يديه بالفتحة، وأخذ يطبش في الماء. سمع دنيا تقول بقرف للشخص الذي كان واقفاً خلفه يراقبه:

«عاجبتك الريحة؟».

فانغلق الباب، سحب يديه وارتد يخضخض. بعد دقائق، عادت دنيا. قالت:

«حظك حلو».

«حظي نجاسة».

شدته من قسيصه.

«لا تقف أمامي وتصفن، عجل بالذهاب».

غسل يديه ولملم قميصه تحت البنطال . عند الباب، بدت شاردة، ودَّ لو يطمئنها ويساعدها بشيء ما، ألم يحبها يوماً، وإن لم يتذكر كنه هذا الحب الذي أحبها إياه، إذا لم يكن من أجله، فمن أجل الخبز والملح، والرفقة الطائشة، وربما ما زالت تحبه.

«دنيا، هل تحبيني؟».

«خلصنا من هذه القصة».

فتذكر أن القصة خلصت وانتهت منذ زمن بعيد، ووافقها، إذا كانت القديمة خلصت فليس هناك جديدة، ولم يبق غير أن يذهب.

«أنا لن أودعك لأنني سأراك في الإعلانات، أما أنت فودعيني لأنك لن تريني ثانية».

«لا أحب الوداع».

مناقشة حول الدولة

استوقفت أحمد حالة دنيا وأختها مطولاً، ليستا أقل من رهينتين لشهوات الأب جادور وابنه. تأمل الحادثة ملياً. كانت صالحة للتفكير العميق، واستخلاص الكثير من الأمثال والعبر. والأهم أن الجريمة لا تبررها مساومات مادية، كما العدالة لا تخضع لمناقشات تافهة، ولا تقبل باتفاقيات جانبية. الأمر واضح تماماً، ثمة خرق للعدالة، ولن يكون من خونتها. وبدت له لاعتبارات شتى، شخصية واجتماعية وواقعية، قضية مواتية ليأخذ مسؤولياتها وما ينجم عنها على عاتقه كلية. لكن يتعين عليه ألا يتسرع في هذا الخاطر الجريء، لو أقدم على إثارته فسوف يثير أكثر من مشكلة، مع أن عمله لن يتعدى إبلاغ المحقق عن التلاعب الذي اقترفه أولاد جادور بتبديل أبيهم الأصلع بأصلع آخر.

مرارة تجربة الأيام السابقة علمته الحذر. كما أنه لم يكن حازماً في

قراراته، حتى يكون حاسماً في خواطره. وهذا عائد ربما لكونه من مواليد برج الميزان الغالب عليهم التردد، مما انعكس على كثير من القرارات، اتخذها بسبب، ثم عاد عنها للسبب ذاته، وهو حالياً مسوغ غير معقول، ولا يبرر تغيير ما أفصح عنه من نوايا أمام دنيا، وما يدور الآن في رأسه؛ لكن كأن كفة الميزان قد مالت إلى الجانب الآخر، فارتدّ متوجساً إزاء ما ينوي الإقدام عليه. لماذا؟! هل هو العجز؟ يعرف أحمد مقدار ضعفه، خاصة وأن مخاوفه لم تكن من باب الدلال، بل مبعثها خطر جدي. هؤلاء بوسعهم التلاعب بالعدالة، ومن طرف آخر ليس بوسعه الاطمئنان للحقيقة نفسها، قد تنقلب عليه وتزجه في السجن. هل هو موكل بها؟! لا، إنها شأن القضاء. لكن بات يفصله عنه بضع خطوات، لم لا؟! مع هذا لم يحسم أمره، هل يخطوها أم ينسى الأمر كله؟ كان الوقت يضيق ولا يتسع للمماطلة، إما أن يقدم أو لا يقدم. فعاد الحوار واشتد في داخله:

فرصة لمغامرة عظيمة لا يجوز أن أدير ظهري لها.

لكنني لم أظفر بالأمان بعد. الأفضل التقيد بما حذرتني منه دنيا.

لا بأس بقليل من المجازفة. ماذا سيكلفني الانتصار للحقيقة، علقة، بهدلة، سنتي سجن؟! تجربة تستحق الخوض.

لكنها غير مضمونة النتائج، ثم إنني جربت.

أليس ثمة خيانة جائرة لفكرة العدالة بالتكتم على حقيقة واضحة وضوح الشمس؟ لا ينبغي زَجّ أحمق بريء في السجن لمجرد أنه أصلع.

بل مذنب، يعمل معهم ويقبض أجره منهم.

هل يبرر تواطؤه مع الجناة على ترك المجرم الحقيقي دون عقاب، لاسيما أنه في هذه الساعة (كان الوقت بعد منتصف الليل) يمارس نشاطه الجنسي المخزي مع فتاة صغيرة بعمر أحفاده؟

هذه مهمة القضاء، لا الأفراد.

كيف تكون مهمته ولا معلومات لديه. لو عرف لن يتسامح.

إذاً ليتفضل ويعرف، الجهل لا يعفيه من المسؤولية.

مهمتك توصيل أمر المجرم إلى القضاء. أم أنت خائف لأنه مدعوم من جهات عليا؟

مهمتي؟!

وهي عمل بسيط، البوح بما تعرفه فحسب.

حسناً، ما دام عملاً بسيطاً، من يتجاسر على التنصل منه؟! ما هو؟!

مجرد نقل ما تعرفه من معلومات عن الأصلع إلى القضاء.

هذا ليس عملاً بسيطاً.

المواجهة الفعلية لم تكن في ذلك الحوار الصامت، بل في خلفياته. على أنه سيرضخ من أجل الحقيقة فقط، ليس تلك الحقيقة الواحدة أو المتعددة، بل الحقيقة وهي ترمي إلى تحقيق العدالة فعلاً؛ كما أن هذا أمر لا ينبغي أن نغفل عنه، للحقيقة جاذبيتها وحجتها القوية وتاريخها الحافل المشرق والمشوق على مر العصور، ما يجعل

حظوظها كبيرة عند المثقفين بمشاربهم المختلفة، منذ القدم تكالبوا عليها، ولاقت في نفوسهم، سواء صدقاً أو كذباً، هوى متجدداً، ولولاها لما كانوا مثقفين أصلاً. فأقاموا لها وزناً ثقيلاً ودفعوا لقاءها ثمناً باهظاً، واعتقدوا أنهم بمجرد تبنيها يتساوى وزنهم بوزنها، فعارضوا السلطات الجائرة بالاستناد إليها، وبسببها اكتسبت معارضتهم شرعية أخلاقية مخلصة وسطوة متشنجة. هذا كله استحضره أحمد في ذهنه، وأملى عليه الارتدادَ الأخير عن رأيه والعزم على تنفيذ ما راوده بالذهاب إلى قاضي التحقيق.

****

أصغى المحقق إليه، ولم ينبس بكلمة. فسر أحمد صمته: المحقق استغرب ما سمعه مني وانزعج، فغرق في التفكير باحثاً عن أسلوب عاجل وشامل يعالج به قضية أصبحت واسعة وشائكة تطال نزاهة القضاء وفي عقر داره.

بعد صمت طويل، حدق المحقق إلى الرجل الذي ازداد شيب شعر رأسه، قبل يومين حاز على إعجابه إثر تمنعه بكبرياء يحسب له عن القبول بزواج كان دون مراء سيحيله إلى قواد سافل. حالياً، الأمر يختلف، خالجه الشك في سلامة عقله مع أنه عاد إليه مرفوع الرأس وموفور المعلومات. ما الذي يريده من هذه القضية، ألم يخرج منها بريئاً؟! تريث المحقق في لومه، ما أبداه من شجاعة في ظرف صعب مع صمود صلب أمران يُحسبان له، رغم افتقاده يومئذ لأدنى أمل بتنسم هواء الحرية العليل إلّا بعد سنوات خانقة. اليوم، للأسف، لا يستعيد شجاعته بقدر ما يظهر تهوره، حاملاً إليه حقيقة بائتة لا يجهلها، ومحاذيرها مخيفة. المشكلة أن المتهم السابق لم يعد يهمه

شيء، ذاق طعم السجن، ولم تغوه الحرية.

تبدى تهور الرجل الشهم في مجيئه إليه متطوعاً، ليعلمه بما جرى من خلف ظهره، ابتداء بتغيير اسم الفاعل ثانية في محضر التحقيق، إلى تبديل المتهم بكامله؛ بشحمه وعظمه ولحمه. لو أنه يفكر بشكل سليم لما أتى لعنده، التفكير السليم سيقوده إلى السلامة، وقبلها إلى سؤال مفحم؛ إذا كان لدى المجرمين القدرة على تبديل متهم بغيره، دون أن تعوقهم الأجهزة التنفيذية والقضائية، فمن يستطيع الوقوف في وجوههم؟ كان جديراً بهذا السؤال أن يكون أول ما يتبادر إلى ذهن شخص عانى من اتهام جائر واستصرخ العدالة دونما مجيب، العدالة أصمّت أذنيها عنه ولم تنبرِ لنجدته. من حسن حظه أنه هو قاضي التحقيق المولج بقضيته سمعه رغم الصمم الشامل الضارب في أرجاء قصر العدل المخصص لإيصال المظلومين إلى حقوقهم. كانت مصادفة موفقة، مقابل آلاف المصادفات غير الموفقة. المهم أنها أفلحت، مع أنه من الجهاز نفسه الذي اعتنى بسد أذنيه عن رجاءات المجرمين والأبرياء على السواء. وللحق، لم يستجب هو شخصياً لصرخته، لولا تلك النزوة البوليسية التي راودته، ولا ريب في أنها لن تتكرر.

«هل تعرف أولاد جادور؟».

«لا تهمني معرفتهم».

لو كان يعرفهم حقاً لما أتحفه بهذا الجواب البائخ. يعتقد أنه بلجوئه إليه ستتحقق العدالة ويحمي نفسه من أعدائها، ولا يدري أن وظيفته كقاضي تحقيق لا تمنحه الحماية حتى يهبها لغيره، وإذا جدَّ الجد، لن يُعفى من المساءلة والتحقيق، والمقاضاة أيضاً، عندئذ كل

ما بوسعه فعله، طلب الصفح من أولاد جادور، وقد لا يحصل عليه، حتى لو كذب عليهم وأقسم أن المتهم الأصلع خدعه. هل هناك كذبة أكبر؟ لا، لن يصدقوه.

الفارق بينهما، أن الرجل الشهم واثق أن أحداً لا يستطيع التأثير على القضاء ولا المس بالقضاة. بينما هو واثق بأن أولاد جادور وغيرهم من الأولاد المحظوظين الجشعين الشرسين، يستطيعون التلاعب بالقضاء، وبالنسبة لشخصه، لن يكتفوا بمسه أو لمسه، سوف يسحقونه سحقاً بتحميله بضع قضايا يجرجرونه بها من لجان التفتيش إلى محاكم التأديب، ومنها إلى الشوارع. من يتجرأ على إيقاف مهزلة ادعاءات باطلة ستأخذ مداها الأقصى؟! حتى الآن كانوا كرماء معه، ولم يتحرشوا به. حرصه على الصمت أبلغ دليل على رغبته الجازمة في عدم التدخل فيما لا يعنيه. وبالتالي لن يسعى إلى فضح أو إيقاف ما يحدث حالياً، أو ما حدث وانتهى. تنحنح مختصراً ما دار في ذهنه بعدة كلمات:

«لقد قمت بواجبي، ولن أفعل المزيد».

«ما المزيد في كشف الحقيقة؟».

«لن أحارب الدولة».

تعجب أحمد، هل تصح مقارنة أولاد جادور بالدولة؟! بضعة شبان تافهين، يقيسهم المحقق بدولة ضخمة، ألأنهم أغنياء مثل الدولة؟!

«ثمة فارق. هؤلاء يلعبون بالأموال ويبعزقونها».

«الدولة، أيضاً تهدر المال العام».

«الفارق شاسع، لا تنس أن الدولة تربض فوق بنوك تختزن مئات الملايين وتتداول آلاف الملايين من أموال جناها الشعب بسواعده المفتولة، تصرفه عليه بغية الصالح العام، من إنشاء مرافق، ودفع رواتب الموظفين، إلى دعم السلع التموينية. بينما هؤلاء الشبان، لم يشقوا ولم يتعبوا، ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب، ملاعق مصادرها مشبوهة».

«لا تنس أنت أيضاً، بأن جيبهم وجيب الدولة واحد».

****

فكر أحمد: لا بد من المضي في الجدل، رغم أن الأدوار انعكست، القاضي ممثل الدولة لا يدافع عن الدولة. بينما هو المغبون من الدولة عليه الذود عنها. كان موقفه ضعيفاً، وربما لكي يقويه، من المستحسن التعويل على الفكرة من الزاوية الأنثوية، سوف تكون أشد تأثيراً وأكبر وقعاً، بها يستجر مقارنة مفحمة لصالح الدولة، إذا استطاع إقناع القاضي بتفوقها الأخلاقي، فسوف يقبل المحقق بتمثيلها فعلاً.

«لمعلوماتك، هؤلاء الشبان يعبثون بأعراض النساء».

فوجئ المحقق بالانحراف الحاصل عن مالية الدولة وصلاحياتها إلى حالات فردية، فصفن: ما قصة هذا الرجل، إلى أين سيأخذه مجدداً؟! اغتنم أحمد الفرصة، وجلب نظر المحقق إلى ما يجب أن يستحوذ على اهتمامه.

«شبان دنيئون، يمارسون الفحش بعينه. أما الدولة فعفيفة لا تعبث

بأجساد المواطنات، ترعى طفولتهن ويفاعتهن في الحضانات ورياض الأطفال والمدارس، ثم توظفهن في دوائرها ومؤسساتها، تمنحهن القروض، تسهل زواجهن وإنجابهن الصبيان والبنات».

دولة رؤوم؟! يا للسخرية، لو لم يكن يعرفها لصدقه!! فيما كان أحمد قد أخذ يفكر بفضيحة تدل على حقارتهم، كيلا يتردد قاضي التحقيق في البطش بهم:

«لا تحسبهم مراهقين طائشين. بالعكس، بالغون ناضجون، يتعمدون الإيقاع بالفتيات الصغيرات، وتقديمهن إلى أقاربهم وأصدقائهم والمتعاملين معهم، وغالباً ما يستعينون بنساء محنكات لاستدراجهن. طبعاً، العمليات لا تتم مجاناً».

ابتسم المحقق لكن بانزعاج، هل يعقل أن يكون رجل في هذا العمر ساذجاً إلى هذا الحد، يبلغه بسر مفضوح كأنه اكتشاف خارق، ويطلعه على ما يظنه يجري خفية، بينما يتحدث به الناس جهراً، وكلها تكرار لتلك الأساليب الشائعة في تسهيل سير الأعمال بواسطة النساء. سيطر على غضبه، وأبدى امتعاضه، فظن أحمد أنه لم يستوعب ما قاله:

«وبجلاء، دعارة مدفوعة الثمن».

طفح به الكيل، هل هناك دعارة ببلاش؟! وهل ثمة موجب لينحدر دفاعه إلى مستنقع الجنس الموبوء؟! والأمر كله مبالغة، سواء كنَّ نساء منحرفات أو غير منحرفات، فتيات محترمات أو غير محترمات، لا بد أنهن مدركات تماماً لما يفعلنه، وإذا تطوعن للقيام به فليس بالمجان كما يقول هو نفسه.

خلافاً لما تصوره المحقق، لجأ أحمد لهذا الأسلوب ليضعه كما يقال في الصورة، في صورة الوضع تماماً، وإثارة اهتمامه بما يحصل، بتوجيه أنظاره نحو الهدف، باستغلاله أسلوباً شيقاً، عصابات وجنس وممنوعات، وهو أسلوب مضمون لجأ إليه لأن السينمائيين أثبتوا نجاعته، فتَبَّلوا كما هو معروف موضوعاتهم بالمخدرات والجنس المكشوف، مفترضين أن في داخل كل مشاهد حتى ولو بلغ من العمر عتياً، مراهقاً صغيراً، لا يعتني بالمخدرات قدر ما يهمه الجنس. لكن ما ينجح مع عامة المشاهدين، لا يفلح مع قلة من المحققين، كان قاضي التحقيق واحداً منهم. ولهذا استخف بالإثارة والتشويق، ما علاقة الدعارة بالعدالة، لِمَ الخلط بين المبادئ السامية ووقائع الحياة المنحطة؟! فقال مصححاً:

«توخّ الحيطة في أقوالك، العدالة هدف تسعى إليه البشرية. أما الدعارة فنفايات تفرزها الحياة. ومع هذا علينا الاعتراف بأنها عملٌ تعيش منه عائلات مستورة وغير مستورة، فوائده لا تخفى؛ قضاء حاجة الطرف الثاني، بما يجلب المتعة، وتأمين لقمة عيش للطرف الأول، لا تفتقر أحياناً للمسة رفاهية عارضة».

«ما العدالة في تقديم فتيات صغيرات يلعبن بالدمى، خدمات جنسية للصلعان وأصحاب الكروش، لقاء مبلغ من المال ولو كان مجزياً؟».

هل ينبغي توافر العدالة في الدعارة؟! ما العلاقة بينهما؟! إلّا إذا ابتلع الزبون أجرهن، على كل حال الدعارة لا يجيزها القانون ولا المجتمع، ولا ينتج عنها حقوق ولا واجبات ملزمة؛ التشوش اللاحق لديه يقتصر على الكلمات، من جراء تلك القرابة اللفظية اللعينة بين العدالة والعدل والمعادل.

«انتبه، إياك والخلط بين العدالة والمعادل، الأولى مفهوم تجريدي، أما المعادل فهو الطرف المقابل لشيء محدد، وفي حالتهم واضح وملموس. نحن إزاء معادلة ذات حدين، طرف يعطي ثم يأخذ، وطرف يأخذ ثم يعطي، العملية قد لا تكون بهذا الترتيب، إذ لا سبيل لتوحيد أساليب الدفع، والتساوي ليس بهذه الدقة. لا يمكن قياس أنواع المتعة ودرجاتها بأثمان محددة ولو تقريبية، إنما، وتجاوزاً، المقابل قد يكون معادلاً، أو شبه معادل، أي مجرد معادلة قد تحقق بعض التعادل، لكن ليس العدالة؟! أتفق معك، لا عدالة في نحر الأجساد على مذبح الشهوات، أرجو أن يعجبك هذا التعبير، إنه يناسب مزاجكم أيها المتعلمون. أما التعادل فتحدده آلية السوق تبعاً للعرض والطلب؛ هل يقارن شبه التعادل بالعدالة؟!».

«لا»

«إذاً، لا تزدرهن».

«أنا لا أعيب الدعارة، نحن المثقفين، نتفهم أسبابها وبواعثها، ونطلق على ممتهنيها في الأدب، ومن باب التأدب، وصفاً جميلاً: بائعات الهوى».

طاب لأحمد التعريف بهؤلاء النسوة بأسلوب رومانسي، أراد إظهار تسامحه الإنساني إزاء مهنة غير إنسانية. لكنه سينقلب على رومانسيته الآنفة، ويهيئ له شطط خياله بعض المواقف المنتزعة من المسرح. فتابع وصفهن بخفة:

«على أن بعضهن نساء مجربات وشيطانيات، مهنتهن اصطياد الرجال، خبيرات بإبراز مفاتنهن لإغواء أثرياء كهول، قليلي عقل

وتافهين. تصور، بلمسة من أناملهن يُحلن رجالاً بدينين وغلاظاً إلى رجال خفيفين خفة الريشة ورقيقين رقة ورقة السيجارة، فيبتزّنّ أموالهم لقاء قبلة، ضمة، أو شمة!».

استاء المحقق من هذا التبدل الفجائي، فأفلت العنان لسخريته: هل هذا ما يدعونه بازدواجية مثقفينا الأشاوس؟! نعم، وإلّا كيف انقلب هذا المثقف من الرومانسية المرهفة إلى الواقعية القذرة؟!

طبعاً لقاضي التحقيق الحق في السخرية، لا يقول هذا الكلام عبثاً، ما دام يأخذ معلوماته من الواقع، لا من الأفلام والقصص؛ مرّت عليه الكثيرات من هذا الصنف المدعو بالشيطاني، لم يخدعه انحطاط سمعتهن، بل قدَّر لهنَّ كدحهن بعرق أجسادهن، وإذا كن أحياناً يتقاضين أجراً كبيراً، أو يُمنحن إكرامية سخية، فليس لسواد عيونهن، بل لقاء عمل جد مرهق وحقير، أجره محسوب بالقرش. شتان بين الحقيقة وما يزعمه هذا الجاهل لحقائق الحياة البسيطة، وها هو يقيِّمهن بسخافة مبتذلة وبلهجة العارف البذيء، بالنساء المخادعات.

«يدخنّ ويسكرن، نظراتهن مغرية، تنهداتهن محمومة، وآهاتهن صارخة!».

«يبدو أن لك دراية بهذه الأمور».

«لا، بعضهن كتبن عن تجاربهن في الفراش، كانت مجرد تمثيلية يفتعلنها من باب الشغل والتشغيل».

قاطعه المحقق ببرود:

«لمعلوماتك، يستعملن أجسادهن وتأوهاتهن، لأن هذا ما بحوزتهن،

ولا يملكن أكثر. ببساطة، لديهن ما يباع وهناك من يشتري».

توقف عن الشرح، لن يتعب نفسه معه، ولن يدعه يجيب، نبهه:
«إنس ما قلته لي عن أولاد جادور، أمرهم لا يعنيك ولا يعنيني».
«إذا لم ألجأ إليك، فإلى من..؟».
«لا تلجأ إلى أحد، اذهب إلى بيتك».
«لا تطردني، الدولة تحارب الرذيلة، وأنت أيضاً، أهدافكما واحدة، ألا تمثلها؟».

«أنا أمثل نفسي، والدولة تمثل الأقوياء المستولين عليها، ولهذا تحارب الضعفاء ولا تحميهم. هل فهمت؟! الدولة متهمة أيضاً، وليس باستطاعتي وضعها في قفص الاتهام، ومعها رجال مال وأعمال وسياسيون ومستشارون وأصحاب معامل واستثمارات».

لم يأبه أحمد بخطورة أسباب المحقق، الفساد مستشر، ولا مبرر للتقاعس عن محاربته. ثم، إذا كان الحاضر لهم، فالمستقبل لنا.

«من أجل مستقبل البلد فحسب».

إذا كان يناكفه بهذه العبارة الوطنية، فقد نزلت بقائلها إلى حضيض السذاجة، المسكين لا يفتقر إلى مسحة من الطيبة السخيفة، هل هذا ما يدعونه بالمغفل؟ حتى البراءة لا يغفر لها، ألا تمتلك نزراً يسيراً من التبصر الحصيف؟ لا عجب، البراءة اعتادت أن تكون غبية. من أين جاء متخماً بهذه المثاليات المتضخمة بإفراط! ومن قبلها بهذه التوصيفات اللطيفة والداعرة؟! لا عجب، ما دام من هؤلاء المثقفين

العاطلين عن العمل!! آه، وتذكر بغتة أقواله في محضر الضبط:

«قلت لي في التحقيق بأنك تعمل في مجال المسرح، أليس كذلك؟».

«كنتُ ناقداً مسرحياً».

«حسناً، لتستوعب ما أقوله لك، أفكارك تصلح للمسرح، في الحياة لا تصلح لشيء، لا تتبجح بهذه التعبيرات الكبيرة: المستقبل، والبلد!! أنا لا أسخر منك، أنصحك لا تعلق آمالاً على المستقبل ولا على البلد، إذا فعلت فأنت تضحك على نفسك، وتعيش في حلم لا يعِدُ بشيء، وتفسيره سيئ. لتريّح ضميرك، البلد كان دائماً موجوداً، أما المستقبل الذي تتحدث عنه، فهو على الدوام في طور القدوم، وغالباً ما يأتي ويرحل من دون أن نحس به. إنه تطلعات قد يتحقق نزر يسير منها مصادفة».

أسقط في يد أحمد، القاضي له بالمرصاد، ولن يتعاون معه.

«إذاً لن تحاسبهم».

«لا أنا ولا غيري يستطيع محاسبتهم، أو أن يضع لهم حداً».

«أنت متشائم جداً».

«أنا متشائم لأنني أعرف».

هذا أفضل من أن يعلق آماله على أكاذيب، تزجه في مطاحنات خاسرة وربما مميتة؛ واجبه نحوه، أن يكمل معروفه معه، وألا يبخل عليه بتدمير أي أمل قد يتحرك في داخله إزاء المستقبل بالذات. نبهه:

«ابـتـعـد عـن طـريـقـهـم، سـوف يـدوسـونـك ويـدوسـون كـل مـن يعترضهم».

«لن أتورط معهم قبل أن أسأل عنهم».

«لا تسأل، لئلا يريبهم أمرك».

غادره خالي الوفاض، وبتعبير آخر بخفّي حنين، وبتعبير أدق، خرج بحال أسوأ مما دخل، ليس ثمة من يصغي لصوت الحقيقة!! لكنه سيضرب عرض الحائط بتحذير المحقق، ويسأل عن أولاد جادور.

المصور

لم يكن أحمد متهوراً، كما اعتقد المحقق، ولم يسأل عن أولاد جادور علناً، أو كيفما اتفق. توخى الحذر الشديد وقصد صديقه جميل عجنوني. كان جميل واحداً من عدة أصدقاء صادفهم في حياته الجامعية والعملية، الآخرون لم يعد يراهم، كانوا من أصحاب المبادئ الهدامة كما قيل آنذاك. اختفت أخبار أحدهم فجأة ولم يُعلم هل هو ميت أم حي، والثاني حكم بعشر سنوات لانتسابه إلى منظمة شيوعية متطرفة، والثالث فر من البلد بعد انكشاف نشاطاته الإسلامية. لم يتبق له سوى جميل عجنوني، ولا ريب أن في اعتباره صديقاً حميماً مبالغة كبيرة، ما جمعهما عدم كونهما من أصحاب تلك المبادئ السياسية الخطرة المطالبة بالحريات، أو حتى إلغاء حالة الطوارئ، فبقيا في البلد على قيود العيش المشترك في الوطن، يتمتعان بحرية الأكل والشرب والنوم. حاول أحمد أن يشق طريقه في عالم الكتابة والمسرح، بينما حاول جميل أن يجد له

مكاناً مؤثراً في المجتمع. لا يجتمعان إلّا نادراً، إذ لا شيء يجمع بينهما، كانت الحاجة تدفعهما إلى الالتقاء بين فترة وأخرى، وهي التي وطدت الأواصر بينهما دون أن يكونا أصدقاء حقيقيين، كانا زميلين يثق الواحد منهما بالآخر، بحكم تبادلهما للمعلومات، جميل يزود أحمد بالكمّ الأكبر من أخبار المجتمع، ولم تكن تهمه إلّا للتسلية، فلم يستفد منها، وكان ينساها بعد سماعها. بالمقابل كانت معلومات أحمد جدّ هزيلة، تدور حول الحياة الخاصة للعاملين في مجال المسرح، استفاد منها جميل واستغلها على أسوأ وجه. وهكذا بحكم الصداقة، أو المعرفة والزمالة، سأله أحمد وبكل اطمئنان عن أولاد جادور.

لم يكن جميل عابر سبيل في مضمار الأخبار والمعلومات، بالعكس كان عليماً بها وله باع طويل فيها، أسراره يستقيها من مصادرها الموثوقة. أحمد أحسن الاختيار، كان جميل قد أثبت مراراً موسوعيته الشاملة في معرفة خبايا ما يدور في المخادع المنزلية وكواليس الدوائر الحكومية. وبالمناسبة: مهنته مصور فوتوغرافي.

تعرف أحمد إلى جميل منذ سنوات، بحكم عملهما في قسم واحد، الصحافة الفنية. بعد انتهائهما من الدوام المسائي في الجريدة يعودان مع الزملاء، يعرجان على مطعم متواضع يتعشيان تسقية بزيت أو بسمنة، وأحياناً سندويشة شاورما، ثم يذهبان إلى خمارة «فريدي» في شارع العابد ويشربان البيرة أو النبيذ؛ حسب الحر أو البرد. إذا كان مزاج جميل رائقاً، فالحديث طلي ومبطن بنمائم تبدأ من دهاليز الجريدة وتنتهي بغرف نوم السادة والسيدات أصحاب الحل والربط في الشؤون السياسية والاقتصادية والسياحية. أحاديث تثير الفضول وتحرك حب الاطلاع، بما تحفل به من قصص

شيقة. هل هناك ألذ من سماع أسرار شخصيات معروفة في المجتمع، يفشيها شاب يستقيها من مصادرها؛ منهم بالذات أو من معارف ضالعين بخفاياهم ومقربين على صلة وثيقة بهم؟! يتصرف جميل حسب الأصول، فيتحرز أحياناً، بسبب خطورة مراكزهم من ذكر أسماءهم. لم تكن ملاحقته لأخبارهم لحساب مهنة البحث عن المتاعب، وإنما لهواية سارية في دمه مثل مرض خبيث ومستعص.

مات أبوه في ريعان شبابه، فدرج جميل وشبَّ في أجواء أنثوية رقيقة مشحونة بالمناكفات العائلية، ولولا أن واحدة من عماته كانت متزوجة، لما وقع نظره في طفولته على رجل إلّا في التلفزيون. تزوجت أمه بعد عام كامل من حداد عسير وقاتم واستقرت مع زوجها في بيروت. احتضنته خالاته وعماته العوانس المصابات بهلع قهري من الأمراض المعدية، لا تنضب وساوسه. فيما كانت طبيعة الصبي الخرعة تسعفهن بسعال، مغص، إقياء، طفح جلدي، حكاك، سماط، إسهال، تعطيس، حساسية، سيلان أنف. خشين أن يكون ابن أختهن قد ورث عن أبيه موتاً مبكراً، فسارعن إلى حمايته من الجراثيم وتحصينه من العين الحسودة. ترعرع بين خمس عجائز: ثلاث خالات وعمتان.

في رياض العناية الفائقة، أسبغت عليه الخالات رعايتهن الخارقة، وفي الوقت ذاته، خُضن معركة خفية وضروساً ضد عماته، يدفعن عن أنفسهن دسائسهن بدسائس مضادة. بينما عماته حافظن على نضارة فجيعتهن بموت أبيه، فلم يخلعن السواد وشملن الخالات بانتقاداتهن والصبي بمخاوفهن. جميل لعب على الحبلين، فأحيط برعاية ثنائية قصوى، كانت فعلياً خماسية، تبارى الطرفان في استرضائه وتدليله، وكأنه سيفارق الحياة بين لحظة وأخرى، فعاش في

حالة وداع مستمر، من حضن إلى حضن، فيما كان يسمع من هنا ومن هناك، أخبار الأهل والحارة والجيران. تستعاد مرات ومرات وبروايات مختلفة، متنقلاً بين الخالات والعمات يستمع بشغف إلى ما يستجد من أخبار، لا تكاد تهدأ حتى تشتعل، وكانت معيبة على الدوام، من النوع الذي يندى له الجبين خجلاً. فعاش في جو من القصص النسائية المكتومة، أما هو فلم يتكتم عليها.

من جراء هذه الأجواء الرغيدة والمتابعات المحمومة وأمثالها داخل نطاق الأسرة وخارجها، أكمل جميل دراسته بشق أنفس خالاته وعماته، وعوقب بالطرد مرتين من المدارس الحكومية والخاصة، لثرثراته المؤذية، ثرثرات لم تخلُ من ولدنة حرام، لا سيما بعد أن فَعَّلها؛ بإطلاقها صوب أهدافها وفي الصميم تماماً، فوصلت إلى من يعنيهم أمرها، واستفادوا منها باستغلالها على أسوأ وجه. وهذا ما يدعى برمي البلى، فسببت الكثير من البلاء.

خلال مراهقته المضطربة تسبب في الإساءة إلى سمعة فتيات خفرات، أشاع عن ضبطهن مع أساتذة مربي أجيال صاعدة، ونَقَلَ أخباراً عن شبان ورعين تعاطوا الزنا في منزل مشبوه، وكان وراء تخريب أعشاش أسرية هانئة بعيشها وسعيدة بغفلتها، واضطرار آباء وأمهات للمسارعة إلى عقد زيجات لبناتهن على عجل إخفاءً لخطايا يغفرها الرب، ولا يتسامح معها البشر.

في عيد ميلاده السابع عشر، زارته أمه وأهدته كاميرا يابانية، رسمت بها دون قصد مستقبل ابنها الذي أهمل دروسه ولا سيما القومية والدينية، وتعلق بالبوزات والبروفيلات والألوان والظل والنور والأشجار والورود وأقواس الحارات القديمة، دون التخلي عن موهبته

الدموية الملعونة في افتراس سمعة الصبايا والشبان. في العطلة الصيفية اشتغل عند قريب للعائلة مصوراً في باب توما، وقبل أن يتعلم الصنعة ويختمها على أصولها، استغنى معلمه عنه. طُرد بعدها تباعاً من محلات التصوير التي عمل فيها، لزعمه أن المصورين يمارسون مع المتصورات أموراً، لا علاقة لها بالتصوير، وتفوق التصور. إثر ذلك لم يقبل مصور بتشغيله لديه، فتوظف مصوراً في جريدة رسمية؛ قد تتحمله الدولة، أمثاله نمط تتلهف عليه دوائر الحكومة، يضفي التسلية والنكهة على عمل غير مسل وبلا نكهة. ونقل بذلك نشاطه إلى المجتمع الكبير.

بعد عام وظيفي ونصف، دفع الثمن غالياً؛ المجتمع الكبير، يختلف عن مجتمع الحارات والأزقة والدخلات، يضم غالبية راسخة فاضلة من سياسيين ومتنفذين وضباط ورجال أعمال محترمين، تحدد سلوكياتها المتجهمة السياسة الأخلاقية للبلد. لم ينظر إليهم جميل بعين الاحترام ولا الهيبة، أغرته قصصهم المحتوية بطبيعتها على كم هائل من الأسرار؛ قصص ظاهرها وقور وعبوس وباطنها خفيف وتهريج بهيج؛ حتمت عليه التحرك في عدة اتجاهات وإجراء اتصالات وفتح قنوات.

نشاطه البحثي كان متعباً، غير أن متعته البالغة عوضت مشاقه، لم يتناقض مع عمله الوظيفي، كل منهما يسير على سكته، هوايته تهتم بالقبائح الجذابة، والجريدة تعتني بالجماليات السقيمة. إلى أن علق بقصة عن موظف كبير، نموذجية في لغوصتها ووساختها، تحتوي على تركيبة متكاملة تجمع بين التزوير والاختلاس والكيف والتكييف والسخام والتسخيم. جَمعَ فصولها، وأخذ يلتلت بها، فعلم بها أصحابها. الموظف الكبير لم يكن هو المشكلة، بل شركاؤه

الضالعون معه، وهم من نوع لا ينمزح معه أبداً، يمسحون الشخص الذي لا يعجبهم من الوجود. جميل المغفل، اعتقد أن أكبر رأس هو الموظف، وفاته أنه أصغر رأس.

الشركاء الضالعون سألوا عنه، من هذا الخرا؟ بعد تحريات قليلة، وجدوه خرا فعلاً، غير مسنود ولا مدعوم!! إذاً، اخروا عليه، أي أدّبوه حسب اللغة الخرائية السرية المتداولة. ابتدأت عملية تأديبه بتغطيسه بالخرا على مراحل، أولاً طرد من الجريدة، وهو إجراء بمثابة البديهي، كعقوبة تتخذ أوتوماتيكياً. أصبح في الشارع، ما المشكلة؟! الشارع يستهلك المطرودين والمعطوبين وأبناء السبيل.

اعتبر جميل فترة عمله في الوظيفة فاصلاً انقضى. لم يشتكِ، لقد أذنب، لسانه لم يدخل في حلقه، فلم يوفروه. الذي لم يعرفه، الطرد هو الفاتحة، ومازالت هناك تتمة أو تتمات. وبالنسبة إلى التغطيسات؛ جاءت على التوالي، فكانت ثانياً، سحبه من الشارع واتهامه بتهديد أمن الدولة، وتحويله إلى الأمن المخابراتي. ثالثاً، أصبح في حوزة الفروع الأمنية، فأخذت تحقق معه الواحد إثر الآخر؛ فرع يفلته وفرع يستلمه، من تحقيق إلى تحقيق، يحتفظ به الفرع أسبوعاً أو أسبوعين، وربما شهراً. وأحياناً يستعيده فرع كان قد أطلقه من فرع سيطلقه، لإجراء المزيد من التحقيقات.

كان الموظف الكبير يتابع تنقله بإيعاز من شركائه وعن كثب، وكلما تأخر مروج الشائعات في فرع، طالب بدفشه إلى التالي، مستعجلاً وصوله إلى الفرع المتفق معه على طخه في السجن بتهمة لا تقل محبوسيتها عن عشر سنوات، لكنه لم يصل.

سبب التأخير، انبساط المستنطقين على مشبوه ظريف مارس هوايته الطريفة في القص على حَبّتِها، لم يضطرهم إلى تهديد أو ضرب، بمجرد أن يفتح فمه لا يغلقه. كانوا مثله، شاغلهم الأخبار، أما أن تحقق الأخبار المعرفة مع المتعة، فهذا لم يصادفهم. بل وحققت انسجاماً في أماكن لا توفر أدنى قدر من الانسجام بين الناطق والمستنطق. كانت أساليبهم في الحصول على المعلومات بالمقارنة مع أساليبه متضادة تماماً. ففيما كانوا يعتبرون البشر حيوانات، كان على العكس يعتبر الحيوانات بشراً، وهي مبالغة للدلالة على أن لديه القدرة على انتزاع المعلومات من الحيوانات بأسلوب إنساني راق وخبيث؛ كانت سر نجاحه. وكان من الأولى أن يتصف عمله بالمخابراتي البحت، بينما عملهم كان إكراهياً بحتاً؛ ولا مقارنة بين أخبارهم المقيتة وربما الملفقة، والنوعية المسلية التي يحصل عليها وتفتقر إليها حتى مجلات الفضائح، على أن الغاية واحدة، كلاهما لا تعنيه الحقيقة بمقدار ما يهمه ورود الأخبار دون العناية بإثبات صحتها. بالنسبة إليه، ثمة أمر آخر، التشويق!!

أخرج المعتقل من جرابه خفايا، كان جهاز الأمن الذي لا تخفى عليه خافية، لا يعلم بها. حسب زعمهم كانوا يستدرجونه. لكنه أفلح في استدراجهم، قادهم من قصة إلى قصة، وبالأحرى استجرهم إلى الاستماع، حكاية تأخذهم إلى حكاية، وشدهم؛ إلى حكايات تتوارد فيها أسماء وأسماء من الذين واللواتي باتت تجوز عليهم لعنة الأديان السماوية كلها، لا لعنة الدولة والمخابرات، وإن كانت تستطيع استغلالها أكثر من الله.

لم يوجهوا إليه أية تهمة، قصصه بالمحصلة حكي نسوان، والشبكة المزعومة كانت القنوات المفتوحة على أصدقائه الكوافيرية حلاقي

السيدات، وشغيلة محلات التجميل، وموظفات المصارف، وباعة المصاغ وأجرائهم، والمدرِّبين والـمُدَرِّبات في نوادي الأيروبيك، والمدلكين والمدلكات في محلات التنحيف، وعاملات الباديكور والمانيكور. والدليل محضر الاستجواب؛ يغص بفلانة قالت، وعلانة حكت، مما وصل إليه من زبائنهم؛ نساء المسؤولين والضباط والتجار، أي: من دهنه سَقّي له. قام جميل بجمعها، وأعاد تركيب الشقف والنتف بعد إزالة التناقضات بينها في قصص معتبرة، تحتوي كل واحدة منها على بداية ووسط ونهاية، وشخصياتها المرموقة محددة بالاسم والرتبة والمرتبة، مع بيان بأحجامهم المالية والوظيفية. أما ثغراتها فكان تعدد المصادر يرممها، فالزائد في شقفة ترمم من غيرها بنتفة، الناقص هنا زائد هناك. جريمته، تجميع عناصرها، وإدراجها في قصة، يعيد تدويرها، بعد تبهيرها وتمليحها.

أخيراً وصل إلى الفرع المطلوب، مع تهمة ليس هناك غيرها، التبهير والتمليح، عدا هذا لا تطوله جريمة ولا جنحة، وإذا كان لا بد من جنحة ما، فهي السمع وإعادة التسميع، وإذا كان هناك منبع أو محرض، فهو ثرثرة النسوان، وجزاؤها الأمثل والوحيد قطع ألسنتهن. والمسؤول، الأزواج بتسيببهم زوجاتهم وغير زوجاتهم، وتركهن يملأن أوقات فراغهن باللعي والرغي دون رادع أو وازع. الإجراء الوحيد والناجع، ضبضبوهن، أي احجروهن في بيوتهن. دود الخل منه وفيه، إن أنتم لم تفضحوا أحوالكم، فلن يفضحكم أحد. لكن من يمون على صاحبته أو حتى زوجته؟!

لكن المتضررين لم يكونوا من النوع المتسامح، بل من النوع الجبار الذي لا يُرفض له طلب، ويدفعون ثمن ما يطلبون من طرف الجيبة. وعادة ما يطلبون لخصومهم القتل شر قتلة، لكن الأمر لا يستحق

القتل، ولا يكتفون بالبراءة ولو سبقتها عشرون فلقة.

اقترح الموظف الكبير، ما دام جهاز الأمن هو الحكم، والقانون هو الحاكم، إيجاد جريمة مضمونة العقوبة، ولم يتنازل عن محكومية رادعة تُربي المتهم لولد ولده؛ لذا لا بد من إثبات تهمة يرسل بموجبها إلى السجن ليسلخ عشر سنوات من عمره على الأقل مع الأشغال الشاقة.

ما هي الجريمة التي لا تخيب عقوبتها؟! الانتساب إلى الأخوان المسلمين، لكن فيها إعدام!! فلبسوه تهمة أخف، مساعدة فارين أخوان مطلوبين للقضاء، طبعاً المتهم ساعدهم عن جهل وبنيّة طيبة. جميل كان جاهزاً للاعتراف، وفي منتهى التعجب ليس لأنه بريء مما نُسب إليه، وإنما لأن ما يحدث له فاق ما يشيعه من قصص، ما روجه لم يبالغ به إلى هذا الحد!! فاستراح ضميره النمائمي.

غير أنه أثار لهم مشكلة، جميل لم يكن مسلماً، كان مسيحياً. لم يتنبهوا لدينه، مع أن قصصه دارت فصولها الأولى بين باب توما والقصاع وبرج الروس، وغطت موجاتها الكبرى العاصمة وامتدت خيوطها إلى المحافظات؛ وامتلأت بالرموز المسيحية من كنائس وحارات وخطايا وخوارنة وراهبات وتعميد ونبيذ. الموظف الكبير لم يتراجع، قال لهم: دبروها، فدبروها ووقّعوا جميل على محضر يعترف فيه بوقوعه في غرام فتاة مسلمة محجبة، وأعلن إسلامه لرغبته في الزواج منها، ولكي يبرهن عن قوة إيمانه الجديد، ساعد أخاها الإخونجي على الفرار من البلد دون أن يعلم أنه إخونجي مطلوب للقضاء!! طبعاً، زيفوا إخونجياً فاراً، أخته لحقت به، بينما علق العاشق الهيمان.

كان لهذه الحادثة أن تنتهي عند هذا الحد، ويغيب جميل بعدها عن الأنظار عقداً أو عقدين من السنين. ومن الطبيعي ألا يعمل غرماؤه حساباً له ولا لأهله وأقربائه، يكفي أن يقال بأنه معتقل سياسي حتى لا يتجرأوا على السؤال عنه. لكن فاتهم ما يمكن أن تفعله باقة من الخالات والعمات من أجل ولدهن الوحيد، ولو كنَّ عجائز بلغن من العمر عتياً.

العجائز الخمس

لم يهتم الموظف الكبير وشركاؤه بأحوال المعتقل، كانت همومهم أكبر من أن ينشغلوا بمصير موظف صغير مطرود، لا سيما أنه كان الجاني على نفسه بالتحرش بهم. وحتى عندما عرفوا بأن نسوة عجائز تباكين وشرقن بدموعهن على أبواب الفروع، وألححن في السؤال عنه. تأكد ظنهم، خصمهم الثرثار، لا معين له ولا نصير، سوى نسوة أكل الدهر عليهن وشرب.

لكن من يستطيع التغلب على حنكة عجائز هرمات قلعن أضراسهن في التحايل على الأبواب الموصدة؟ وسائلهن لم تكن خارقة، إنما الاعتيادية نفسها، براطيل ودموع وتوسلات. علمن باحتجازه لدى الأمن، أما أي أمن، وأي فرع، فمن سابع المستحيلات. الصدمة الكبرى، التي هانت أمامها المستحيلات السبعة، وبالأحرى نسفتها، أحد الفروع لمّح إلى احتجازه لديه، وحذّر: لا تسألوا عنه، ولدكم

مقبوض عليه بتهمة إسلامية؛ فكانت ثامن المستحيلات: ابنهم المسيحي أصبح ابنهم المسلم!!

حملوها باردة ساخنة، كما هي تماماً إلى الكنيسة، قصدوا من فورهم الخوري ألبير، فوجدوه في الباحة وإلى جواره خوري صغير السن في حوالي الثلاثين من عمره، يحدثه عن أنواع الماء في الكتاب المقدس. الخوري الصغير أغمض عينيه من الشمس، أو من الملل. وقفن يستمعن إليه ريثما ينتهي من كلامه، فعرفن أن الماء نوعان، محيي ومميت، والماء مرغوب في جميع الأحوال، يبيد الخطيئة ويمنح النعمة الإلهية. تساءلت أنطوانيت:

«هل ينفع الماء في إعادة الضال إلى صوابه؟».

التفت إليهن وتعجب، لم يأتين معاً إلّا لأمر جلل، عادة تأتي الخالات جورجيت وأنطوانيت وجانيت على حدة، والعمتان فيوليت وهنريت على حدة. أما أن يأتين وفداً واحداً، وبقلب واحد وبسؤال واحد، فبادرة خير تبشر بوئام عائلي طال انتظاره. استفهم:

«أنطوانيت، ما الذي تقصدينه بإعادته إلى صوابه؟».

«أبونا، أقصد، إعادته إلى دينه..».

لم تدعها جورجيت تنشط في الجواب، قاطعتها، ووضعته أمام لغز مريب:

«لماذا يترك ابننا جميل دينه، ويلتحق بدين آخر يجهله. ألم يأثم مرتين ويُهنْ روحه مرتين؟!» وطلبت منه حلَّ اللغز. شُدِه الأب ألبير. فيما ختمت كلامها باستنكار:

«فقدنا ابننا مسيحياً وعثرنا عليه مسلماً، هل هي المعمودية الثانية. أبونا، أين السر؟».

«لا تسخري يا جورجيت».

«ليت المسيح رحمنا وأبقاه ضائعاً».

لم تغضّ بطريركية الزيتون النظر عن ضياع واحد من رعيتها الكاثوليكية، أو تتقاعس عن نجدته إلّا في حالة واحدة، كونه شيوعياً. أما أن يصبح مسلماً، ويغدو دفعة واحدة جهادياً، يذود عن الإسلام بالروح والجسد وربما بالسلاح، فهذا لم يعرفه تاريخ الكنيسة في الشرق، على حد علم أبينا ألبير، طوال عمره الذي قارب الثمانين. نعم، ثمة سرٌّ، لكنه سر غير مقدس. يعرف ابنهم، عمده بيديه، لم يكن ولداً مسيحياً باراً، ولا مناهضاً للقداسات والتراتيل والبخور، كان يراه في الأعياد ومناسبات الإكليل يحوص بين العذراوات الطاهرات.

نفى أبونا ألبير أي شبهة ظاهرة تخل بعقيدة الولد جميل. وظن أنه لم يسمع بوضوح، إذا كان بصره قد ضعف، فلا ريب بأن سمعه كذلك.

«هل قلتن إنه... أعدنها على مسمعي».

«أصبح مسلماً».

لا، لا بد أنهن أرهقن عقولهن في النكد والتنكيد؛ أو ـ وهذا أمر طبيعي ـ لم يطورن معلوماتهن منذ أكثر من ستة عقود، بقين على

ما نشأن عليه، مازلن يعتقدن أن من ليس مسيحياً فهو مسلم. التفت للخوري الشاب وشرح له مبتسماً الفكرة، وأكمل بأن جاراته يجهلن وجود أديان علمانية كالشيوعية. قال الخوري الشاب:

«أبونا المسافة بعيدة بين الشيوعي والمسلم».

«بالنسبة إليهن، المسافة أقرب مما تتصور، بل لا مسافة على الإطلاق». واقترب منه هامساً «هذه سن الخرف عند النساء».

وانبرى نحوهن يطور معلوماتهن:

«ولدكم شيوعي. الشيوعي رفض نعمة الله».

فغرت العجائز الخمس أفواههن من جرأة الشيوعي على رفض النعمة. أكمل مبيناً عظم ما أقدم عليه ولدهن:

«المسيحي مدعو بالنعمة، قائم في النعمة، يحيا في ظلها، ولا يستغني عنها».

«يا أبونا..».

«هل تقبلونه ملحداً؟»! لم يدعهن يكملن تفجعهن.

بصوت واحد أجبن، لا. فتابع:

«دعوه يذوق بعضاً من جهنم وعيد الخاطئين، ويعاني العذاب في سعيرها».

لم يفهمن، لماذا أبونا بهذه القسوة؟! يرتضي للشيوعيين جهنم المخابراتية جزاء، هناك في الأقبية لا رحمة تشفع لهم ولا من

يرحمهم. لكنهن لن يشغلن بالهن بالجحيم مقر العصاة ولا بجهنم الخاطئين، المسيح والعذراء والقديسون يشفعون للجميع. وإذا كان لا بد من حساب في الدنيا، فالله يعاقبهم على الكفر وليس المخابرات. لم يفته ما دار على وجوههن المشدوهة. فقطع استفساراتهن مرة واحدة:

«الشيوعيون يا بناتي رفضوا الكنيسة، جحدوها واتهموها بتعاطي الأفيون».

«شبهوا الدين بالأفيون». صحح الراهب الشاب بلطف.

«سيان» قال أبونا.

«جميل، تعرفه، واسم الصليب، لا يتعاطى المخدرات». حلفت الخالة جورجيت بحدة.

تدخلت الخالة أنطوانيت ولفتت أنظار أبينا الكبير وأبينا الصغير إلى أن خطيئة جميل ليست عقائدية بل غرامية. أحب جميل فتاة من جيراننا المسلمين، وأسلم على يديها. انكسف أبونا الكبير، وخاب ظنه، الحب يصنع المعجزات، هذه واحدة، لكنها معجزة معاكسة، مضادة للطهارة المسيحية، ماذا أحب فيها غير جسدها؟! لو جاء لعنده واعترف لوفر عليه الاعتراف في المخابرات. علق بصوت عال:

«الحب الجسدي حب دنيوي يقود إلى الخطيئة».

«الله يصفح». تدخلت الخالة جانيت.

«ليس قبل رجوع الخاطئ. اسألوه، هل رجع؟».

«أبونا، الدين محبة». قالت جانيت برقة.

«ابنكم اعتنق الإسلام».

«لعبوا بعقله». اعترضت العمة فيوليت بحزم «والأغلب استبدلوه».

«إذا كانوا قد استبدلوه، فأين الأصلي؟»! تساءلت الخالة جورجيت بهلع.

«أو أجبروه». عقبت فيوليت.

«يحبسونه لأنه أحب؟»! عادت الخالة جانيت.

«جانيت، بلا ميوعة، لا يعجبني دفاعك عن الحب، تعلمين، الحب الذي أقصده خطيئة. ثم لا تنسي، أحب مسلمة».

«جميل يجهل الحب». قالت أنطوانيت.

وأخذت تشرح لأبينا الشاب، بأن أبانا ألبير أول الشاهدين على أنهن ربّينه على الغالي وشِلْنه على كفوف الراحات، ولخصت الفكرة التي تنفي عنه الحب:

«اعتاد أن ينحب، لا أن يحب».

«وماذا فيها، الولد غلط». ألحّت جانيت برقة بالغة.

«يغلط مع مسيحية وليس مع مسلمة».

«ألا تغفر له؟».

أبونا ألبير فهم ما قصدته، إذا غفر له، فعليه التدخل لدى السلطات

لإطلاق سراحه. لماذا تطلق الكنيسة سراح مسلم كان مسيحياً؟!
فقال:

«الإسلام دَخَّله السجن، خَلّي الإسلام يطلعه».

ألقى الخوري ألبير كلمته الأخيرة بعصبية، نافضاً يديه من العاشق المسلم، تركهم ومضى يلوح بيديه.

تحلقن حول الراهب الشاب، لم تؤثر به سوى دموع العجوز الخامسة؛ وقفت مطأطئة برأسها، لم تتفوه بحرف، ولم تتوقف عن البكاء. هنرييت اعتادت الصمت والبكاء، تلك طريقتها في التعبير عن جميع الأمور حتى المفرحة منها. قبل عشرين سنة إثر وقوعها من السقيفة، انكسر حوضها وانشعرت جمجمتها، وتخلخل منطقها، فتساوت لديها الأفراح والمآسي، الكلام والصمت، الضجيج والسكون، فسكتت. قالوا بلعت لسانها. لسانها كان في محله، فقالوا، نسيت الكلام.

كيف لم يرقَّ لها قلب أبينا ألبير؟ تساءل أبونا الشاب في سره، وعتب عليه. لن يفعل مثله، قلب الرب يتسع لغفران أعظم الخطايا. المعضلة التي استوقفته، من هي أمه من بينهم!! لا يعقل أن يكون ابناً لجميع هؤلاء اللواتي يقسمن بأنه مسيحي صالح. وعندما عرف أن أياً منهن ليست أمه، أدرك أنه يتيم، فتعهد لهن بالسؤال عنه.

في اليوم التالي، ذهب إلى فرع يعرف فيه رقيباً مسيحياً يشغل عملاً كتابياً، اتصل به وتمكن من الدخول إلى الفرع، ثم من غرفة إلى غرفة، فتحوا سجلات ودفاتر: لا وجود لهذا الاسم لدينا. لم نره،

لم نسمع به. الرقيب بعد ذهاب وإياب، غمزه: زلمتكم كان لدينا، لا تعذب حالك. قبل أسبوع واحد كان هنا في القبو تحتك تماماً. ثم ودعوه بحفاوة بعد أن استقبلوه أحلى استقبال. أما أين أرسلوه، فسرٌّ أمني.

هذه حدودي، قال الخوري الشاب ونصح الخالات والعمات بمراجعة المطران جبراييل، غبطته مختص بهذه الإشكالات الأمنية، يعرف مسؤولين وأشخاصاً مهمين، وسبق له الخوض في قضايا لمعتقلين مسيحيين سياسيين.

هذه المرة احتطن، طلبن من المطران جبراييل البحث عن جميل المسيحي لا جميل المسلم. المطران جبراييل يترفع عن مخاطبة مديري الفروع، ذهب وخاطب القيادة القطرية فدفشوه إلى وزير الداخلية، ودفشه الوزير إلى غيره، وغيره إلى غيره، فحاص ولاص بين المسؤولين والرجال الأمنيين. المسؤولون حذروه، القضية أمنية بحتة، ابتعد عنها. أخيراً عندما عرف بالفرع المعتقل فيه، كانت النتيجة أكثر من مخيبة، أعلموه بأن القضية برمتها لا علاقة لها بالكنيسة، المتهم خارج سلطتكم الروحية، مسلم ثبتت صحة إسلامه. المفاجأة لم تدعه يتابع جهوده، لكنه سيبذل إمكاناته الروحية كلها:

«سأصلي لولدكن، إذا كان ما يزال مسيحياً، الصلاة ستريحه وتخفف عنه في محنته، وتطلق سراحه».

«وإذا كان مسلماً؟».

«اسألوا المفتي».

تبادلت العمات والخالات الاتهامات: أنتنَّ السبب، دللتوه؛ بل أنتن السبب، سيختوه. ومع أنهن تركنه للعناية الإلهية، خامرتهن الشكوك، قلوب النساء دليلهن، إذا كان جميل ضعيفاً في مسيحيته، فكيف يكون قوياً في إسلامه، ويضحي بنفسه من أجل بنت محجبة لم ير شعرة من رأسها؟! لم يبق أمامهن سوى البطرك، هو الوحيد القادر على إيصال ظلامتهن إلى الرئيس. لكن البطرك والمطارنة ومعهم الكنائس برمتها كانوا مشغولين، بماذا؟! الحبر الأعظم، بابا الفاتيكان، يوحنا بولس الثاني سيزور سورية.

لم يضيِّعن الوقت، ذهبنَ إلى الفرع، وقابلنَ الضابط رئيس الفرع، وطلبنَ منه رؤية ولدهن: نعلم أنه موجود لديكم. قال لهن، ليس عندي، وحتى لو كان موجوداً، فالمقابلات ممنوعة، على كل حال، ابحثن عنه في غير هذا المكان. طردهن قبل أن يتوسلن إليه. عند الباب توقفت جانيت الرقيقة، وقالت برقة متناهية:

«إذا لم تعده إلينا خلال يومين، فسوف نطلب تدخل دولة الفاتيكان».

«دولة الفاتيكان، أين موجودة؟» تساءل ساخراً.

«في روما».

«وأين روما؟».

«في إيطاليا».

«استعيني بإيطاليا».

«لماذا بإيطاليا؟».

«لأنها أكبر. واسألي عن برلسكوني».

«لا، قداسة البابا فقط».

الضابط رئيس الفرع، كان جاهلاً بزيارة البابا، فلم يهتم، رؤساء دول ووزارات ومبعوثون دوليون بحق وحقيق سألوا عن معتقلين وأنكرت الحكومة وجودهم. لم يأخذ وعيدها على محمل التهديد، عجوز ضئيلة الحجم ورقيقة، إذا كان بمقدورها إقناع قداسة البابا بالتدخل لإطلاق سراح شاب نمام ولقلوق، مثير مشاكل، فهل ستسافر لعنده أم تستعطفه بالبريد؟

على أنه في اليوم التالي، سيأخذ تهديدها على محمل الخطر الداهم. العجوز الشمطاء، لم تلوح بالفاتيكان عبثاً، الحبر الأعظم سيحل في دمشق بعد يومين، تبلّغ الخبر وصعق، لم يكن يتابع الزيارات الرسمية إلّا بحكم عمله، كان أحد المكلفين بتأمين الحماية الأمنية للزوار الرسميين، وهذه المرة لموكب البابا الذي سيزور دمشق لمدة أربعة أيام.

****

أعلنت الحكومة عن زيارة البابا منذ أشهر. وقبل أيام أخذت الجهات الرسمية المعنية بالاستعداد على أعلى المستويات، بينما في الشوارع والحارات، تدلت الزينات من شرفات المنازل، وملأت اليافطات شوارع باب توما وباب شرقي وباب كيسان، مقار البطريركيات الثلاث. الكنائس الشرقية أخذت تستعد لاستقباله. أما بطركية الكاثوليك وسائر المشرق فأعدت للزيارة التاريخية بطباعة صور البابا على القمصان والطواقي.

وبما أن إحدى المهمات الموكولة إلى الضابط مراقبة اليافطات المكتوبة، فقد زادته قراءتها ثقافة وعلماً ومعلومات تاريخية ودينية، فعرف أن المسيحية ولدت في الشرق وانطلقت إلى أوروبا والعالم أجمع؛ والبشارة المسيحية بدأت من دمشق القداسة، وأنطاكية العظمى. هذا ما كتب بالخط العريض ورفرف في الأعالي، وإن خامرته الظنون، مسيحيو سورية مثل مسلميها يبالغون بأدوارهم الدينية. وفي الطرف الآخر، وهو الأهم، فقد كانت الإجراءات الأمنية مشددة، ولا ينبغي وقوع أي خطأ، الرئيس سيستقبل البابا.

ما الذي يمكن أن تقدم عليه عجائز مخبولات؟! وتخيل فوراً وفدهن المؤلف من خمس نسوة مقوسات الظهر يحثثن خطواتهن بين الجموع، يحملن شكواهن على أكتافهن كصليب، يرفعنها إلى البابا، مترجمة أو يترجمنها له، يأخذها ويسلمها إلى الرجل الذي يمشي إلى جواره وبيده الحل والربط. من هو؟! طبعاً الرئيس. ومع أن المنظر ليس إلّا تخيلات جاءته على عجل من وحي تهيؤاته عن المسيح والجلجلة والآلام والصلب، لكنه قد يصبح حقيقياً. من بوسعه أن يمنع عجائز طاعنات في السن من التصرف على هذا النحو الجريء الخبيث المتناهي في المسكنة والاستعطاف؟!

دون إمهال، اتصل بالموظف الكبير وأخبره: لا أستطيع إبقاء المعتقل في الفرع على مسؤوليتي الشخصية، خذوه، دبروا له مكاناً آخر، وإذا سألتني رأيي، فالأفضل أن يبات اليوم في بيته. الموظف الكبير هون عليه: لا تخف، الولد معتقل بموجب أدلة واضحة. فقال الضابط: إذا لم تجدوا حلاً لقريباته العجائز، احتجزوه لديكم. اتصل الموظف الكبير بشركائه، فاقترحوا اعتقال العجائز الخمس قبل مجيء البابا. الموظف الكبير تردد ثم نقل الاقتراح شخصياً، هذا الاقتراح لا

يجوز إبلاغه عن طريق الهاتف، ربما جهاز آخر يتنصت.

دون تردد رفض الضابط، لأسباب كانت أكثر من وجيهة: مهما كان حرصنا بالغاً، لا أضمن ألّا تعلم الكنيسة، أعطوني مسوغاً معقولاً لاحتجازهن أربعة أيام، البابا سيعلم باعتقالهن قبل انتهاء زيارته حتماً، إلّا إذا احتجزنا جميع العاملين في البطريركية من أصغر خوري إلى أكبر خوري مع المطارنة وعلى رأسهم البطرك. عندها لن يلتفت أحد إلى احتجاز العجائز، اختفاء الجهاز الكنسي سيشغلهم عما عداه.

الموظف الكبير لم يفهم ما الضجة التي سيثيرها اعتقال عجائز على حافة قبرهن؛ إنهن في حكم الأموات!! فقال الضابط: لو كنَّ مسلمات لهان الأمر، لكنهن مسيحيات. اعترض الموظف الكبير، جرت هنا في البلد والمنطقة عشرات المؤتمرات الإسلامية ولم يفتح أحد فمه ويطالب بآلاف المعتقلين المسلمين، لماذا التمييز؟! قال الضابط، أنا لا أميز، أوروبا هي التي تميز. قال الموظف الكبير: هذا تحيز.

قاده الضابط من يده إلى الشرفة، أعطاه منظاراً مقرباً؛ انظر، مسيحيونا يرفعون لافتات يطالبون البابا بالعدالة، وإدانة الاحتلال الإسرائيلي والإرهاب الصهيوني. اقرأ اللافتات الجانبية، يسألونه: أين السلام في أرض السلام؟ قال الموظف الكبير: دائماً كان مسيحيونا مخلصين للبلد. فقال الضابط: ما رأيك أن يرفعوا لافتات يلتمسون فيها من البابا الإفراج عن عجائز مسنات، وليس عن آلاف المعتقلين هناك في إسرائيل؟! قال: لا تكبر القصة، المعتقلون في السجون الإسرائيلية أهم من معتقلينا. قال الضابط: ما أدراك كيف يفكر

البابا؟ قد يهتبل الفرصة ويرضي المسيحيين بعجائز، يحسبهنَّ علينا فتيات بعمر الورود، لئلا يأتي على ذكر فلسطين المغتصبة ووحشية الإسرائيليين. صدقني، إذا تمكن رجالنا من لفلفة اللافتات في الوقت المناسب قبل أن تلمحها عيون مرافقي البابا، فلن تفلت من الصحافة، ويتسرب الخبر إلى القنوات الفضائية، ونحصد فضيحة عالمية تنسف حوار الأديان من أساسه، وهي سانحة دنيئة لن توفرها الصحافة العالمية والناطقون الرسميون باسم البيت الأبيض والبنتاغون وحقوق الإنسان والصليب الأحمر. ما الخطر الأمني الذي تشكله عجائز مسكينات، أصغرهن قاربت السبعين من عمرها؟!

وأيضاً، ليكن في علمك، وهو الأدهى، لن يغفر الرئيس للمخابرات ارتكابها حماقة تتجاوز كل ما ارتكبه الأمن من حماقات، ومتى؟! عشية زيارة البابا لدمشق. هل تنقصنا فرية اضطهاد النصارى العرب وإرغامهم على اعتناق الإسلام؟! ولن يكتفوا بهذا القدر، سينسج الحاقدون أكاذيب مروعة عن الأجواء المتطرفة المشجعة على الإرهاب، ويدّعون أننا ندفع الشبان المسيحيين نحو التحول إلى مسلمين إرهابيين، ويتهمون أيضاً السلطة بالتضييق على النصارى المسالمين العاجزين عن الهجرة! ما الذي سيحل بالوجه الحضاري لسورية، والتآلف الديني القديم والمتجدد، والتآخي الإسلامي – المسيحي؟!

لم يستهلك الأخذ والرد أكثر من نصف ساعة، بعدها استشار الموظف الكبير شركاءه وعاد لاهثاً ومرعوباً: إياك أن تمس العجائز بسوء، أفلت الولد المعتقل بأقصى سرعة. فاستراح الضابط، قدروا أخيراً سوء موقفه على الوجه الصحيح. أرسل أوامره إلى القبو: أطلقوا سراح جميل عجنوني، مع التعليمات الطارئة الخاصة بهذه

الأحوال، إتلاف كل ما يخص التحقيق، مع القيام بالإجراءات الاعتذارية على أكمل وجه قبل إطلاق سراحه. وكانت الإجراءات معروفة، جلسة مطولة مع المشتبه السابق يروقونه بكاسة عصير برتقال محضر من مسحوق التانغ المشهور مع باكيت دخان حمراء ويعتذرون منه عن الخطأ الحاصل معه، ويعدونه بإعادته إلى وظيفته، أو إيجاد عمل أفضل، حسبما يختار. وربما أقنعوه بالعمل لديهم؛ مع هذه الموهبة، لماذا لا يكون أحد مصادر معلوماتهم؟! ثم يوصلونه إلى بيته معززاً مكرماً، أو يعطونه أجرة تاكسي.

في اليوم التالي، عشية بدء الزيارة، وكان الضابط مشغولاً كلية بالتحضيرات، وتوزيع العناصر حسب مخططات الأماكن التي سيحط فيها البابا ويرتادها ويمر بها: المطار، القصر الجمهوري، السفارة البابوية، الشوارع المؤدية إلى كنائس الطوائف المسيحية، ملعب العباسيين، سوق الحميدية، الجامع الأموي، القنيطرة؛ يلزمهم جيوش من عناصر الأمن بالملابس المدنية. لا بأس، الجزء الذي يخصه من الحماية كان تحت السيطرة تماماً. أحس بالتعب، ليلاً سيحظى بساعات من النوم العميق. لكن النعاس مع النوم طارا من عينيه، إذ قبل أن يغلقهما، أعلموه بأن الموقوف لم يتزحزح قيد خطوة واحدة من القبو بعد.

لماذا... مات؟! لا.

قدماه متورمتان من الفلقة؟ لا.

رجله مكسورة؟ لا.

في غيبوبة؟ لا.

متجمد، يتكتك من برده، غبَّ رطوبة ؟ لا.

ألا يستطيع المشي أو الزحف؟ لا.

سيدي، المشكلة ليست في المشي ولا الزحف ولا حتى في الرطوبة أو الغيبوبة.

ما المشكلة إذن؟! حصلت خناقة.

عندما وقع بصره عليه، كما توقع تماماً، الولد هيئته أشبه بالعجينة!! الوجه مهشم، بحاجة إلى ترميم وعملية تجميل، العينان تجمد بؤبؤاهما، يلزمهما حالٌ للتجمد. حول العينين هالتان زرقاوان، يتعين تفشيشهما. الكدمات تبقع جسده، ربما بالمغاطس سترتد البشرة إلى لونها الأساسي. هناك كسر في عظم الفخذ، وتمزق أربطة المعصم الأيمن.

كم من الوقت يلزم لإعادته إلى حالته الطبيعية؟ شهر على الأقل.

ما الذي حدث بالضبط؟! أحد العناصر ضربه ضرباً مبرحاً.

هل تمرن به؟! لا، وقع خلاف بينهما.

ماذا يطلق على هذا العمل، سادية، حيوانية، وحشية؟! لا، عملية انتقام.

لماذا؟! استفز المتهم مشاعر عسكري قروي؛ عيره بالتجاوزات الجنسية الواقعة على البهائم في بهيم الليل.

ليست المشكلة في إخفائه، بينما المطلوب إظهاره. لكن كيف يطلق سراحه بمنظره هذا المجعلك والمطبش؟! هل ثمة دليل أكثر إقناعاً من حالته؟! عالجوه، قالها وانصرف يائساً من العلاج. لا مفر، أصبح

على سباق لعين مع العجائز، في الوقت الذي يسعى فيه إلى حماية البابا، سيكنَّ في إثره يسعين إليه، لا جدوى من تهدئتهن بالمعروف أو غير المعروف. وإنما في إبعادهن عن قداسته.

هل يقبلن بتعهده تسليمهن ولدهن سالماً، حياً يرزق، خلال شهر؟! لِمَ ليس الآن؟! هذا ما سيقلنه. أضف، ما الذي تتميز به عجوز في سنواتها الأخيرة الحرجة، والمنية تقترب منها؟! التطير والعناد. فما باله بخمس؟!

قداسة البابا

هبط الحبر الأعظم في مطار دمشق الدولي مع كرادلته وبطاركته واستقبلهم رئيسنا الشاب، وقفا معاً على منصة الشرف، عُزف النشيد الوطني للفاتيكان، ثم النشيد الوطني السوري، استعرضا حرس الشرف، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة.

على مرمى بصره، كانت مراسم الاستقبالات تسير على ما يرام. البابا والرئيس يصافحان غبطة البطاركة والمطارنة والقساوسة وسماحة مفتي الجمهورية والمشايخ والسادة السفراء. أحس الضابط بتوتر، لم يأمن ألا تبرز واحدة منهن وتهجم على يد البابا، تقبلها وتغسلها بدموعها، تهمس له، وتعطيه ورقة صغيرة، وبدوره يعطيها إلى الرئيس، الذي لن يتأخر عن إظهار غضبه باقتلاع مبنى الفرع من شرشه، ومحاسبته بشدة على تحويله إلى مركز لتجارة رابحة؛ استثمار المعتقلين بالمقايضة عليهم بالمنافع.

كان قد وزع عناصره، ونبه عليهم منع المدنيين من الاقتراب، خاصة العجائز منهن. لمزيد من الأمان، عمم أوصافهن مع الحيطة، فشملت أية امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها؛ امنعوهن بكياسة وعرقلوهن بمنتهى الأدب. بيد أن وفد الخالات والعمات، لم يأت إلى المطار، ربما تأخرن على الطريق، أو لم تخطر لهن فكرة استقبال البابا.

في قاعة الشرف ألقى الرئيس خطاباً رحب فيه بالبابا، وقال بأن الشعب السوري يعبد الإله الواحد ويستمد منه العون، سورية موطن التسامح والمحبة وملجأ المضطهدين وملتقى الأديان السماوية، وأعلن تمسكه بالسلام العادل والشامل الذي يعيد الأرض إلى أصحابها. ثم ألقى البابا كلمته ووصف دمشق بأنها درة الشرق، جاءها حاجاً، وفكره وقلبه يتجهان إلى شخص شاوول الطرسوسي، الرسول العظيم بولس، الذي تغيرت حياته للأبد على طريق دمشق. ودعا القادة السياسيين والروحيين في المنطقة إلى العودة إلى مبادئ الشرعية الدولية، وأمل أن يكون حجه صلاة رجاءٍ مضطرمة تساعد على تحويل الخوف بين شعوب المنطقة إلى ثقة، والازدراء إلى احترام متبادل، وتراجع القوة أمام الحوار. بعدها اصطحب الرئيس ضيفه إلى قصر الشعب.

لم يقم الضابط وزناً أمنياً لزيارة البابا لقصر الشعب، لا مخاوف من متسللين أو مندسين، الحراسة جيدة، والشعب لا يدخل إليه أصلاً. مساءً، تابع قداسة البابا خطوة خطوة، على خطى بولس الرسول، في بداية حجه على الطريق المستقيم، ولاحق سيارته الخاصة «بابا موبيلي» المجهزة بكابين زجاجي ضد الرصاص. البابا في داخلها يلوح للمؤمنين المرحبين به والمهللين له على طول سوق «مدحت باشا»،

الاحتمال كبير في أن يحصل شيء؛ الموكب يتحرك في منطقة مزدحمة غير مأمونة.

على حين غرة، من بين الهرج والمرج، لمحها تترك الرصيف وتنزل، ربما كانت جورجيت أو أنطوانيت أو فيوليت، تقدمت خطوة واحدة، عرجت بقدمها اليمنى، تعثرت وانزلقت على الأرض. توقفت سيارة «بابا موبيلي». كانت قد استلفتت أنظار البابا، بدا وكأنه سينزل من السيارة ويقيلها من عثرتها. بلمح البرق، اندفع الضابط كالمجنون صوبها، أنهضها أحاطها بذراعه وقادها بلطف إلى الرصيف، فيما تعلقت عيناها الدامعتان على البابا الذي غاب بسيارته. أسلمها الضابط إلى العناصر، قال لهم أكرموها. اقتادوها إلى أحد المحلات المفتوحة، أجلسوها على كرسي، نفضوا ثيابها مما علق بها، قدموا لها الماء وضيافة تشكيلة سكاكر وكمشة ملبس وعلبة راحة. من بعيد، ألقى نظرة عليها. ترى هل هي إحداهن فعلاً، أم أن الأمر مجرد تشابه؟ ابتسم، لا يهم، كسبت الضيافة.

عند باب كيسان، ترجل البابا من السيارة، الأهازيج وموسيقى الكشافة التعظيمية تحف به، الناس يتدافعون نحوه ومن حوله، يباركهم، يصافحونه ويقبلون يديه. في العجقة تحدث المفاجآت، لم يخب ظنه، لمحها تتسلل من بين الجموع، ربما هي جانيت الرقيقة التي هددته! مدت يدها، لوحت بها وكأنها تطلب نجدة. لم يتسع الوقت ليتأكد، أعطى إشارة لأحد عناصره فاعترضها، وبمنتهى الرقة تراجعت واختفت في الزحام. التفت نحو الخلف، ورأى الحبر الأعظم بوجهه النوراني يقترب منه، ينظر إليه ورأسه يهتز، حار في تفسير نظراته، هل كان يشكره على حمايته، أم أنه ضبطه بالجرم

المشهود؟ لا، البابا لا يرى أبعد من أنفه النوراني. انحنى مفسحاً له الطريق متظاهراً بالخشوع مبعداً الشبهة عن نفسه.

في الكاتدرائية المريمية، كنيسة الروم الأرثوذكس، استُقبل البابا بالتراتيل الفصحية، فيما كانت عناصر الأمن ترصد المكان، لا عجائز مشبوهات. لم تخفَ على الضابط خطتهن، التوزع على طول الطرق التي يمر بها البابا، وكل واحدة تقوم بأداء المهمة نفسها، ربما أفلحت إحداهن في إيصال الشكوى إلى البابا. مهما يكن، قاربت جولة اليوم على الانتهاء.

في اليوم التالي، موعد القداس الاحتفالي الضخم المقام في ملعب العباسيين. الاستنفار على أشده، كان المكان المتسع مثالياً لظهورهن بتعدادهن الكامل. إذا كانت خطتهن ما زالت على حالها، فسوف يتبعثرن في المدرج وينطلقن من جهات خمس لتنفيذ المهمة، ويخترقن الملعب من خلال خمسة مسالك. فكر، للملعب أربعة أضلاع!! من أين ستتقدم الخامسة؟! من الضلع الخامس، هل لمستطيل أو مربع ضلع خامس!! أجال بصره حانقاً، لا شك أنها تراقبه وتتربص له عند ذاك الضلع غير المنظور، وقد تمر أمام عينيه متسترة بدرب غير سالك دون أن يراها، وتنجح بالوصول إلى البابا. لم يعد واثقاً من قدرة العناصر على إحباط خطة تحتوي على ضلع لا وجود له، منه ستنطلق إحداهن!! اضطرب، لم يبق غير السماء، ستهبط من هذه الزرقة الفاتحة.

موكب الحبر الأعظم يطوف أرجاء الملعب، الشبان المنظمون بستراتهم الخضراء يحيطون بالساحة، أعلام سورية والفاتيكان ترفرف، لافتات ترحيبية، وهتافات «بالروح بالدم نفديك يا بشار»

«إيمان رجاء محبة». البابا يرفع يده محيياً دون تمييز، عشرات الآلاف من المؤمنين ومعهم الملحدون والفضوليون والمشكوك في إيمانهم. راعى الرسميون وممثلو وسائل الإعلام المحلية الأجواء اللاهوتية المهيبة المهيمنة على الجمع الغفير، ولم يطالبوا بالمزيد من الهتافات. عناصر الأجهزة الأمنية المكلفون بالحماية حلقوا ذقونهم ولمّعوا أحذيتهم وأخفوا أسلحتهم، كيلا يؤذي مظهرها القتالي مشاعر البابا المتجول في العالم ينشر رسالة السلام بين شعوب الأرض قاطبة.

لم يقلل الضابط من هيبة المنظر الروحاني، وإن كان له رأي آخر في مغزى عدم ظهور الأسلحة الاستفزازي، ليس لأنها أدوات قتل وتدمير، الأسلحة حيادية، لا دين ولا ذنب لها، والدليل على براءتها: لم تتوان جميع الأديان عن استخدامها لتدحض بها حجج مخالفيها.

رغم تبرئته للأسلحة ورأيه القاسي بالأديان، التي استدعتها صفنته التأملية، كانت نظراته تنبش المدرجات، تنقب بينها، وتتصفح وجوهاً بدت نقاطاً سوداء في بحر زاخر بالمشاعر الطيبة والابتهالات ويموج بالرايات. أحس بنشوة لا علاقة لها بالأسلحة، نشوة تخيلها روحية، وإلّا ماذا تكون؟! وصوت البابا يسري في الهواء:

«شاوول شاوول، لماذا تضطهدني؟ فأجاب: من أنت يارب؟ أنا يسوع الذي تضطهده، انهض وادخل المدينة، فيقولون لك ما يجب أن تفعله.

إنني أتيت اليوم إلى دمشق حاجاً، لكي أحيي ذكرى حدث جرى

هنا منذ ألفي سنة، حدث اهتداء القديس بولس، وهو في طريقه إلى دمشق لمقاومة الذين يعترفون باسم المسيح، ليقبض عليهم ويسجنهم. وبينما هو قريب من أبواب هذه المدينة، اختبر شاوول نوراً عجيباً. فتراءى له على الطريق يسوع القائم من الموت.

تحت تأثير هذا اللقاء تغير بولس تغيراً جذرياً: فمن مضطهِد إلى رسول، ومن معاد للإنجيل إلى مُرسَل....».

الجوقات ترتل الأناشيد الدينية، الحبر الأعظم يوزع القربان المقدس على المشاركين. أعلمه عناصره باكتشاف أمكنة جلوس العجائز، وضربوا من بعيد حصاراً حولهن، لن يسمحوا لهنَّ بالتقدم نحو الساحة، لكن عددهن أربع. أين الخامسة؟! اكفهرت ملامحه، الضلع الخامس!! عندئذ رآها تتسلل من بين خطوط تماس الحصارات المضروبة حولهن، وتتقدم أكثر من مرة من الثغرات الأربع؛ تظهر مرة من اليمين ومرة من اليسار، يضيعها من طرف ليجدها في الطرف الآخر. هل كان يتخيل؟! اندفع إلى البابا، ووقف على مقربة منه. رافقه، يقف فيقف، يخطو فيخطو. عيناه تلوبان تخترقان البشر، أين هي؟! ثمة شيء غير مرئي، كيف يراها إذا كانت غير مرئية؟!

لم يطمئن إلّا عندما توجه البابا نحو المخرج، سار وراءه إلى أن غادر الملعب وتركه بأمان، بمنتهى الأمان. لم تظهر الخامسة، البابا باركه، وأنقذه من مفاجأة غير منظورة كادت أن تكون ملموسة؛ تلك كانت إحدى عجائبه!

في طريقهما إلى البطريركية الكاثوليكية، عاوده التوجس، تعقب

الموكب بحذر وهو يمضي على مهل، يخوض في كمين متحرك يتعرج من منعطف إلى آخر، لدى كل خطوة قد تبرز امرأة عجوز من مكان ما، وتنقضّ عليه.

طال الطريق وامتد من باب توما إلى حي الزيتون، الرجال والشباب والنساء والأطفال يملأون الأرصفة على الجانبين يرشقون البابا بالأرز والقرنفل الأبيض ويطلقون الزغاريد، هل ثمة من مفاجأة ستندلع من أزقة باب توما؟! لم يطل الوقت عندما اندفعت فجأة مثل معتوهة، تبكي وتشير بيدها للموكب، وباليد الأخرى تمسك بمظروف، وعلى الرغم من ضآلتها لم تتمكن من شق صفوف المتزاحمين، وريثما أفسح لها المتجمهرون درباً، كان الضابط قد وصل إليها، نتش المظروف من يدها، ودسه في جيبه، قائلاً لها، خالة لا تتعبي نفسك، سأسلمه إلى البابا. علا بكاؤها، فهمت ما قاله: عودي، لا تريني وجهك ثانية. طلب من العناصر إبعادها. مد يده إلى جيبه ليطلع على محتويات المظروف قبل أن يمزقه، لم يجد سوى قرنفلة بيضاء!! يا إلهي...قرنفلة!! أدرك أن وسواس العجائز قد ركبه، بات يرى في كل عجوز واحدة منهن.

ما الذي تبقى من برنامج جولة اليوم؟ كاتدرائية السريان الأرثوذكس والجامع الأموي. لم يظهرن في الكنيسة ولا في الجامع، لا بد أنهنَّ يعدن النظر في خططهن. سيحاولن الظهور لكن هل يتجرأن، أم كل هذا أوهام، يهذي بهن، في حين لا وجود لهن؟

في اليوم الثالث صباحاً، لن يصغي إلى الأوهام ولن يطمئن إلى الحقائق، سيواصل رحلته مع البابا، ويواظب على اقتفاء خطواته، مثلما واظب البابا على اقتفاء خطى بولس الرسول إلى المكان الذي

هرب منه خوفاً من بطش اليهود، الكنيسة الواقعة على الأسوار والمسماة باسمه، كنيسة القديس بولس. تعقبه إلى الطبالة إلى المغارة التي اختبأ فيها بعد هروبه من باب كيسان، وزار مقامه التذكاري دون أن تظهر العجائز مجتمعات ولا متفرقات. ومن بعدها سيلاحق الموكب إلى مدينة القنيطرة، هناك بين الأنقاض والركام سيصلي البابا، ويدعو قادة المنطقة إلى تلبية تطلعات شعوبهم في السلام.

هل فقدن الأمل؟ لا. ما زلن في إثر هدفهن، ليس وسواساً، الطبيعي تخلفهن عن مشوار متعب وطويل؛ والطبيعي أيضاً، تغيبهن عن لقاء البابا مع الشبيبة مساء في بطريركية الروم الكاثوليك. لماذا؟ لأنهن ودعن الشباب منذ عشرات السنين. وكما توقع أيضاً لم يظهرن في كنيسة السريان الكاثوليك، ربما لأسباب عقائدية. لم يرق له تواريهن طوال يوم كامل؛ عموماً، لا بد أن يحتاط، ربما كان الهدوء الذي يسبق العاصفة.

ترى، هل يعرفن أنه غداً، مع صباح اليوم الرابع، عندما سيبدأ البابا باختتام زيارته تكون مهمته قد انتهت مساء اليوم، أي انتهت الآن؟! لن يقف أمام السفارة البابوية ليرافقه إلى المطار، ولن يشهد وقوفه على المنصة، وتلويحته الأخيرة من على سلّم الطائرة. حسب البرنامج، سيغادر البابا صباحاً، بعد استقباله بعض رجال الدين. على التأكيد، إذا تابعن فسوف تتوفر لهن فرصة، سينتهزنها ويقابلنه عقب خروجه من السفارة قبل انطلاقه إلى المطار مسافراً من دمشق إلى مالطا، وسيعلم الرئيس بقصتهن، قبل أن يعتلي البابا المنصة؛ ويضيع تعبه هباء. وبات على سباق مع الهدوء قبل هبوب العاصفة.

****

صباحاً باكراً، انطلق الضابط إلى باب توما، قرع الجرس، فتحت جانيت الباب، لم تخب ظنونه، رآهن مرتديات ملابس الخروج، في باحة الدار المحاطة بأشجار الليمون والنارنج والمشمش الهندي، وأحواض نباتات الخبيزة والختمية والبابونج والمليسة، وبتشكيلة غريبة من النباتات الطبية متعددة العلاجات من الصداع والأرق إلى النفخة والإمساك. جالسات يشربن القهوة حول البحرة الصغيرة وعلى استعداد للمسير، قطعاً: نحو السفارة البابوية.

كان على صواب، التصميم باد على ملامحهن، وهنَّ ينهين بحزم اللمسات الأخيرة قبل الانطلاق. يعدلن بحركات واهنة ثنية الثوب، استواء الياقة، تهدل الشال، لمعة الحذاء، بعدها أخرجت كل واحدة منهن كيس أدويتها، وضعت بضع حبوب في كفها، وسفّتها مع الماء. عللن بكلمات سحبنها من صدورهن، كلمة إثر كلمة، سبب عدم انتظام ملاحقتهن للبابا وتغيبهن البارحة عن الموكب: إجمالاً الأسباب صحية. فتلامحت الأمراض بأنواعها العارضة والمزمنة، الروماتيزم والسكر والضغط وأوجاع الظهر والقلب والربو... والنسيان أيضاً. أمراض خيمت على الفضاء الرخيم، وفاحت أعراضها على الوجوه المتغضنة والأجساد الهضيمة. في حين لم تفتر زقزقة حسونين يلغوان بين جدران عرشت عليها الزخارف والعساليج المزهرة، ورواء صباحات مشبعة بنداوة شفافة، وماء يضج بتألق ألوانه وفوحان روائحه. في هذا الجنة الصغيرة ترعرع الولد بين حوريات خمس، لا يتقنّ شيئاً سوى الثرثرة، فن تعلمه وتفنن به، لكنه ارتكبه في بلد يعيش على الكتمان.

لم يخْفَ عليه، كانت صلافتهن قناعاً يدارين به هلعهن، هذه الأمارات الخفية، غير مخفية، وقد تساعده في التغلب عليهن. هو

أيضاً أخفى عجزه وراء قناع مخابراتي، مع أنه لم يستخدمه؛ لم يقتحم البيت، قرع الجرس ودخل مأواهن من بابه، جاء بغرض المصالحة، لكن قبلها سيعرض حججه، ويسألهن مسامحته حسب دينهن، لا مفر من إنهاء نزاعهما على حساب ولدهن. لن يعتذر عما جرى باضطراره إلى تنفيذ الأوامر. تكلم في الرئيسي وعرَّج على التفاصيل، ما أصاب جميل من توقيف وتحقيقات، ليس للسياسة ولا للطائفية أو الأحقاد فيه نصيب، جميل بالذات، السبب فيما حلَّ به، كان لا بد من إسكاته ولو بالقوة، وبقسوة أيضاً، قصرتم في تربيته، فبات علينا تأديبه ومنعه من الاعتداء على أعراض الناس، وتطويل لسانه على آخرين يجهلهم، لم يلتق بهم أو يرهم في حياته، لماذا يشوه سمعتهم وينشر خصوصياتهم على الملأ؟! حتى أنه لم يوفر في المعتقل، مجنداً جاهلاً من لدغات لسانه. ما الذي حدث؟! ضربه المجند ضرباً مبرحاً، بينما فركة أذن كافية، وما جرى له لا شيء بالمقارنة مع ما أصاب غيره من جراء ارتكاب ذنوب أقل، لو أننا تركناه للذين آذاهم لقتلوه، لقد حميناه منهم.

بان الرفض في عيونهن، لم يقبلن تفسيره ولا عذره ولا حمايته. قالت جورجيت، تحاسب ابننا على أقاويل، هل هو خائن ، والآخرون هم الوطن؟! قال: لستم الأقدر حكماً على ما اقترفه. قالت: إذا كان مجرماً، فنحن ومعنا الجيران والحارة، وحارة الحارة، نمارس الجريمة ذاتها منذ تعلمنا الكلام.

تهتك دفاعه الضعيف، حسناً فليعترف بخطئه، لا بخطأ ولدهن. فكر، من أين يبدأ ثانية، هل بالأسلوب الرسمي: أيتها السيدات الموقرات، ثم يستعرض عمل الفروع الأمنية، لو لم تكن موجودة، لتجرأ الجميع على الجميع، ولما كان كلانا، الجهاز وأنا ممثل الجهاز،

موضع اتهام. الأمر أكبر منه ومني، يتصل بمصالح الدولة العليا، ولا بد من وقوع أخطاء، هذا واحد منها. ما الذي سيفهمنه؟! لا شيء. الأفضل زجهن في حلقة محكمة ومفرغة، على هذه الشاكلة: الأجهزة آلات تشتغل وحدها حسب برنامج موضوع سلفاً، أنا وغيري قطع صغيرة في داخلها نعمل لحساب الدولة، الضرر الذي وقع على ابنكم، لأن الآلة تدور وليس بوسعنا إيقافها. أنا مرغم، إنها وظيفتي وعملي، أرسلوا جميل إليّ فوضعته في الآلة، قامت بعملها، فجرى اتهامه، صادف أنه كان مسيحياً، غير مهم، الآلة لا تستثني أحداً. أنا الآن هنا، الآلة هناك تعمل في غيابي. بعد قليل، سأذهب، اعذروني، يجب أن أكون على رأس عملي. سيداتي، اشكرن الله على أنني سأعيده إليكن في التو واللحظة.

شملهن بنظراته، التطرق إلى الخطأ لا يجوز، الجهاز لا يخطئ. كذلك موضوع الآلة عسير، لن يدخل إلى رؤوسهن، فوفره عليه وعليهن، لم يعد هناك سوى الفقرة الأخيرة، ذهب نحو الباب وخرج، بعد قليل عاد ومعه الولد المدلل مستنداً إلى ذراعه، يعرج مجبّر الفخذ ومربوط المعصم، بحالة أفضل من العجينة التي كانها قبل أيام. أفلته فهرعن إليه، أحطن به، عانقنه وأخذن يقبلنه، أجلسنه على كرسي وأخذنَ يتلمسنه. قال الضابط، بعد أن هدأت عواطفهن واضطراب مشاعرهن:

«الله يغفر، المسيح يغفر، البابا يغفر، الكنيسة تغفر، أنتن أيضاً، اغفرن لي».

هطلت على الفور دموعهن مدرارة، يا للعجائز الطيبات، غفرن له، عدا تلك البكّاءة، حبست دموعها، أرادت أن تتكلم، من حسن

الحظ أنها خرساء. تبادر إلى ذهنه، لو تلكأن أو رفضن، ما الذي سيفعله؟! سيدفعنه إلى خيار وحيد، ليس هناك غيره. سيحتجزهن في البيت بضع ساعات، ريثما تنطلق طائرة البابا في الجو.

عاد جميل مواطناً مسيحياً صالحاً، وابناً باراً بالكنيسة وخالاته وعماته، لولاهن ولولا الكنيسة ولولا قداسته لتختخ أولاً في القبو، قبل نقله إلى السجن ليتختخ ثانية.

حروب الحفلات والصور

خرج جميل من أقبية المخابرات بلا سوابق، وبلا وظيفة، عرضوا عليه إعادته إلى عمله مع تحسين وضعه المعاشي. لم يقبل، العمل في الدولة له محاذيره، الدولة أول من يتنكر لموظفيها في المصائب. وعزّى نفسه معتبراً مواهبه الفوتوغرافية ضاعت في الجريدة ولو بقي لدفن معها، مستقبله الحقيقي خارجها. استعان بصديق مراسل صحافي، نصح به عدداً من المجلات الأسبوعية والشهرية داخل القطر وخارجه، طلبوا منه تزويدهم بصور فوتوغرافية ملونة تبرز رقي المدن السورية من خلال نشاطات مجتمعاتها المخملية، كدعاية سياحية لسورية تجتذب إلى مرابعها الليلية السياح الأجانب والمصطافين والمستجمين العرب من الأقطار الغنية.

أدار ظهره لهوايته المريعة، بعد أن ذاق الأمرّين منها. لكنه لم يصبر على البعاد عنها، سرعان ما أعطاها أذنيه من جديد. تجربته القاسية،

لم تردعه، بالعكس هوّنتها عليه، إذا كان قد نجا من سبعة فروع أمنية، فسوف ينجو من نوائب الزمان مهما جارت عليه، لن يصادف أشد ولا أسوأ من علقته مع المخابرات، ألم يخرج حياً من أقبيتهم؟! فارتد إلى هوايته، وإن كان بحذر.

ما أنساه عذاباته وجدد حيويته، أن مصادر المعلومات ما زالت شغالة، النسوة لم يتوقفن عن القيل والقال، فعاد يجمع نمائم الحسد والغيرة، ويبوبها إلى خيانات ناجحة، زيجات مصلحية، اختلاس أموال، سرقة زوجات وعشاق، نهب أرامل، صفقات مشبوهة، شراء ذمم، بيع أجساد، وحقارات متنوعة أخرى. يصوغها بأسلوب إدهاشي، دون المخاطرة بتوزيعها أو نشرها، فتراكم لديه الكثير من هذا القبيل، وأخذ يتراكم ويتراكم. أين يذهب بها؟ لم يطل الأمر، كاد أن يطق وينفجر، ما اللذة في تكديس الأخبار والشائعات، وتأليف قصص من ورائها؟! هواية؟! لا هواية بلا لذة، ولا يمكن الاستمتاع بها إلّا بإطلاقها على الأرض، ولا تكتمل إلّا بسريان أخبار الصفوة بين غير الصفوة؛ وللإيضاح، جميل يعرف أساليب تحقيق المتعة الكاملة، ولكي تتحقق لا بد من بلوغ الذروتين، الواحدة مرتبطة بالأخرى، لا لذة في تجميعها إن لم يلتذ بإرسالها إلى أهدافها؛ الأولى تشترط الثانية، إذا لم يبلغ الثانية لن يتلذذ بالأولى، والعكس صحيح. أي يتعين على طالب المتعة بلوغها مرتين. جميل لم يقاوم صعود الذروتين والتمتع باللذتين، فرجعت حليمة لعادتها القديمة.

سرت أقاويله كالنار في الهشيم!! ليس بهدف إحداث البلبلة، بل لتشنيف الآذان بصيحات الاستغراب وعدم التصديق: مو معقول!! إنها اللذة وقد اكتملت. لم يبخل بمؤلفاته الفضائحية على الموثوقين

من أصحابه، أو من يقصده ملتمساً معلومة فيزوده بمعلومات، وأحياناً إذا كان شارباً بطحة عرق، يفشي أسراراً بالغة الخطورة، لكل من دق معه الكاس، سواء كان سكران أم غير سكران، وقد يحترس، ويهمس بلازمة، يمررها إلى المستمعين، ويشدد عليها: لا تقولوا لأحد، الشغلة فيها خربان بيوت؛ وإذا كانت ثقيلة، الشغلة فيها قطع رؤوس، وغالباً ما يكون التنبيه إذناً بتعميمها.

ما الحجم الذي بلغته قدراته؟! يدلنا عليه مخزونه، عندما يقصده طلاب المكائد والنكايات ليسألوه عن شخص يهمهم أمره، رجلاً كان أو امرأة؛ على أن يكون هذا الأحد معروفاً، أو له حضور في المجتمعات، وليس نكرة أمثال أحمد ربيع الذي ظهر اسمه منذ زمن، ونادراً ما ظهرت صورته. فيشفي غليل السائل مباشرة ببيان مفصل، أشبه بقيد النفوس الصادر عن دائرة الأحوال الشخصية، مواليده، أبوه، أمه، زوجته، أولاده. ويسلسل شجرة العائلة من عميد الأسرة إلى رضيعها. ليس عبثاً أنهم أطلقوا عليه: مختار سورية؛ معلوماته لا تشمل دمشق فقط.

المطلوب أحياناً، مقدار ما يعرفه عن فلان أو فلانة، بشأن خطبة مثلاً، عندئذ تكون المعلومات تفاصيل عائلية عن تاريخ العائلة، أحوال الأب المادية، مستوى الأم، سمعتهما، تربية الأولاد، أخلاقهم، وهو في النهاية عمل خيري، هدفه توفيق رأسين على مخدة. أحياناً ينقلب إلى عمل شرير، من منا بلا خطيئة!!

أما المعلومات الأخرى، فلمآرب أخرى، أهمها كشف المستور، على وزن: فلان أخو فلانة لكن من غير أب، أو فلانة طليقة فلان وبنت عمه؛ أو على وزن أثقل، فلانة هربت مع صاحبها، غابت شهرين

ورجعت لزوجها، أو فلان متزوج على زوجته بالسر وتجمعه علاقة مع السكرتيرة؛ أو السيدة الفلانية عشقانة على زوجها، أو صاحبنا الفاضل انحبس سنتين بقضية أخلاقية، والجماعة نَفَّدوه منها. وأحياناً أعمق وليس أدهى؛ مكان الولادة، أصلهم الريفي، من أي قرية قدموا، كيف نقلوا خانتهم، وغيروا كنيتهم. أو المهنة الأصلية، ثروتهم، كيف جابوها أو سرقوها!! عموماً كل ما يزري بهم، الفضائل لا اعتبار لها، الناس مغرمون بالنقائص، وأحسنها ما يجلب العار والشنار، تبدأ من منابتهم الوضيعة، وفضائحهم المالية، وزيجاتهم المصلحية، ولا تنتهي بالتزوير والاحتيال والتهريب وتزلفهم لأصحاب السلطان.

****

ولئن كانت مهنته كمصور فوتوغرافي مصدر رزقه، فبعد مضي زمن قصير، باتت مصدر معلوماته، والمصدر الرئيسي لها، حتى فكر بالاستغناء عن قنواته الأخرى، لكنه كان أذكى من أن يقدم على هكذا تضحية، قد يحتاج إليهم يوماً، ولقد احتاج لهم مراراً، وتبادل معهم المعلومات والمنافع. مع الزمن يصبح لكل شيء ثمن، من تسهيلات رسمية وهدايا ثمينة وتزكيات وظيفية ومبالغ نقدية.

في عمله، لم يعتمد الفوتوغرافيا الثابتة، إذ لا مكان ثابتاً له، فلم يصور البوزات الثابتة، أو يسلط أضواء وبروجكتورات ويسدل ستائر ويختلق ظلالاً، ويطلب من الزبون تثبيت عينيه على العدسة وأن يبتسم. إنه مصور جوال وديناميكي، في حركة دائمة، الكاميرا تتدلى على كتفه مع محفظة جلدية تحتوي على أفلام وصور وبطاقات تعريف. يتنقل بين المطاعم والفنادق والمرابع الليلية حيث

تعقد الحفلات والسهرات العامة والخاصة. آخر الليل يذهب إلى بيته، وينقل الأفلام من حالتها النيجاتيف إلى البوزاتيف، ثم يصنفها ويرسلها إلى المجلات الفنية والاجتماعية السورية واللبنانية والخليجية، تنشر في الأبواب الخلفية تحت عناوين: دمشق في الليل، ليالي المجتمع، أضواء المدينة، أين تسهر الليلة... إلخ.

يلاحق بكاميرته النشاطات الاجتماعية الترفيهية المنتشرة على قدم وساق في المحلات العامة التي تؤمها شخصيات نافذة، من رجال المال والأعمال والتجار الكبار، النواة الأقوى حضوراً من العائلات الغنية المعروفة، فيسبغ وجودها الرونق على حفلات الزفاف والعشاء، والمناسبات السنوية كأعياد الميلاد والحب والزواج، والاستثنائية كالتخرج من الجامعة والنجاح في شهادة البكالوريا، وغيرها، وتشمل عروض الأزياء ومسابقات مختلف أنواع ملكات الجمال، وعلى رأسها الحفلات الخيرية.

لا ينبغي الاستخفاف بهذه الحفلات، وعلى الأخص الزفاف، المناسبة تحصل مرة في العمر، والغالبية يتزوجون مرة واحدة، الزواج الثاني عادة ما يكون سرياً، والثالث لا يستحق هيصة وزيطة، والرابع لا يحتاج لعقد زواج. فلا ينبغي معاملة الزواج الأول مثل الذي بعده، عدا أن الآباء يدفعون تكاليفه الكبيرة، وقد تبلغ بضعة ملايين. يعزم أصحاب الزفاف وجوه المجتمع والدولة، وأحياناً معارفهم المتوزعين في أرجاء العالم، يرسلون إليهم بطاقات الدعوة مع تذاكر الطائرة ذهاباً وإياباً، وإقامة ثلاثة أيام في الفندق، يستقدمون لإحياء الحفلة أشهر المغنين والمغنيات والعازفين والراقصات. ويبالغون بإكرام ضيوفهم، ويقدمون لهم الأفضل والأغلى والأفخر، من مختلف أنواع المأكولات والحلويات الشرقية والغربية والمرطبات والمشروبات

الروحية، يحتار الضيوف من أيها يأكلون وأيها يشربون وبأيها يتحلون. وهذا لا علاقة له بالبذخ والسفه والإسراف، بل بما يتطلبه الحفاظ على ماء وجه الأسرة، التقصير بالواجب يهدر سمعتها ويحط من كرامتها. المجتمع لا يرحم، بعض الأسر تضطر إلى الاستدانة، وربما الاختلاس لتستر حالها في ليلة الزفاف.

وليس من المبالغة الحديث عن المنافسات بين عائلات مرموقة، تعتبر أبهة هذه الحفلات مقياساً لمكانتها في المجتمع، فالعائلة لا تُعتبر مرموقة إلّا بقدر ما هي مقربة من أعمدة المجتمع الاقتصادي والصناعي والسياسي والعسكري والمخابراتي، مما يؤدي إلى حرب حفلات تشنها العائلات على بعضها بعضاً، لتثبت أنها المقربة أكثر، تستخدم فيها الوسائل الشرعية وغير الشرعية كافة، ودون تمييز؛ يحتل فيها المصور الفوتوغرافي دوراً صغيراً، باعتباره أحد اللاعبين الصغار المساهمين فيها، يؤججونها كلما بردت، بالإكثار من نقل القيل والقال بين العائلات. والمحك، قياس مقدار تفوق حفلة على غيرها من الحفلات، من ناحية التكاليف والتنظيم والجخّ والأكابرية.

هنا ينتهي دور جميل النمائمي، ويأتي دور جميل العملياتي؛ فمن البديهي، استكمالاً للمظاهر، إبراز الحدث السعيد على صفحات المجلات الملونة مصقولة الصفحات، ليعلم أكبر عدد ممكن من الناس، بفرحتهم الميمونة وما أصابهم من بهجة وسرور، وما بحتروا من أموال، وما لبسوا من فساتين، وما عملوا من تسريحات. أخيراً، وهو المطلوب أولاً، وعلى رأس القائمة، ليكيدوا العذال؛ وبهذا تكتمل فرحتهم.

قد يعتقد البعض أن هذا الجانب الإعلاني للحفلات تنويع ثانوي

بالنسبة للمجلات. لا، إنهم على خطأ، هذه الصفحات بالذات تساعد على ترويج المجلة وكسب مزيد من القارئات، أكثر من أي موضوع أدبي عظيم، مهما كان مبتكراً، أو فني خليع مهما كان مثيراً أو خارقاً، فالنسوة اللواتي تظهر صورهن يشترين عشرات النسخ من المجلة، ويوزعنها على الأصحاب والخلان، دليلاً على نجوميتهن الاجتماعية.

الصورة ليست مجرد صورة في مجلة، تظهر فيها امرأة عارية النحر ذابلة العينين، في حفلة رقص وفقش، وإنما تذكار عزيز، يسجل حدثاً مهماً في حياة صاحبة الصورة: يسهم بانتسابها إلى الوسط الراقي، ويعلن دخولها إليه، مُؤرِّخاً بداية خطواتها الأولى في المجتمع المخملي، يؤهلها لتصبح من الوجوه المطلوبة في المناسبات، فتكتسب وصف سيدة مجتمع، ويؤسس لمكانتها المستقبلية، وهي مكانة لا تقف عند حد. فانتبهوا، إياكم والاستخفاف بالصور.

شكّل جميل عاملاً مهماً في إذكاء ما يدعى بحرب الصور بين السيدات الفاتنات، أو الفتيات الطالعات، فسعت كل واحدة إلى تسجيل ظهور أكبر عدد من صورها في المجلات. ويظن البعض، خصوصاً أمثال أحمد ربيع، باقتصار المتصورات على حفنة من السيدات المتصابيات الموسوسات بجمالهن الصارخ وصباهن الدائم، والفتيات المهسترات بالموسيقى الصاخبة والمقروقات بصرعة السهر والأضواء. لا، هذا شائع أيضاً بين من يجري تصنيفهن في عداد السيدات الرصينات، والأمهات الرؤومات وجدات حكايات ما قبل النوم، كذلك فتيات البكالوريا الخجولات والجامعيات الحالمات. ولا يقتصر ولعهن على الليل ومرابعه، ففي السنوات الأخيرة أضيفت إليها مرابع النهار، بعد أن أصبح للنهار أنشطة لا تقل عن الليل، من

صبحيات وجلسات أركيلة وإفطار ومعارض خيرية. ولا تستثنى من هذه الفعاليات، النشاطات الجماهيرية، كمهرجانات السينما والمسرح والمحبة والبادية، والمعارض التشكيلية وغيرها من التظاهرات ذات الصبغة القومية والوطنية.

وطالما تعرض جميل للرشوة، كما يقول، لكن الأمر ليس على هذا النحو، جميل يُعَرِّض نفسه للبخششة، فالسيدات وأزواجهن لا يبخلن عليه بأم الخمسمائة والألف، ليعتني بالتقاط بوزات تُظهر السيدات بلا تجاعيد، والآنسات بلا دفّويات، أي بلا عيوب، فيُبرز جمالهن، وبالأحرى فتنتهن الصارخة. وذلك بالاعتناء بطلّتهن في الصورة فتفوق جاذبيتهن جاذبية فتيات الغلاف. الصورة باقية، والبشر إلى زوال. الصورة دليل حسي على الجمال؛ الجمال في الصورة لا يحول ولا يزول.

يبذل جميل جهداً بالغاً في صوره، يحولها إلى تحف فنية، تباري لوحات عصر النهضة الإيطالية، بأجساد النسوة ذوات الوجوه الطفحة والزنود العارية والبطون المدلوقة والأفخاذ المربربة، والملابس المعجوقة بالدانتيلات والتطريزات، وأساور الذهب وأطواق الألماس. أما الآنسات، فالعكس تماماً، يخلصهن من الشحوم الزائدة، لا يبقي إلّا على الجلد والعظم، وماكياج يبدو خفيفاً، وبشرة بللورية وعيون حوراء ونظرات ملائكية. يزعم بأن ما يأخذه من بخاشيش زهيدة تقدير متواضع لفنه، وليس لبراعته في التغلب على الدفويات بظلال تضفي سحراً على الملامح غير الساحرة، وتزيدها تألقاً وفتكاً.

جميل كشخص لا يستحق أن يأخذ حيزاً كبيراً، وإن أخذت قصصه ومهنته وهوايته أكثر من حيز، فهو لا يزيد عن مصدر، على

شاكلة من يدعى في الصحافة، بالمصدر المطلع، لا تُذكر وظيفته ولا اسمه، كي لا يكون مسؤولاً عن صدقية الخبر أو عدمه. عموماً لولا الحاجة لما قصده أحمد، لأن صداقتهما السطحية لم تعد صافية، بعد مأساة أحمد سالفة الذكر، ولا شك أن جميل ضمه إلى سجلاته الحافلة بالفضائح المتنوعة، ولا بد أن اسمه قد اندرج في قوائمه السفلى المؤجلة، المحتوية على الأشخاص غير المؤثرين ولا المهمين، محفوظة ليوم ما، إذا صادف وأصبح أحمد يوماً ما شخصاً مهماً، وهذا غير مستبعد في حسابات جميل لأن الكثير من الأشخاص الحقيرين كافأهم الزمن على حقارتهم بأعلى المناصب.

إذاً، في قادم الأيام، فيما لو أصبح أحمد شخصاً مهماً، عندئذ تزكيه سابقته القديمة وتعيده إلى الأذهان بحلته الأصلية، ليصبح مضغة في الأفواه، وحدها فضيحته مؤهله الوحيد لإطلاقه بجدارة إلى عالم القيل والقال. أما الآن فمن يهتم برجل تافه كتب في الماضي عن المسرح، سواء كان نبيهاً أو سارقاً، أو حتى قاتلاً، لن ينال أكثر من السجن أو المشنقة، أما الشهرة، فلا يحظى بها إلّا أصحاب جرائم يستطيعون التستر عليها والنجاة منها.

****

أحمد قصد صديقه جميل في بيته، لا المقهى، لاعتبارات شتى، أهمها في هذه المرحلة، الحيطة. بعد السلام والكلام، لم يترك الحديث لجميل، لو أمسك بزمامه فلن يفلته قبل التشنيع على سمعة عائلتين أو ثلاث، أحمد لا يهمه سوى عائلة واحدة، جادور فقط.

«جميل، ما رأيك بأولاد جادور؟».

«لا تقل لي بأنك تريد منهم شيئاً، البنت متزوجة منذ سنوات».

«لا، مجرد فكرة عنهم».

«لماذا؟»!

«هل أعلق معهم، أم لا أعلق؟»!

رمقه جميل بنظرة استهزاء، معناها: من تظن نفسك؟! رازه، ثم زانه، وتمتم ساخراً: الخرا ليس بالقبان. أي أن الخراء مهما كان وزنه يبقى خراء، وهو مثل قبيح، وإن لم يقصده جميل بمعناه الصريح، بل ملمحاً إلى أن وزن أي شخص يعتمد على من هو أولاً، أحمد في الواقع بالنسبة لأولاد جادور لم يكن شيئاً يحسب له أي حساب.

حفز السؤال جميل على الإدلاء بما يعرفه عنهم، وحرضه على استعراض معلوماته استعراضاً نَكَتَ فيه الخمير والفطير. وسوف يَرِدُ ذكر الأب متقطعاً وعرضاً، فقد افترض جميل أن صديقه يعرف عنه الكثير.

أولاد جادور

ومع هذا بدأ بأخبار الأب فالح جادور الأخيرة، ما زال يحيا على سعة، يأكل ويشرب ويتنفس على أحسن وجه، متنقلاً بين البيت والمزرعة ومستودعاته التي تناقصت وفرغت من محتوياتها، وبات خواؤها يستثير في رأسه ذكريات غامضة، عادة تتلامح كشيء أبيض اللون ثقيل الظل يطبق على أنفاسه. في الليل يستعيد شبابه حسبما يقال، مع فتاة أصغر من ابنته بعشرين سنة. على هذه الحال استتبت أوضاعه، بينما اتخذت أوضاع أولاده منحى مختلفاً، استولوا على إمبراطوريته المالية النقدية المكدسة في داخل البلد وخارجها، ورثوه حياً دون أن يرثوا بخله المتأخر. وللعلم، مذ كانوا صغاراً، أصابتهم لوثة التبذير السفيه نكاية بأبيهم، فلم تكفِهم خرجياتهم اليومية والأسبوعية، كانوا يسددون أعباء مصروفاتهم الإضافية، وهي لا تزيد عن بهنكات زائدة، بسرقة مبالغ صغيرة أو كبيرة حسب الحاجة، وبيع الهدايا الصغيرة من التحف والمصاغ

بنصف ثمنها، ما عدا ابنه الأكبر محروس.

رافق محروس أباه قبل بلوغه سن الرشد، وتشبع بشخصيته القوية، واستعار سيئاته، وبعضاً من محاسنه، إحداها إدراكه لقيمة المال والحرص عليه. ومعهما خصلة قديمة من الأيام الميمونة للساحل المعطاء، خصلة مضادة للبخل، تتلخص بالسخاء على المعارف والأصحاب، منتهجاً أسلوب أبيه في تحويل الأشخاص الذين يتعامل معهم إلى تابعين مخلصين له مقابل ما يصرفه عليهم، وإذا طلب أحدهم استدانة مبلغ من المال، فيمتنع ولو كان مقداره صغيراً. كان محروس على خلاف أبيه سيئ الظن بالناس، أليس سوء الظن في هذا الزمان من حسن الفطن؟ يظن أنهم بتقربهم إليه يبغون الاحتيال عليه، كما احتالوا على أبيه في الأيام الخوالي، وتخلوا عنه في تلك الأيام الحاسمة الفاصلة بين الميناء والمحافظة. كان اعتناؤه بمظهره من ضرورات العمل، واقتناء معارف معروفين وبارزين من كماليات أبهته. صفاته الأخرى مختلف عليها، وقد تبدو مزايا لا يستهان بها، لكن لا خلاف على تهوره، كانت سيئة لا جدال عليها، إذا أضفنا إليها، يده الطويلة، أي الضرب بلا إحم ولا دستور، أي قبل أن يفهم ما الأمر!! فإذا انزعج أو شكَّ في أمر شخص، لا يتمهل أو ينتظر تفسيراً، سرعان ما يصفع بيده ويلبط بقدمه ويبصق ويسب العرض والشرف والأمهات والأخوات، وقد يشهر مسدسه ويطلق رصاصتين أو ثلاثاً في الهواء، لا تصيب أحداً.

سيئة الضرب على الملآن وإطلاق الرصاص على الفاضي، هُذبت فجاجتها وشذبت لاحقاً، وضبط عيارات تهوره إلى الحد الأدنى، وتعلم ألا يشتم أو يتهجم أو يهجم على أحد، قبل أن يجس نبضه. لم يعتدل سلوكه العدواني، إلّا بعد تجربة مهينة، تشاجر فيها مع

شاب يجايله في السن، لم يزح سيارته عن طريقه، فشتمه، رد الشاب الشتيمة بأختها، فتبادلا سلسلة من الشتائم، لم يقصر الواحد منهما فيها بأقارب الآخر من الإناث. وريثما قطع محروس المسافة الفاصلة بينهما المزحومة بالسيارات والمارة، ووصل إليه؛ صفعه، فرد عليه الشاب الصفعة بأختها. ذهل محروس من عزم الرد لا من عزم الصفعة، فسحب مسدسه وبادره قائلاً، أنا ابن جادور، وقوّص في العالي. رد الشاب أنا ابن فلان، ولم يكن فلان معروفاً، وأتبع قوله بحركتين سريعتين طار محروس على أثرهما عالياً في الهواء ومعه مسدسه وسقط فوق سيارته. سارع الشاب نحوه، نزع من يده المسدس، وأشبعه لكماً وتركه خرقة مهلهلة مدماة، ثم امتطى سيارته ومضى. الشاب غير المعروف، رياضي يلعب الكاراتيه والجيدو، ولهذا تغلب عليه. عندما جاءت عناصر المرافقة وحققت في المشاجرة، أجمع الجيران على أنهم لم ينتبهوا إلى رقم السيارة. بعد تحريات استمرت أياماً، اكتشفوا نادياً للمصارعة في الشارع الخلفي، فعرفوا اسم الشاب والسيارة ورقمها، لكن متأخرين، كان الشاب المصارع قد سافر لاحقاً بأهله إلى كندا، فأرسل إليه محروس تهديداً إلى عنوانه في مونتريال: جرب أن تعود، فأرسل إليه الشاب: جرب أن تأتي. بعدها، رافقه سائق ضخم مسلح ومدرب، يحمل نطاقين، بنياً وأسود، يغطيان جملة من المصارعات اليابانية المعتمدة في النوادي الرياضية. أفادته الحادثة بخبرة ملموسة: التروي قبل الضرب، والخبرة الأهم تقصير لسانه وكف يده.

وضع محروس نفسه موضع القيّم على أخوته، والوارث الوحيد لأبيه الميت الحي، فحجز عن أخوته الشبان المال، منعاً لحماقات كانوا مهيئين لارتكابها في الحال. كان سر أبيه، ولو لم يُخفِ أسرار العائلة المالية، لبعزق أخوته خلال سنوات قليلة، ما جمعه الأب

طوال سني كفاحه. لم يتوقع محروس رغم قربه من أبيه، الحجم الهائل للإرث، كانت الموجودات النقدية السائلة والأملاك الجامدة لا تقع تحت حصر، ولولا رصانته ومناعته لأصابته لوثة من ضخامتها وتنوعها. بعد عودة أبيه إلى الحياة، استغرب محروس ترفعه عن المال، وتحزر سر إدارته ظهره لثروته، فاعتقد أنه مارس خلال غيبوبته صحوة عابثة، نهض على أثرها وتفرغ لقضاء نزوات مراهقة لم تُشبع، فاتته على الساحل وفي الداخل.

وضع محروس يده على الأموال المنقولة وغير المنقولة، بعد استشارة محامين بارعين في تهريب الملكيات من المالية وتجنيبها في المستقبل من ضرائب حصر الإرث الباهظة. انصاع الأب لتعليمات ابنه فوقّع وبصم على بياض. وكي لا يدع مجالاً لتدخل طرف غريب من خارج العائلة، أعطى أخته هند ما يعادل نصيبها من الإرث المنظور مبلغاً مالياً نقدياً. بيد أن الطرف الغريب صهرهم العزيز، رفض القسمة المجحفة، إنها لا تعادل سوى حصة زوجته من بعض العقارات المسجلة رسمياً، البيت والفيلا والمزرعة فقط، الجزء الزهيد جداً من الإرث، فيما حجب الجبل العرمرم من الأموال الحقيقية؛ وطالب بقسمة منصفة وإلّا التمس الحجر قضائياً على الأب لضعف قواه العقلية، وبمفعول رجعي، إلى ما قبل وقوعه بين براثن الابن الجشع. ولوح الصهر لهم بالفضيحة والقضاء معاً.

لم يخش محروس القضاء ولا الفضائح، القضاء أمره سهل، والفضائح؛ هند المدللة كللت جبين العائلة بأكثر من فضيحة، استهلتها مبكراً حينما عانت من مراهقة معقدة تفتقت على إيقاعها بالشاب الوسيم سائق سيارتهم المارسيدس، أحبته ولعبت بعقله ليهربا معاً، خاف السائق ورفض، كان متديناً يميز الحلال من الحرام،

فأعادت الكرة وزينت له غرامهما، مثل الأفلام فقراً وتشرداً ومبيتاً على الطوى، حاصرته بحبها، فقبل بفرارهما السينمائي، على أن يتزوجا على كتاب الله وسنة رسوله. وبينما كان الشيخ يهم بعقد قرانهما، فتح السائق الوسيم محفظة حبيبته الثقيلة ليخرج بطاقة هويتها الشخصية، طار صوابه، في داخلها كمية ضخمة من المجوهرات، لن تدعهما يعرفان ذل الفقر الجميل ولا تذوق طعم التشرد الموعود، بل حياة تكتنفها السعادة القصوى، بلا عمل يُتعب الجسم والبال، يتنقلان فيها من مدينة إلى مدينة، من فندق إلى فندق، من شاطئ إلى مصيف، من المرتفعات إلى المنخفضات؛ يتمرغان على الأسرّة الوثيرة، ويتناولان الهمبورجر اللذيذ والسندويشات سريعة التحضير مع المرطبات الباردة، وتحت ضوء القمر يتمشوران على الكورنيشات إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم النوم الهنيء حتى ساعة متأخرة من النهار؛ ما أجمل الحياة!! قال لها، المجوهرات مسروقة. فقالت، هذا نصيبي من مال أبي. فقال، هذه سرقة، والسرقة حرام، لا تجوز حتى ولو كانت عائلية.

استنكف السائق عن عقد القران، وهرع كالمجنون وأخبر الأب قبل أن يكتشف فقدان المجوهرات ويبلغ الشرطة. أعمى الغضب جادور، وثار على ابنته عديمة التربية وأمها عديمة الأخلاق، وحمد الله على أن الولد مربى ولا يأكل حراماً. الأم غلت وفارت حتى خافوا عليها من انفجار وريد الحياة، ولم تهمد إلّا بعد أن برأت ابنتها من مزاعم السائق اللص ابن الحرام الذي غرر بطفلتها الصغيرة. انطبشت عواقب المغامرة الطائشة برأس المسكين، فشاطوه إلى دير الزور، وسبقته تهديداتهم، إذا رأوه ولو بعد مائة سنة، في أي مكان ضمن دائرة تشمل العاصمة وما حولها من قرى، مع خط الساحل وما يشمله من مدن ومحافظات وقرى دون استثناء شاطئ أو شاليه، فلا

يلومن إلّا نفسه، حتى لو هرب إلى خارج البلاد، سوف يلاحقونه، ولن تقف في وجوههم الحدود الدولية ولا البحار والمحيطات، ويقوصونه أنى أدركوه، ولو كان يطلب العلم في بلاد الصين.

ذهب الشاب إلى غير عودة. الصغيرة هند حبيبة أمها، لم ترتدع، واصلت ميوعتها مع شبان الحارة والحارات المجاورة، فطرزت فنون التواصل بأنواعها كافة وبأحدث أنماطها، فمن الشرفات تبادلت معهم مواعيد الغرام مشفرة، بإشارات الأيدي وغمزات العيون وترقيص الحواجب. واستبدلت الشارع الواصل من البيت إلى المدرسة، بالأزقة الجانبية والدخلات الخاوية، تبادلت أرقام الهواتف وجربت تلامسات الأصابع والخدود وتلاصق الشفاه. ثم جاء دور الاختباء بين الخمائل في الحدائق العامة، وتشهد عليها خمائل حديقة السبكي وتشرين والجاحظ. بعدها لم تتأخر مرحلة الانتقال إلى المقاعد الخلفية في السيارات. إلى أن أتى يوم، ضبطها محروس في سيارة مازدا، أخرجها من شعرها، وضرب رفيقها الشاب الجامعي، وكسر ذراعه، رآه يعانقها وكفه نازلة تحت البلوزة، والأخرى تغوص بين فخذيها، وهي اليد التي كسرها. الشاب ابن طبيب نائب في مجلس الشعب الموقر، اشتكى لوزير الداخلية مباشرة، إذا لم تضع الضارب في السجن فسوف أثير القصة في المجلس. جادور الأب أرسل للنائب الطبيب، نحن وضعناك في المجلس، لفّها وإلّا رميناك إلى الشارع الذي جلبناك منه. موقف النائب كان قوياً، لم يجلبه أحد من الشارع، جاء من عيادته، ولم يكن حزبياً، نجح بأصوات الناخبين من الشعب، وإن كان محسوباً على حزب تقدمي، وابنه لا يسوق سيارة المارسيدس التي يقدمها الشعب هدية لممثليه، وإنما سيارته المازدا التي جنى ثمنها من الطبابة والتطبيب، كما أن البنت بالغة وراشدة وقارحة؛ ولولا غشمنة ابنه وحظه السيئ، لما أوقعت

به، وإذا كان المعتدي أخوها قد ضبطه بالجرم المشهود، فليقل أين كانت يداها هي الأخرى، هل كانت تصلي؟! جادور الأب، لم يسأل ابنه عن يدي ابنته، كيف تصلي وهي لا تعرف وجهة القبلة؟! فاعتمد الهجوم على منصب النائب، ذلك أضمن، أرسل له: لولا أنك من أحزاب الجبهة التقدمية لما حلمت بالدخول إلى مجلس الشعب والاستفادة من امتيازاته، ولو انتخبك الشعب بأسره. فاحتد النائب وتعفف: راتب المجلس لا يغنيني ولا تهمني حصانته. لم تنته المشادة إلّا بطلب وزير الداخلية من رئيس مجلس الشعب التدخل، كيلا تحدث أزمة تؤدي إلى صراع غير متكافئ بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية، تعكر صفو التوافق والتكامل الناجح المتحقق بين السلطتين منذ الفصل بينهما.

أخيراً تزوجت، فكانت حكاية أخرى. انتزعت عريسها الشاب من بين عازفي الجيتار والأورغ والساكسفون، أو كما قالت من الجامعة، هذا إذا كانت مدرجات الجامعة متوزعة بين ستيريوهات القصاع والمالكي. ماتت شغفاً به، لأنه يشبه الممثل المصري أحمد زكي، في حين كان يشبه البائعين كشاشي الذباب عن صواني الهريسة والصفيحة في كراجات المحافظات. والأسوأ، لا علم ولا شهادات، إلّا إذا كانت الابتدائية والكفاءة شهادات. توقف به التحصيل عند البكالوريا إذ رسب ثلاث سنوات ولم يحصل عليها. خالي الجيوب، لا يملك سوى طوله الفارع، وعينيه المبطنتين، وتخايله بتصفيفة شعره، وصوته الرفيع، مؤهله الوحيد القرع على الطبول. لم تجد خيراً منه ولم ترض بديلاً عنه.

توعدها أبوها بقتله. قالت: اقتلني معه. فحلق شعرها وحبسها. انقلب البيت إلى مناحة وعزاء، نحيب ولا معزون، وقفت أمها إلى

جانبها ودعمتها بالبكاء واللطم، وحبست نفسها معها، تغطان معاً وتصحوان معاً، واحدة تذرف الدموع والأخرى تولول. قبل أن تموتا معاً، استرضاهما الأب بعريس متعلم ومهذب يشبه الممثل جمال سليمان، الأم أعجبت به، البنت أصرت على شبيه أحمد زكي. فأصر، اختاري أي واحد عداه. المدللة الصغيرة يبست رأسها وعصلجت. بعد جولتين، تعب الأب من نقيق الأم ونعيق البنت، طالعوا روحه بالطول والعرض، فرضخ، خذوه وافرحوا به. تزوجته هند وفرحت به بعد عرس طنطنت به دمشق، بعد طنطنة فضيحة سبقته.

طالب الصهر بحصة زوجته من الأموال: حاسبوني بالقلم والورقة، لا تبخششوني ولا أبخششكم، حقوق زوجتي أريدها بالكامل، على دار بارة بالقرش، دون زيادة أو نقصان. فبعث له محروس برد لا يوجد غيره: حلّ عن طيزنا، وإلا... واتسع ما بعد «إلا» لصنوف متنوعة وغريبة من العنف والشرشحة. وأغلق في وجهه المفاوضات، وتركه أمام طريق لا يوجد غيره: القضاء. الصهر العزيز تريث وأرسل إليه، نحن أهل، لن أذهب إلى القضاء قبل استنفاد جميع الوسائل الحبية.

ما هي الوسائل الحبية؟! تساءل محروس، فلم يستبعد أن تسول النفس الأمّارة بالسوء، في يوم ما قد يكون قريباً، للصهر الذي لم يعد عزيزاً، بل بات مغضوباً عليه ومحتالاً وابن حرام، اللعب من تحت لتحت، بورقة المحاكم وشهادات الأطباء وشهود العيان من الأقارب والمعارف الحسودين.

استدرج محروس أخته من بيتها واحتجزها في بيت العائلة. قال لها،

وأمها إلى جوارها تحتضنها وتشد من أزرها: أبي اشترى لك زوجاً، أنا سأشتري لك زوجاً أحلى وأطول. في تلك الأيام كانت المسلسلات المصرية قد تراجعت قليلاً، والمسلسلات السورية قد تقدمت كثيراً، واحتلت شاشات الفضائيات العربية، وظهر جيل من الممثلين الشبان السوريين الموهوبين، ولكي يعطيها تصوراً ملموساً للزوج التالي، شغَّل شريط فيديو مسجل عليه حلقة من آخر مسلسل شاركت فيه نخبة من ممثلينا. قال لها، تفرجي، إذا أعجبك واحد منهم، أشيري إليه بإصبعك، فيصبح عريسك، لن آتيك بالشبيه بل بالممثل ذاته؛ فقالت: لن أقبل ولو على روحي. فقال: اعتبري نفسك أرملة. الأم نتفت شعرها والبنت أغمي عليها.

هبَّ الصهر وطالب بإعادة زوجته، كانت حجته القوية التي أعلنها، الغرام العظيم لم تخبُ ناره، وحجته الأقوى التي لم يعلنها: من أجل ماذا تحمَّلَ نزوات زوجته الدلوعة، وركَّبها على ظهره، وخرّاها على رأسه؟ أليس من أجل مثل هكذا يوم، عاملها مثل العين الرمدانة، بنتاً أمّورة وسنيورة؟ لم تتقن أبسط أعمال المنزل، لا تعرف طبخ كمشة رز ولا قلي بيضة، لا تحسن القيام بواجباتها الزوجية، وفي الوقت المخصص لهما في الفراش، لقضاء الشغلة ما غيرها التي تبسطها أكثر مما تبسطه تتركها كلها عليه. وقتها مغطى بالزيارات مع أمها، قهوة وكيك وبتيفور وجورنالات لاختيار موديلات فساتينها النهارية والمسائية والحفلات والسهرات. نشاطاتها الصباحية بين الشيراتون والمريديان مع جروبات الزوجات السؤومات، وفي الضحوية تتبضع من محلات الحمراء والصالحية، والعصرية تقضيها بين السونا والجاكوزي، والمغربية بين محلات دامر وموكا وشوكولا باتشي، والسهرية في نادي الشرق أو ضوء القمر وبرج الحمام، أو... دائماً هناك جديد من المقاصف. معبودها الحلويات

والمعجنات، ومن شهر إلى شهر، هي تدبدب، وهو ينحل، لم يظفر بشيء من جادور الأب سوى مبالغ، تأتيهم عن طريق أمها. الآن الأب القديم لم يعد له وجود، الأب الحقيقي محروس. فأرسل إليه: نحن لا نشحد بل نطالب بحصتنا، أو تفصل بيننا المحكمة. لماذا المحكمة يا ابن الحلال؟ إذا لم نحصل على حقوقنا، فسنطالب بفحص عقل أبيك، بعدها، وكن متأكداً، ستتولى المحكمة وحدها قسمة الأموال والأملاك.

دعا محروس صهره، تعال لنتفاهم. جهز استعداداً لقدومه، كاتب المحكمة والشهود والزعران؛ لزوم إجراءات الطلاق إذا امتنع. كما توقع، الصهر العنيد امتنع، فهجم عليه الزعران وزودوها، فنال نصيبه طابشاً من الضرب المبرح، وأقنعوه بأن يطلق زوجته صاغراً ورجله فوق رقبته. محروس لم يضنّ عليه بحبة مسك، توعده بالموت، وأقسم بأن قتله لن يكلفه أكثر من خمسين ألف ليرة.

خاف الصهر على حياته، واختفى عن الأنظار، وعاد لا يملك شروى نقير، سوى حبه الثابت لطليقته الذي لم يهتز، وازداد أضعافاً مضاعفة. التهب الغرام بينهما من جديد، فتبادلا سراً الرسائل المضمخة بالعطور، وتبرع المراسيل من الجنسين لوصف ما يكابده العاشقان من آلام الفراق والبعاد، فاستعرت قصة الغرام ثانية، وتعاطف معهما المقربون والأبعدون. احتدمت على إثرها وساطات طالت واستطالت، تدخلت فيها الضيعة والمشايخ والمخاتير، ورؤساء فروع، ومديرو مؤسسات، وضباط متقاعدون من أصدقاء أبيه، وأطراف بارزة في الدولة، وعدهم خيراً، دون إشارة تنبئ بخير. أخفق الجميع، لكن أفلحت أمه، لم تكلّ ولم تمل، أنذرته بغضبها، وهددته بالحرمان من الجنة، وخصصت دعواتها له بجهنم وبئس

المصير. فسأل الشيخ: أمي مجنونة هل دعواتها مستجابة؟! أفتى الشيخ، مستجابة حتى لو كانت زانية. يا ربّ، ما هذا الاضطهاد؟!

أعاد أخته إلى زوجها مع درس بليغ: يا صهري الحقير، سأنسى ما فعلته معنا، على ألا تكرر فعلتك الخسيسة ثانية، كيف بلغت بك الدناءة طلب مقاسمتنا على أموالنا وأبونا على قيد الحياة؟! تذكرْ شيئاً واحداً، أنك لحست صبابيط وأطيازاً، حتى أعدت أختي إليك مع أنك لا تستحق ظفرها. كان الصهر عند حسن ظنه، كانت تجربتا الفراق وشظف العيش قد طحنتاه وأبرأتاه من العيوب الظاهرة والمكائد الباطنة. وبالمقابل، أحسن محروس جزاءه، وأخذ ينفحه وأخته بين فترة وأخرى بالهبات والإكراميات، حسب مزاجه وطاعتهما. كان هذا أول اختبار صلب واجه محروساً وكاد يودي بسلطته.

****

الخطوة التالية كانت مدروسة وحكيمة ، بعثر أخويه خارج البلد. أرسل أحمد للدراسة للحصول على ماجستير في إدارة أعمال، مع أنه لا يعرف كيف يدير نفسه، وأرسل أخاه حسين إلى بيروت لدراسة مشروع سياحي ضخم سوري لبناني مشترك بإشراف عميل لبناني، رغم عدم دراية أخيه بالسياحة والمشاريع.

اتخذ محروس هذين القرارين، بعد أن عانى من أخويه الأعاجيب: أخوه أحمد عشق امرأة تكبره بخمس سنوات، مخضرمة بالزواج، مطلقة مرتين ولها أولاد، أسكنها بيتاً وأخذ يصرف عليها من البابوج إلى الطربوش. تتمة القصة: ظهر أنها حامل، فثارت نخوة أخيه، ولم يقبل بأقل من الزواج منها والاعتراف بأبوته للجنين فلذة كبده.

الجحش أخوه، يجهل الأساليب النسائية الشائعة في المدن في اصطياد الرجال، ترتمي المرأة على الشاب، وتشلحه ما فوقه وما تحته، وتندب حظها، كالمعتاد منحته شبابها وجسدها وضحت بسمعتها وأولادها، لأنها تحبه وتموت عليه، لكنه غدر بها. المغرم الشهم صدق حكاية شبابها وجسدها وسمعتها، مع أن عمرها يناهز الأربعين، وحملت ثلاثة بطون وإجهاضات تزيد عنها، وقصصها معروفة ومفضوحة. حاول محروس إفهامه بالتلميح، فلم يفهم، ولم يقبل بكلمة تمس شرفها؛ فعيره صراحة: لا تحلم بامرأة شبع منها الآخرون، لن تأخذ فضلة غيرك. أخوه هدد بالانتحار، فقال له انتحر، فلم ينتحر، وإن بقي على أهبة الانتحار. كان الحل لدى العاشقة الحامل لا لدى أخيه الجحش. فذهب إليها وقال لها مباشرة: لا تسمعيني أسطوانة الغرام والطفل ثمرة حبكما، كم تريدين؟ فأسمعته الأسطوانة نفسها. عرض عليها مبلغاً رفضته، ضاعفه فقبلت. أخذت المبلغ المطلوب، وأجهض الجنين، والعاشق لم ينتحر، سافر إلى لندن، ونسي الغرام وآلامه، يسرح ويمرح مع قحبات إنكليزيات وآسيويات وروسيات، وكلما أراد العودة، يرسل له: خلص دراستك وتعال.

أما أخوه حسين، فقد استدرجه شريكهم اللبناني إلى أحد المصايف، واحتجزه في مصحة بإشراف طبيب أخصائي لمعالجته من الإدمان. كان الأخ الفلتان، يرافق شلة من الفلتانين مثله، يتعاطون المخدرات من الحشيش إلى الهيروين مع أنواع داعمة من المستحضرات المهدئة والمُسَطِّلة، المصنعة في أوروبا وأميركا، لا تلحق أن تظهر في بيروت، حتى تقطع الحدود على وجه السرعة، لتحط في اليوم التالي في دمشق، ليستعملها أخوه في مساء اليوم نفسه بعد مضاعفة مقادير الاستخدام حسب تعليمات النشرة المرفقة بها. تلك عواقب رفقة

السوء، إن لم يكن أخوه هو السوء بعينه. بعد أن شفي منعه من العودة، وطلب من العميل اللبناني تسجيله في دورات تدريبية على الإعلان والتسويق.

أما أمه، فحكاية متكاملة من الحالات المرضية، تبدأ صباحاً بأوجاع الرأس والظهر واليدين والقدمين، تتفاقم مع غياب الشمس. وليلاً، تتكالب عليها الوساوس القهرية، وتتشكى من ظلم زوجها الغائب عن البيت دائماً، والآن الغائب عن وعيه، وفيما بعد الغارق في مراهقته الدنجوانية؛ وتبكي من إهمال أولادها الشبان الذين يميتونها كل يوم ألف ميتة، مع نوبات تعاودها، تعيدها إلى الضيعة والدرب المتعرج إلى النبع والعرزال الأخضر والقمر الأسمر، وهي أغانٍ فيروزية أكثر منها حقيقة ريفية، من هذه الذكريات يتحدد الزمن الذي لم تر بعده يوماً أبيض في حياتها، شقاء وعذاب منذ تزوجت، ويا حرام بنتها هند، حظها مثلها، الله يعينها، أخوتها لا يسألون عنها، كل واحد منهم يركض وراء إحداهن، مثل أبيهم لم يتركوا شرموطة تعتب عليهم.

هذه الأحداث على مرارتها ووساختها، جمعت شمل العائلة الممزقة تحت جناحه. اليوم باتت قصصهم بمجملها على الهامش. لكن قبل أن تصبح على الهامش، ذاق الأهوال منها، عندما تجمعت كلها وفاجأته في يوم عصيب لا ينساه، أبوه طريح في المستشفى، والأطباء يبلغونه بعد ما يزيد على ثلاثة أشهر من المعالجات المكثفة، باستنفاد الطب وسائله العلاجية، وعليه انتظار مشيئة الله، إما أن يفارق الحياة في غيبوبته أو يصحو، متى؟ لا نعرف. بهذا اليوم، اعتاد أن يؤرخ الأحداث، فكان يقول: قبل استسلام الطب، أو بعد استسلام الطب، إذ بين ما قبل وما بعد، تعرّف على أخوته، واضطر

إلى اتخاذ إجراءاته الصارمة ضدهم.

في هذا اليوم التاريخي، تفجرت مشاكلهم كلها في المستشفى دفعة واحدة. كان لحظاتها ملهوجاً ومشوشاً، أفكاره مشغولة، تارة مع أبيه، لماذا هو ميت وغير ميت؟! وتارة أخرى يتساءل لماذا تغيب أخوته الثلاثة دفعة واحدة؟! بينما الأهل والأصحاب يتوافدون، يسمعون الخبر ويواسونه. كأنه يتقبل العزاء منهم، في جو خيم عليه الحزن وعجز الطب؛ عندئذ، حسب التوقيت المواتي لتوارد المآسي، تتالى مرافقوه، الواحد إثر الآخر، كل منهم يقترب إليه ويهمس في أذنه، كي لا ينتبه الواقفون إلى جواره، خبراً عن واحد من أخوته، بين الخبر والخبر دقائق معدودات، يتلقى الصدمة قبل أن يستوعب الصدمة السابقة: حسين نُقل إلى المستشفى وأدخل إلى غرفة العناية المشددة، مُهدَّداً بالموت بتأثير جرعة زائدة. أحمد سيتزوج بعد يومين، لن يدع ابنه الجنين بلا أب. صهرك استغل غيبوبة أبيك، يجر أختك وراءه من مكان إلى مكان يشهّران بك، مثل النواحة والردادة، هو يتقول وهي توافق؛ وكان قبل مجيئه إلى المستشفى قد ترك أمه، بعد أن شنت عليه حملة غضب أمومية، إن لم يشتر لأخته فيلا بثلاثة طوابق ومزرعة وسيارتين دفعة واحدة، وإذا لم ...، فسوف يطق عقلها وتخرج حافية القدمين إلى الشوارع، وهي رافعة يديها عالياً، تستنزل عليه اللعنات.

يوم مشؤوم، تمنى فيه أن تغور الأرض من تحت أقدام هذه العائلة المجنونة، وتختفي من الوجود، كأن لم تكن؛ عائلة من المعتوهين الكسالى لا تستحق الحياة. جشعون لا يكفون عن طلب المال، نكدون لا يفترون عن اختلاق المشاكل والمتاعب.

أما اليوم، فشتان، بعد أن رتب أموره تماماً، ونهض أبوه من رقاده،

بعد استراحة دامت أقل من عام بشهرين، وعاد من غيبوبته رجلاً عمره العقلي لم يصل إلى سن البلوغ، وحيويته الجنسية في عز الشباب، مستعيداً عزمه ورغباته، مع لا مبالاة في منتهى التعقل، ومسحة كآبة حاولت نسوة جميلات تبديدها، ولم يفلحن، لكن طفلة ضخمة أفلحت.

حمل مشاكل العائلة على رأسه وصرَّف أمورها، ولم يبخل عليهم سواء كانوا على قيد الشفاء، أو لن يشفوا، بشرط ابتعادهم عنه. وبعد سنتين استدعى أخوته من منافيهم السعيدة، وأوكل لكل منهم العمل المؤهل له.

أجرى محروس تعديلات واسعة على استراتيجية أبيه قصيرة النظر، فتخفف من موجودات المستودعات بالتدريج وحولها إلى أموال سائلة، وتوجه نحو الاستثمارات، كان في سباق مع نسائم الانفتاح، قبل أن يفوته القطار السريع الذي امتطاه مجايلوه.

لم ينقصه المال، لديه منه الكثير. كذلك السلطة، ما زال أصدقاء أبيه ومعارفه في مناصبهم. من جهته، قام بواجبه وسارع هو الآخر إلى حرق المراحل وعلى أوسع نطاق. لم تنقصه الجرأة، كان الزمن بانتظاره، أبطال الاشتراكية السابقون على أهبة الاستعداد لبيع نفوذهم لأهل الثقة. قل لي من غير ابن صاحبهم فالح جادور جدير بثقتهم؟ وبسرعة قياسية، دخلوا معه في علاقات عمل، كان فيها غطاء لهم، فذللوا له عقبات الاستيراد والتصدير والتصنيع وشراء الأراضي والحصول على الاستثناءات، وتمرير الإعفاءات. المشاريع مأمونة والاستثمارات تحقق أرباحاً عالية، ما داموا يكفلون حمايتها من أخطار الجمارك والتموين والصحة والمحافظة والقضاء والمالية

والمخابرات وشكاوى المواطنين الموتورين والحاقدين. فيما كان منافسوه غير المدعومين يخسرون، ويفلسون من جراء مطالبات وزارة المالية ومطاردتهم بالضرائب، فيختفون من البلد، أو يقبض عليهم ويودعون في السجون؛ يبيعون مشاريعهم، أو ينجحون في تهريب أموالهم والاستيلاء على أموال شركائهم من المودعين الصغار.

تقاسم عالم المشاريع الضخمة مع الآخرين، وتنافس مع أقرانه وأشباهه. كان الأقدر، عيونه مبثوثة في قلب الدولة تراقب عن كثب توجهات الحكومة، ما سوف تسمح به أو تمنعه؛ ومتأهب دائماً للقفز على المشاريع الواعدة. ودائماً يظفر بحصة مجزية، حتى قيل عنه بأنه شريك لنصف مسؤولي الدولة، وقيل أيضاً من كثرة مشاريعه وتنوعها بأنه صار يشكل، مع أخوته وشركائه المتنفذين وأعوانه من القبضايات وحماته من ضباط الأمن، حكومة ظل، واسعة الصلاحيات، تحكم وتعارض.

بالإضافة إلى أن الشركات الأجنبية ومعها دولهم، تدعم تطلعات أولاد جادور وأمثالهم وتثق بهم أكثر مما يثقون بالدولة نفسها، لأنهم ولا يخفاك مليئون مالياً، فأسبغوا عليهم حمايتهم، ونظروا إليهم على أنهم دعاة أسواق مفتوحة وتحديث وديموقراطية؛ وأوصت بهم السفارات ووضعتهم الدول على قائمة الأشخاص الأولى بالرعاية.

****

والآن، يا صديقي أحمد، لئلا تتورط بما ليس بالحسبان، قل لي ما الذي تريده منهم؟! فسرد عليه أحمد قصته معهم، وبالأحرى مع أبيهم.

قال جميل: لا أفهم لماذا تحشر نفسك بينهم، حكاية أنك ستضع جادور في قفص الاتهام، مبهبطة عليك. إياك أن تغلط معهم، انتبه، لا أنت ولا غيرك، قادر عليهم.

فسأله أحمد: «بماذا تنصحني؟».

فنصحه صديقه: إذا وضعنا مسألة الضمير والعدالة جانباً، بل وأحبذ أن تبعدها عن رأسك نهائياً، فأنت في مشكلة حقيقية؛ إذا عرفوا ـ وعلى الأغلب عرفوا ـ بأمر ذهابك إلى قاضي التحقيق، أو حبيبتك السابقة دنيا، فقصتك لن تمر معهم بسلام، أنا واثق بأنهم يبحثون عنك، إن لم يعثروا عليك اليوم، فغداً. وأكاد أقول بأن الأوامر صدرت بتأديبك بالضرب، وهذا أمر بسيط ومعقول. لكن من يدري كيف ينظرون إلى تدخلك في أمورهم؟! إذا ظنوا أنك ضايقتهم، فوضعك خطير، إن لم يموّتوك، قد يخفونك من الوجود بوسيلة من الوسائل. لذا عليك أن تدرك أنك لست في موقع الهجوم، وإنما الدفاع. والعمل أن تستبق وصولهم إليك بالتحضير للدفاع عن نفسك.

بدا الانتقال بالنسبة لأحمد من الهجوم إلى الدفاع انقلاباً هائلاً، هذا يعني الكف عن ملاحقة المجرم، وتركه طليقاً يعبث بضحيته الحمقاء!! ومع هذا قبل بالدفاع، لكن كيف؟! فاستنجد بصديقه قائلاً بأنه لن يتصدى لأولاد جادور حالياً. يريد فقط أن يحمي نفسه مؤقتاً، ريثما يجدد معركته معهم ويقتص منهم.

طبعاً، كان يريد أن ينجو بنفسه، ولم يقل هذا إلّا كي لا يفسر طلبه بأنه هروب من مواجهتهم، مع أنه لا تفسير غيره. وبالمقابل

قدر صديقه موقفه الضعيف، وكان الحل الذي اقترحه هو اللجوء إلى شخص مهم وقادر على منحه حمايته، فلا يتمكنون من إيذائه.

راق الحل لأحمد، وسأله قبل أن يوافق: إذا كانت الحماية ستكلفني مالاً كثيراً، فأنا لا أستطيع تحمل الكلفة.

كان جميل مستعداً لهذا السؤال، وأجابه على عكس المتوقع في مثل هذه الظروف التي يكون فيها صاحب الحاجة مستعداً لدفع ما فوقه وتحته في سبيل الحفاظ على حياته: اطمئن، لن تكلفك شيئاً.

فتعجب أحمد وهتف: من هو هذا الشخص؟!!

قال جميل: أم راما.

فسأله أحمد بخيبة: ومن تكون أم راما؟

سأله لأن الشخص كان امرأة وليس رجلاً، كيف تمنح امرأة الحماية لرجل، فيما المعتاد أن تطلب هي الحماية منه. ثم ليست هي امرأة فقط، بل وأم!! أم بنات لا صبيان، مما يغلب الجانب الأمومي الهش، وهو جانب يعمل على المخزون العاطفي. بينما قضيته تحتاج إلى جانب رجولي خشن، لا سيما أن مضاعفات بعض حالات اللجوء قد تتطور إلى تضارب بالأيدي وتبادل إطلاق رصاص.

قال جميل مستغرباً: أم راما زوجة الرفيق عبد الحميد صطوف.

كانت سمعة الرفيق صطوف الأخلاقية في الحضيض، وسمعته الاقتصادية في الأوج. فقال أحمد: عرفته، لا، اعذرني.

قال جميل: دعك منه، المهم زوجته.

فقال أحمد باستخفاف: ما الذي بوسعها فعله؟!

وهنا ترحرح جميل: هل تقول ماذا بوسع أم راما أن تفعله؟! إنها الوحيدة القادرة على فعل ما يعجز عنه عتاة الرجال، لكن بأساليب جد مختلفة. هل تعرف ماذا يطلقون عليها: نصيرة المظلومين. اسألها مساعدتك وسوف تتبرع دون تردد بإنقاذك من أولاد جادور، وتبسط عليك حمايتها من غير أن تأخذ شيئاً، وإذا عرفت بأن وضعك المادي سيئ، فسوف تشفق عليك، وتضمك إلى قائمة المعوزين، وربما أعطتك مبلغاً من المال. أم راما صاحبة قلب كبير، وأفعالها أكبر وأكثر من أن تحصى، ويضرب الناس البسطاء والتعساء بأريحيتها وكرمها المثل. وليكن في علمك، المئات والآلاف من البشر يرفعون أيديهم ويدعون لها بطول العمر. لم تبخل عليهم بالمعونات والمساعدات مع أنها لا تعرفهم ولم ترهم في حياتها. في الأعياد يؤم الفقراء بيتها زرافات ووحداناً، يتجمعون على الرصيف، فينظمهم رجالها العاملون لديها في طابورين طويلين الأول للنساء والثاني للأطفال والرجال المتقدمين في السن، ويحظى كل فرد منهم دون استثناء بأم الخمسمائة وعلبة حلويات مشكلة، وكيلو لحم بعظمه. ولا تسل عن تبرعاتها بمبالغ كبيرة للمحتاجين والمعوقين واللقطاء.

«هل تدير جمعية خيرية؟».

«أم راما وحدها، تعادل دزينتين من الجمعيات الخيرية».

«يا إلهي، إنها امرأة قلبها من ذهب».

«كما لا تبخل على عائلات مستورة برواتب شهرية منتظمة، دون أن تكشف عن اسمها».

«لا بد أنها سيدة عظيمة».

السيدة العظيمة

من شدة إعجاب أحمد بالخصال الفريدة لأم راما، تردد بالذهاب إليها. وقال لجميل: أعرف نفسي، سأخجل من عرض مشكلتي عليها، لا أريد أن أستغل إنسانيتها بأمر لا يعنيها ويُحَمِّلها عبئاً قد تتضايق منه. ضحك جميل واستخف بعقله: بالعكس كلما كان العبء أكبر ازدادت رغبة أم راما في المساعدة وفعل الخير لتكسب ثواباً بحجمه، ثم إن مشكلتك لن تكلفها أكثر من رفع سماعة الهاتف ومخاطبة أولاد جادور أو من يمون عليهم، وتأمرهم بكلمتين مختصرتين، حلّوا عنه، فيحلُّون عنك.

اتصل جميل بها، لم يجدها فأخذ موعداً من مدير مكتبها. مع هذا حاول أحمد إيجاد عذر يعفيه من مقابلتها. فأصر جميل: اذهب واتبع نصيحتي. فما كان منه إلّا أن ذهب واتبع نصيحته. حمل معه باقة ورد جوري هزيلة أضاف إليها الكثير من النباتات قليلة

القيمة، من الأنواع التي بلا وزن، المسماة بورق الهوا والناعم الأبيض، فأصبحت الباقة أقل هزالاً وسمينة.

****

أخذ مدير المكتب الباقة، ثم اتصل بأم راما يعلمها بوجوده. أثناءها استغل أحمد انشغاله عنه، ومَسَحَ بنظرة سريعة الغرفة الواسعة، لم يبدُ أنها مكتب، كانت أشبه بمستودع، اكتظ بالأثاث الفاخر والأواني الثمينة وعواميد الرخام القصيرة. على الأطراف تبعثرت أجهزة التدفئة والتهوية والشفط والتبريد بصناديقها فوق بعضها بعضاً، وتكدست خلفها إلى الحائط، لوحات فنية ومنحوتات بشعة وأشغال يدوية نسوية، وفي الأركان تكومت أكاليل الحشائش وأنصاب الورد والزنبق والفل والقرنفل إلخ!!

مشى وراء المدير واجتاز معه الممر الواصل إلى الصالون، كانت السيدة أم راما واقفة تطالع أوراقاً، أعطتها للمدير، وقالت له: أرسلها للوزارة لأخذ الموافقة. بدت في حوالي الأربعين من عمرها، تلبس ثوباً عملياً بسيطاً، تعابير وجهها جدية، منحته انطباعاً بأنها من النوع الذي ينظر إليك، بينما هي تفكر في شيء آخر، ينطبق عليها لقب سيدة أعمال. لم تجلس بعيدة عنه، جلست على الكنبة المقابلة. رمقته بنظرة عملية، لم تتكلم، هزت له رأسها ليتكلم وأخذت تفكر.

توخى أن يشرح لها مشكلته بحذافيرها، بالفصحى وبكلمات واضحة، ربما لأنه متعلم ومثقف؛ لم يُسقط تفصيلاً أو يحاول إضافة تهويلات ولو كانت صغيرة. استولت أم راما على اهتمامه، كانت تسريحة شعرها بسيطة، لم يتوقع أن تكون شقراء ممتلئة ولون

بشرتها أسمر. خمن، شقرتها غير طبيعية وليست أكثر من صباغ. في حين أبرز ثوبها رغم بساطته تقاطيع جسمها الملفوف. فيما ساعداها مترهلان، عيناها متعبتان ترمشان، والتجاعيد حول فمها.

عقدت حاجبيها وظهر الاهتمام والتبرم على ملامحها. لم يسترسل في تأملها، لئلا ينسى ما جاء من أجله. أخذت تسأله السؤال تلو السؤال، تستحثه وتقاطعه وتستعجله بالعامية: شو كمان... وبعدين... في شي غيره...؟! الواضح أن مشكلته سخيفة ووقتها ثمين. حاول بقدر ما أسعفه الوقت، أن يجلب انتباهها إلى ما عاناه مما اتهم به زوراً وبهتاناً، وانتهز جحوظ عينيها وهي تحدق إليه، فتخفف من الفصحى، لئلا تظنه يظهر تفوقه اللغوي عليها، وانتقل إلى العامية السهلة البسيطة الأسرع في تدفق الكلام، فانطلق على سجيته. على حين غرة سألته:

«أنت شامي؟».

«شامي من سوق ساروجة».

انتفضت واقفة، رنت الجرس، فظهر مدير المكتب. التفتت إلى أحمد، وأشارت إلى الباب:

«الله معك».

بالكاد تمكن من الوقوف؛ كانت تطرده!! حاول متلعثماً أن يفهم ما الذي جرى خلال لحظات. قاطعته:

«ولا كلمة».

تسمر مندهشاً وهو يسمعها تقول لمدير مكتبها:

«طالعو بره».

كانت تقطيبة جبينها وحنقها، كافيين ليتوجه إلى حيث ما زالت تشير بإصبعها. خرجت من فمه كلمة واحدة:

«لماذا؟»!

أجابته:

«أساعد المحتاجين فقط».

«أنا محتاج».

«أنتم الشوام قدّ حالكم، لا تحتاجون لمساعدة، تعرفون كيف تدبرون أموركم».

وهو خارج، دفع مدير المكتب إليه بالباقة:

«خذها معك، السيدة أم راما معها تحسس من ورق الهوا».

تحير، وقال تأدباً:

«الهدية لا تُردّ؟»!

«لا تردها، في الدخلة المقابلة، يوجد حاوية للقمامة، ارمها هناك».

لم يرمها هناك، قدمها إلى صديقه جميل.

****

لم يتنصل جميل من مسؤوليته عما جرى، لو أنه زود صديقه بالمعلومات الكافية عن أم راما، لوفر عليه الخزي. طيَّب خاطره، مهوناً عليه طرده، مخففاً عنه صدمته بالسيدة المحسنة، بما يعرفه

عنها. وكان ما يعرفه، لا يعرفه إلّا القلة.

في الحقيقة، أم راما لا تتأخر عن مساعدة أحد، حظك معها لم يكن جيداً. تعتقد بأننا نحن الشوام أوضاعنا جيدة، فلماذا تعيننا وغيرنا أحق. صرفتك من وجهها، كيلا تأخذ دور غيرك. لو أن أم راما أعطت كل طالب حاجة حاجته، لأفلست وتوقفت أعمالها. لذا تضطر لإجراء تصفية، تنتقي فيها المحتاجين الحقيقيين. لا تزعل، نحن الشوام مضروبون بحجر كبير. بالنسبة إليهم نحن غير محتاجين، حتى لو كنا بأمسّ الحاجة فعلاً. كما أن الشوام عودوها على أن يدفعوا لا أن يقبضوا. من حسن طالعك أنك لم تخطئ معها، لو أنك جادلتها وألحفت عليها بالسؤال، لخرجت محمولاً على قفاك. طالب الحاجة أرعن، من يقصدونها يعرفون ما تملكه من مال، ويتسامكون عليها، ويتغالظون في الطلب، بالمقابل تعاملهم بالتي هي أسوأ، كلٌّ حسب حيونته. من قبل، كان تعاملها ألطف وقلبها أرق، لكن من فرط كرمها كادت أن تصبح فقيرة، الخير مثل الشر، شره للمال. من أين لها بالمال الوفير، إذا كان الخير يبدده. هل تظن وراءها بيت مال؟! أم راما ذكية، تعوض ما تصرفه على أعمال الخير بإسهامها بإنجاح مشاريع تجارية وصناعية وسياحية، تدر عليها أموالاً كثيرة. تأخذ من الأغنياء، وتعطي الفقراء، مثل أرسين لوبين. أفسحت للإحسان مجالاً كبيراً، كأنه سبيل أو وقف، لوجه الله تعالى. لكنه ليس مفتوحاً على مصراعيه لكل من يطرق بابها.

عزم جميل صديقَه على العشاء، ليبرئ ذمته تجاهه، ما باليد حيلة، يُنسيه ما مُنيَ به من كسر خاطر كان هو سببه. ويبرهن له أنه لم يتقاعس عن مساعدته. أخذه إلى قصر البللور في باب توما، وطلب كميات مضاعفة من المشاوي والمازة، مع بطحتي عرق، أحمد لا

يشرب العرق، اكتفى بزجاجتي بيرة، فكانت البطحتان من نصيب جميل، ففتل رأسه واستعرض آخر الفضائح وشطاراته في الحصول عليها، وهو حديث محبب إليه، ثم عرج في حديثه على أم راما، وامتدح فضائلها بإسهاب، وطاب له الكلام، فانفلت لسانه من تلقائه، أو من عقاله، فاستفاض بالحديث، ويا للعجب!! تلك من مزايا العرق محطم الأسرار، فاكتست قصة السيدة المحسنة بمسحة قشيبة تحفل بالمتناقضات العملية والخيرية. مما جعل أحمد يرى في الخير العميم الذي أصاب الكثير من الناس، ليس خيراً خالصاً، مثلما الشر ليس شراً كله.

رجل لكل أوان

للأمانة، لا يمكن رد نجاح أم راما المهني قبل كل شيء، لقدراتها فائقة الذكاء أو لظروفها الاجتماعية فحسب، ثمة عوامل مساعدة هي مدينة لها، على رأسها وضع أسري ممتاز سمح لها بممارسة نشاطات مختلفة ومتعددة بحرية مطلقة، وتشجيع رجل عصري جداً، لولاه لما كانت أم راما سيدة ملء الأسماع والأبصار. وإذا قلبنا القول المعروف: وراء كل رجل عظيم امرأة إلى: وراء كل سيدة عظيمة رجل، فوراء أم راما زوجها الاقتصادي المعروف عبد الحميد صطوف. وكان رغم قيامه بأعباء مناصبه خير قيام، قد أبدى تفهماً فريداً لعمل زوجته وساند انطلاقتها الأولى، في شؤون أبعد ما تكون عن طبيعة المرأة.

أُشتهر عن أبو راما بأنه عدة رجال مجتمعين معاً في واحد وفي آن واحد، كان رجل كل أوان!! تشهد ألقابه المثيرة على فاعليته؛ وعلى

سبيل المثال، لم يُدعَ الرفيق صطوف برجل البورصة عبثاً، رغم عدم وجود سوق للأوراق المالية، فحين تنزل الليرة، يوقف نزولها، وربما طالعها، وحين يطلع الدولار، يخفف من انعكاساته الكارثية على الاستيراد وأسعار السلع في الأسواق؛ فوُصف عن جدارة برجل الأزمات المعقدة، فحينما تتجاوز نفقات الدولة التقديرات العلنية في الميزانية، أو يميل الميزان التجاري نحو الخسارة، يبرر بكل جسارة بالجداول والخطوط البيانية النفقات الجسيمة، فيقلب الغرم غنماً. كذلك رجل المهمات الصعبة، تنتدبه وزارة الاقتصاد، لطلب قروض من الدول النفطية الشقيقة، ولنقلِ رسائل هامة يتطلبها تذليل عوائق التصدير والاستيراد بين البلدان العربية. إنجازاته الكبرى، التصدي لمطالب البنك الدولي والقضاء على الركود الاقتصادي المثابر على مداهمة البلد دورياً، ومشاركته بوضع خطط اقتصادية، كانت ناجحة إعلامياً.

الميزات الأكثر التصاقاً بشخصية الرفيق صطوف، بشاشة وجهه وطيبة قلبه ودماثة خلقه. لم يضايق أحداً، أو يزعج مخلوقاً، حتى أنه لم يؤذ معاونين وموظفين يعملون تحت إمرته، انتفعوا من وراء ظهره بتمرير صفقات وعمولات غير مشروعة، وأحياناً معامل ضخمة، دون أن يستفيد منها البلد، أو هو بقرش واحد. وقد استغله الكثيرون، كانوا يرسلون إليه طلباتهم مع الجنس اللطيف المهيض الجناح، فيستجيب بأريحية وشهامة.

كانت النساء نقطة ضعفه الوحيدة، فشهيته المفتوحة للجنس واللطف معاً طار صيتها، والنسوة اللواتي يطرقن بابه يعرفن سلسلة الإجراءات المتخذة خلف الباب المغلق؛ يفتح دون تلكؤ أزرار قميصه، يبخ الديودوران الرجولي تحت إبطيه وعلى صدره، ثم

حسب مدة الاستراحة بين الاجتماعات، إذا كانت المرأة تستأهل يخلع ملابسه بالكامل، وإذا لا تستأهل يرخي بنطاله فقط؛ وعليهن دون تمهيد، القيام بالإجراءات النسائية الموازية، بخ الديودوران الأنثوي بين الثديين والفخذين، ثم رفع تنانيرهن أو خلع ملابسهن بالكامل. وإذا تأخرت، يربت على خدها إذا كانت جالسة، أو يطبطب على مؤخرتها إذا كانت واقفة، قائلاً:

«عجلي، عندي اجتماع».

لم يكن انتقائياً، ولم يثر لديه الحجم أو اللون أو الملمس اعتراضاً، كانت نفسه هنيّة وسِكّينته مطابخية، لا يعف عن امرأة، متوسطة الجمال أو بشعة، طويلة أو قصيرة، سمينة أو نحيلة، مهما كانت منزلتها الاجتماعية، محترمة أو غير محترمة، مثقفة أو متعلمة أو غير متعلمة، عاطلة عن العمل أو موظفة، عاملة في القطاع العام أو الخاص، براتب شهري أو مياومة.

عين الدولة الساهرة واليقظة لا يخفاها دبيب النملة، فكيف بحفيف تنزيل البنطلونات ورفع التنانير، حتى لو اقتصر التنزيل والرفع على السحابات كتيمة الصوت؟! التقط المخبرون صوراً للرفيق الفاجر بأوضاع مخلة بالآداب العامة، واجهوه بها، لم ينكر، هم الذين تأخروا، رائحته كانت فائحة منذ زمن. لكن كفه النظيفة تشهد على نزاهته، لا دفتر شيكات ولا حسابات شخصية في البنوك المحلية والأجنبية، ولا أبنية وسيارات وفيلات وأراضي. في بيته عثروا على مبالغ تافهة. لم ينكر سلوكه المستهتر، الرجل الشرقي لا تعيبه فحولته. في الحقيقة، تعرض للاستغلال، وفي حالته كان استغلالاً جنسياً، ولقد استجاب. إذا لم تأبه النساء لسمعتهن، فلماذا يأبه

لسمعته؟! لم يذهب لغندهن، هنَّ اللواتي أتين إليه، لم ينقضّ عليهن، هنَّ اللواتي فرشخن له. والصور تثبت حضورهن إلى مكتبه، وفرشختهن له على الصوفا، دونما قسر أو إكراه. نتيجة التحقيق، كُفت يده عن وظائفه الاقتصادية، ولم يستغنوا عنه، أوكلوا إليه مهمات وبرامج اقتصادية سرية مع صلاحيات أوسع.

قبل أن تنتزع منه وظائفه الاقتصادية العلنية بوقت طويل، باشرت أم راما أعمالها التجارية على نطاق ضيق وبواسطة الصديقات، ثم على نطاق أوسع، أثثت مكتباً باسم وهمي، اقتطعته من الحديقة وضمت إليه الكراج والقبو، أدارت منه عملياتها. وأقنعت المتعاملين معها، باستقلاليتها عن زوجها ووظائفه، ونشاطاتها المنفصلة عن نشاطاته، تظاهروا بتصديقها، يعرفون أن مزاعمها من أصول العمل والمصلحة. عندما دهم رجال الرقابة والتفتيش المنزل، لم يقتربوا من مكتبها، على الرغم من التصاقه بالبيت. كانت التعليمات: لفلفوا القضية، لا الوضع الاقتصادي ولا السياسي مواتيان لإثارة فضائح.

لم تثر غضبها فضائح زوجها الجنسية التي أدت إلى إقالته، فما زال في الخفاء على صلة بمهام أكبر، والعمل جارٍ على إعادة الاعتبار إليه رسمياً. بالنسبة إليها، لم يكن في توصيف أفعاله بالخيانة الزوجية مفاجأة، كان قد خانها في شهر العسل في فندق يقع على شاطئ البحر، في مدينة تدعى الإسكندرية، نزلت تتسبح، لم ينزل معها، ادعى أنه نسي المايوه في الغرفة، لحقت به بعد أن تذكرت أنها نسيت شيئاً يخص أمورها النسائية، فتحت الباب وضبطته مع الشغالة السمراء يسبحان في عرقهما. أصابتها السكتة، كانت صغيرة وخائفة من ليلة العمر، حاولت تأجيلها طوال أسبوع كامل، وقاومته خمس مرات في اليوم، مرتين نهاراً وثلاث مرات ليلاً. في

كل مرة يخوض معها معركة ملامسات وملاطفات ومداعبات ومشاجرات يخرج منها متهيجاً ومخرمشاً، وتخرج منها، مثلما دخلتها، عذراء. ليالي شهر العسل أفقدتها التمييز، هل كان ذليلاً بسبب وضاعته، أم كان لطيفاً فعلاً؟

عندما ضبطته على سريرهما في الفندق، شدهتها مؤخرته العارية المقببة، طالعة نازلة فوق امرأة بلون البن، نائمة وربما متعبة. كأنما استغل نعاس المرأة أو استراحتها، فانبطح فوقها. التفت ورأى زوجته الصغيرة مخطوفة اللون، تنظر إليهما برعب، قفز حانقاً ودبدب كالغوريللا، عارياً مغطى بالشعر الكثيف، كان من النوع المسمى بالمشعراني. أما المرأة فاعتدلت في جلستها، لبست روبها الخفيف، أخذت كيلوتها، دعكته وأخفته في صدرها وخرجت دونما كلمة.

اندفع نحوها يريد الاعتذار، فارتعبت، بدا لزجاً وعلى وشك أن يدبق بها. من شدة خوفها، انحلت عقدة لسانها المربوط، سَبَّتْ أباه وبصقت عليه وهربت إلى البحر تغسل رأسها من منظر الشَّعر والخوار، وجسمها من دبق كاد أن يعلق بها. قضى الليل يقنعها بأنه رجل وغد طالما لم تسايره، وقد يقدم على سفالات في منتهى الحقارة إن لم تطاوعه. ورجاها: ارحميني، لن أستطيع النوم إن لم أفعل هديك الشغلة.

ماذا تكون هديك الشغلة؟! أخذتها مخاوفها إلى مكان بعيد ومجهول. فيما كان المكان الذي يقصده: هنا، قريب كحبل الوريد!! لم يلتفت لهذا التناقض، إلّا بعدما سألته ما الذي يعنيه بهديك الشغلة؟ فأدرك التشويش اللاحق بها، كيف تكون هديك الشغلة، في حين أنها هيّ الشغلة، لماذا توصف بالبعيدة بينما هي

دانية؟! أليس في تبعيد القريب إفساد لصورته، إذ ما تبعيده عن الذهن والعين إلّا بغرض إخفائه؟ بينما هو: هذه الشغلة. على الرغم من فذلكة المقاييس والأبعاد، وما أجراه عليها من تصحيح، لم يحرز تقدماً، بل حقق تراجعاً خطيراً، لأن الشغلة مازالت إياها، الخائفة منها، وزاد عليها قرفها منه، إذا كانت تقرف من الشعرة الواحدة، فما حالها إزاء عريه وما كشف عنه من غابات كثيفة الشعر، ومأهولة بالعرق؟!

تنَّحَ وأصر، لن يمشي الحال معه إلّا بإراحة باله من هذه الشغلة، وإذا لم تحصل هذه الشغلة بينهما فيا لبؤسه!! غيره من الأزواج يقضون شهراً بطوله وأكثر، دونما شاغل يشغلهم سواها، أما هو فيقضيه في إقناع صبية؛ المفترض أن تكون فائرة ومهووسة بأمر لا يجهله الأولاد الأبرياء من سن القماط، ويعرفون أنه لذيذ وحلو، ألذ من أكل العسل، وتيمناً بحلاوته وشهده أطلق عليه شهر العسل، يتناوله العرسان بإفراط في الأسابيع الأولى من الزواج. ومن شدة الإقبال عليه وضراوته لم يدعه أصحاب الخبرة والضالعون بالجنس الحلال، للطبيعة المفترسة للرجل، بل كتبوا عنه الكتب تحت عنوان «ليلة الزفاف» نسبة للزفة التي تسبق الليلة الموعودة، ودعي كذلك بـ «ليلة الدخلة» لدخول العريس على العروس، دونما ذكر للخروج، للتأكيد على أنها ليلة دخول بشكل أساسي، فلا يعتد بالخروج، ولو خرج. ونصحوا العرسان بلائحة تعليمات وقواعد وأبواب مع تمهيد واف، فصار لطيفاً وشهياً وممتعاً.

أم راما، وكانت في ذلك الوقت تدعى رباب فقط، لم تلق أذناً صاغية للائحة التعليمات، وبقي صطوف في حالة خروج دائم من غير أي دخول. استمر وضعه هكذا، انتظار وتأهب وانتصاب بلا

جدوى، تجرع خلالها برميلاً من الكرب والجفاصة. بعد هذه المكاشفات، ما الذي حصل؟! أمضى البقية الباقية من شهر العسل بلا عسل أصلي أو مغشوش، لم يصب لحسة منه. عندما يقترب منها، تزم فخذيها، عندئذ لا تستطيع قوة في العالم فتحهما.

مأساة العسل غير المباح لم تنته إلّا بعد تدخلات أمها والمشايخ والطب العربي والإفرنجي. انتهت دونما مشقة، أعطوها عياراً مضاعفاً من المهدئات، عندما صحت قالوا لها مشي الحال، ويوم أحسن من يوم، إلى أن أصبح أمراً واقعاً، ليلاً يربض فوقها ويكبس على صدرها، قبل أن يُزهق أنفاسها تنقذها شهقة الإنزال، بالنسبة إليها كانت شهقة النجاة. بعد أن أزال شعر جسده، وأصبح أزلط أملط كالصبيان الزعران الذين كانت تراهم يسبحون في النهر بلا لباسات، لم يخُفَّ اشمئزازها منه، وطالبته باختصار عملية التمهيد وفنونه، فوافقها توفيراً للوقت. لكنها لن تتنازل عن حقدها القديم على عائلة صطوف الجربانة.

****

قبل أن نتقدم إلى الأمام، لا مفر من العودة إلى الخلف، ثم أقرب قليلاً، لأن نصف المشكلة يكمن في ذلك الماضي الأبعد فالأقرب. عندما خطبها صطوف لم يصدق أحد في الضيعة أن ابن الفقراء سيحظى برباب ابنة الأغنياء، مع أن عائلتها لم تكن غنية، كانت غنية قبل أكثر من عشر سنوات، عندما استُدعي أبوها إلى فرع الحزب، تكريماً لجهوده التعليمية المشرفة، أيام كان مديراً للإعدادية التي تخرج منها رعيل من الطلبة أصبحوا فيما بعد من الحزبيين العتاة والضباط الشرسين. رشحه رئيس الفرع وكان واحداً من

تلامذته، لتسلم إدارة المؤسسة الاستهلاكية في المدينة القريبة من الضيعة. فاعتذر عن الوظيفة لجهله أصول البيع والشراء. أصر المسؤول الحزبي: المنصب مكافأة لك، تقديراً لخدماتك للحزب والوطن، أنت الوحيد الأهل للثقة، ربيت أجيالاً، وزودت الدولة بطاقم فذ من الرجال الأشاوس، يمسكون البلد من طرفيه المدني والعسكري، بعد هذا العمر من النضال الوظيفي والجهاد التدريسي، ما الذي أمسكته؟! هز رأسه، لم يمسك أكثر من طبشورة وعصا. وبحركة تمثيلية أعلن تلميذه السابق: باسمي وبالنيابة عن تلامذتك نقدم لك وظيفة تستفيد منها عرفاناً بجميلك على أبناء جيلنا.

لم يرض: قمت بواجبي تجاه البلد ولا أريد أجراً. فانتفض المسؤول الحزبي: ليست منحة ولا هبة، الدولة هي التي تشكرك. ففكر المدير وأجاب بخجل: المعتاد أن تقدم الدولة وساماً. ضحك تلميذه السابق: الوسام لا يطعم خبزاً، انتهجنا أسلوباً عينياً في تقدير الكفاءات، بالنسبة إليك، مؤسسة بحالها. فاعتذر، في المدرسة لم يتحمل مسؤولية القرطاسية، لئلا يضيع منه دفتر أو قلم، فكيف ببضائع وجداول وحسابات وقيود؟! طمأنه: ما تجهله اليوم، تتعلمه غداً. فالتمس المدير تركه يومين ليدرس الموضوع. فهبَّ تلميذه منزعجاً: شو عاجبتك عيشتك، روح انتفع. فراح وانتفع.

في ذلك الزمن، زمن المؤسسات الاستهلاكية، عندما حصرت الدولة بيع معظم الحاجيات في مؤسساتها، من الملابس الخارجية والداخلية إلى الخضار والفواكه، لم تتم عملية التحول إلى الانتفاع بهذه البساطة. بالنسبة إلى مدير مدرسة، العلم رائده والأخلاق ديدنه، سبقها تأنيب ضمير ذو طابع اشتراكي، وهو ضمير قائم على نكران الذات والانتصاف للفقراء. كانت ردة الفعل الرافضة لمدير المدرسة

مبدئية، ومن طبائع التحولات الاشتراكية التي تتجه نحو الأرقى وليس نحو الأدنى، فكيف يتحول مدير إلى بائع؟! تم التحول ببساطة؛ حتى لو كان مديراً يتعين عليه الامتثال لأوامر الحزب. بعدها كان من الطبيعي أن يظهر تشدداً في المحافظة على أموال الشعب ومحاربة الهدر، وإعطاء كل ذي حق حصته من السكر والشاي والزيت، بموجب قسائم تدعى بونات. بعد وقت قصير، تشكلت على مقربة من المؤسسة سوق تغص بالبائعين والشارين وتحفل بالبضائع من كل لون وصنف، سوق ابتكرتها الحاجة أسوة بالأسواق المنتشرة في المدن الأخرى. أطلقت عليها الدولة تسمية شاملة: السوق السوداء. وعممتها بواسطة الإذاعة والتلفزيون، ووصفت المتعاملين فيها، بالجشعين الانتهازيين الطفيليين، وأقصتهم عن الشعب المنتج.

مدير المؤسسة، شغَّل عقله: مهما قالوا عنهم، فهم من الشعب، وإذا لم يكونوا من الشعب، فمن أين جاءوا؟! لم يخطئ ما كان يراه، فريق من الشعب يشتري من المؤسسة المواد الغذائية بسعر رخيص بالبونات، ويبيعها بأسعار أغلى إلى فريق آخر من الشعب!! إذاً، من الشعب وإلى الشعب. يا للفضيحة، مهما كانت الأسباب، لا تبيح للشعب الأبي اللجوء إلى هذه الألاعيب الحقيرة والأساليب الدنيئة للتهرب من القوانين الاشتراكية التي تحميه، هذا الشعب لا شيء يصلحه، لا الدولة ولا الحزب، الله لم يقدر عليه!!

خيبته أخلفت وراءها غصات، لم يكن الشعب أبياً حسب الأدبيات الخطابية، وإنما شعب يناضل بالغريزة، ولا يوفر حنكته في التغلب على الحقائق الاشتراكية. فلماذا يكون حنبلياً أكثر منه؟! الشعب ذكي، يعمل طبقاً لمبدأ فطري سنته الطبيعة قبل ظهور الأديان

والشرائع: كلٌّ وشطارته؛ مدير المدرسة لم يكن أقل شطارة من الآخرين. فتحول إلى الانتفاع.

على الرغم من الطابع الفكري للنقاش السابق، لا ينبغي أن نأخذه على محمل الفكر. التحول الفعلي جرى بعد مناقشة واقعية، طرح فيها الواقع تساؤلاته من خلال مناظر تكررت يومياً؛ أكداس بضائع لا تفتأ تتكدس فوق بعضها بعضاً، وبشر لا يفتأون يتكدسون صفوفاً صفوفاً. فتكدست الأسئلة بالطول والعرض. الأعمى وحده لا يرى هذه الصفوف الطويلة من البشر الواقفين بالدور يتدافشون ويتخانقون ويسحبون على بعضهم السكاكين ويتضاربون من أجل كمشتين رز وقنينة زيت نباتي، ويأكلون كل شيء حتى الحجر!!

من يصمد أمام إغراء البضائع الوفيرة، وما ينتج عنها من أرباح بلا رأسمال؟ هل يدعها تذهب بسعر كالبلاش؟ بداية، ميز أقرباءه وأصحابه عن غيرهم وصرف لهم بسخاء ما يطلبونه، كأنه يعطيهم من جيبه أو دكانه، أو دكان الذي خلَّفَه، فلم يبق أحد من الضيعة إلّا وقصده وطلب منه شيئاً، بل وأشياء، البضائع الموجودة في الاستهلاكية لا تعد ولا تحصى. أرضى الكثيرين، ولم يبخل عليهم، قضى لهم حاجاتهم، كل شيء بثمنه، كما للأولويات والكماليات أثمانها أيضاً، فاكتسب صيتاً طيباً. أما أهل بيته فأصابهم البطر من كثرة ما لبسوا وأكلوا وصرفوا وبعزقوا. الوشاة لم يدعوه في حاله، أبلغوا أولي الأمر، فأبلغ أولو الأمر تلميذه السابق، فحذر مديره السابق، الجماعة في التفتيش سيدققون الحسابات والقيود، فدبر أمورك. تدبير أموره ليس بالهين، لم يحسب حساباً لهذا الحسابات، ومهما تلاعب بالقيود وكميات التلفيات لن يغطي عجز سبع سنوات. طلب معونة تلميذه السابق، فقال له: ولا يهمك. وكان

نِعْمَ المعين، أصحاب المسؤوليات الكبيرة لا يجهلون مفاعيل محاسن المصادفات. قبل هبوط لجنة التفتيش بيوم واحد، سأله: في عندك كبريت؟ قال، نعم. فقال، انحلت، أعطِ المؤسسة كبريتة. مساء اليوم نفسه، اندلع حريق في المؤسسة نتيجة ماس كهربائي، أتى على دفاتر الحسابات وأدى إلى بعض الأضرار الطفيفة. فسرح من وظيفته بسبب الإهمال.

طوال سبع سنوات من التخمة والكرم، اعتادت العائلة على الجخ والرخ، فبرطعوا بالعز والرفاهية ولعبوا بالمصاري وتبحتروا بها ذات اليمين وذات اليسار. فجأة وجدوا أنفسهم يعودون إلى زمن كان غابراً ومنسياً. أما رباب، مدللتهم الصغيرة فإلى زمن لا تتذكره؛ خلخل تركيبة العالم الجميلة في نظرها، انهارت المشاهد السعيدة من حولها، واكتشفت الفقر، وتعرفت على التقتير وشظف العيش وقيمة الربع ليرة، بعد استهانتها بألعاب ضخمة. رجل الفضاء الآلي وقطارات على البطارية وسيارات على الريموت كنترول، وفساتين مكشكشة وأرواب مهفهفة. كل هذا وغيره، لم تعد تراه إلّا على واجهات المحلات في مدينة ظنتها في يوم ليس ببعيد ملكاً لأبيها، أيام كانت أميرة صغيرة طلباتها على العين والراس. صارت تقف وتتأمل أرقام أسعارها السحرية، دونما أمل بالعودة إلى ماض لا ينسى، وأصبح بدوره غابراً. لكن سمعتهم، والحمد لله، بقيت عطرة وطيبة، ما زال أهل الضيعة يعتقدون أنهم أغنياء، لكنهم يخفون أموالهم.

طلبها صطوف للزواج، بعد عودته من باريس، حاملاً شهادة دكتوراه في الاقتصاد. توقف عند أهله المعدمين في الضيعة. قبل أن يكمل طريقه إلى العاصمة، وقع في غرام بنت الأغنياء، عقد خطبته

على الفتاة الجميلة التي لم تكن ذكية فحسب، بل وطموحة أيضاً، حتى أن الدكتور الباريسي لم يُرضِ طموحها، مع أنها لم تحصل إلّا على شهادة البكالوريا، وتسجلت في كلية الأدب العربي. خلال أشهر الخطبة الستة، كرهت عريسها الذي لم تره سوى عدة مرات كان مجموعهما بضع ساعات، وكونت فكرة عنه؛ رجل بخيل لم تفلح باريس في تخليصه من جربنته، لسبب جوهري: الشرش بيسقي؛ ومهما علا الغصن وأزهر فالجذر فاسد. لم يبق أحد إلّا وأنحى باللائمة على الأب، كيف قبلت به زوجاً لابنتك؟! عائلة صطوف كحيانة. الأب لم يتراجع، الشاب معه دكتوراه من فرنسا. تجاهل أن الدولة أرسلته على حسابها، وراتبه لن يزيد على راتب موظف؛ قبل به لشهادته وحدها، مستغلاً جشع العريس، الذي ظن أن العائلة غنية.

أطاح الزواج مشاريع رباب، كانت تعد نفسها لتصبح معلمة أجيال مثل أبيها، وعضوة في الاتحاد النسائي؛ وبأحلامها، حلمت بزواج مرموق، تستعيد به الأيام الخوالي، وليس بزواج من موظف، حتى لو كان موظفاً في العاصمة. هل تفرح إذا نادوها بمدام صطوف؟ وماذا إذا صارت مدام صطوف؟ الطاسة ضايعة في العاصمة، مثلها كثيرات، تضيع في دمشق مائة طاسة كمدام صطوف. في الضيعة لا تضيع زوجة صطوف حتى لو كانت إبرة، الجميع سيعيّرونها بحظها العاطل. كانت رقة مشاعرها تتفجر بكاء عندما تحس بأن الدنيا كلها تعلم بأنها تنام مع الغوريللا المشعراني، دونما مقابل ولا تعويضات.

لن يرتاح بالها، طالما كان يرغب فيها ليُريِّح باله بهديك الشغلة، في أي وقت يشاء ليلاً أو نهاراً، لن تكون طوع رغباته، ولن تشغل

نفسها به وبها، أكثر من مرة في الأسبوع، فقط مساء الخميس. شارطته فرضخ، شيء أفضل من لا شيء. وعندما يتشاجران، تتنصل من شرطها وتحرد منه، فيخسر الأسبوع، ويتأجل دوره إلى الأسبوع الذي يليه. تكاثرت مشاجراتهما، كانت تفتعلها لتنجو من الخميس، فرفض الشرط المجحف وأضاف شرطاً: الحرد لا علاقة له بهيّ الشغلة، كل شيء وحده.

لكن حينما صعد الرفيق صطوف كالصاروخ وصار معروفاً محلياً وعربياً، تجاهلوا في الضيعة أصله الوضيع، وهي أيضاً مالت إليه، اقتنعت بنصيبها وارتاحت إلى تضخم مداخيل زوجها، راتب كبير ومهمات وإضافي. أصبحت معروفة ضمن حلقات أكابر النسوة، وعلت مكانتها مما جعلها تحرص على سمعتها. كما أنها أطاعت زوجها وبطّلت الحرن، واستجابت لمتطلبات جسده الأسبوعية وأضافت إليها: رأس السنة، أعياد الميلاد، الترفيع، وداع ما قبل السفر والعودة من السفر، وتساهلت في أيام العطل والإجازات والأعياد الإسلامية والمسيحية.

مع الصعود في العمل والوئام في البيت، وردتها الأخبار عن غزواته النسائية، فلم تلق بالاً إليها، مغامراته في الخارج توفر عليها تحرشاته في الداخل. مع الوقت تضخمت أخباره الوسخة ووجدت طريقها إليها، أقلقتها سمعته، صطوف زوجها ومحسوب عليها!! فطلقت اللامبالاة وعادت إلى مشاجراتها معه، ولم تتسامح معه، تشددت في محاسبته، وتصلبت في حردها. صارت دناءاته الجنسية تضايقها، كانت مهينة لكرامتها، يجن جنونها، تشتمه وتضربه، ينكر ويحلف ويعتذر لها، يقبل يديها وقدميها، فتغفر له، وتعاقبه بالامتناع عن النوم معه لمدة أسبوعين، لكن فحيحه الجنسي يجعلها تتراجع عشية اليوم التالي.

لم تنفع تسهيلاتها الجسدية في إشباعه، أو ردعه عن خياناته. كانت أوضاعهما المعيشية قد تحسنت كثيراً، فاضطرت إلى السكوت من أجل طفلتها الأولى، وسكتت من أجل طفلتها الثانية، إلى أن طفح الكيل بها. ذهبت إلى الضيعة، وتركت وراءها ورقة كتبت عليها كلمة واحدة: طلقني. اشتكت لأهلها، أمها نصحتها: لا تخربي بيتك الرجال كلهم هكذا. قالت لها: أبي لم يكن هكذا. فقالت لها: أيام الاستهلاكية لم يوفر نَوَرّية. وأبوها قال لها: عودي من أجل الأولاد، هذه فورة الأربعين، سنتين ويهدأ. ووقف إخوتها ضدها: لا تفضحينا، صبية ومطلقة وأم لطفلتين؛ من سيحملك ويحملهما؟ حضر صطوف واسترضاها بطوق ألماس، فعادت معه. بعد أشهر زارها أبوها، قالت له باكية: ظلمتموني، عاد مثلما كان وأسوأ. فقال لها طلقيه، وارجعي وحدك، أولاده لا يدخلون بيتي. ولم تتجرأ ثانية على طلب الطلاق، أصبح من ذكرياتها الصبيانية.

****

ليس الرجال كل شيء في الدنيا، خلقهم الله للنكد، في الحياة تسليات كثيرة جميلة وممتعة. أين سمعت هذا؟! لم تسمعه، كان الرجال والحياة هكذا بالفعل. فانطلقت وشاركت في صباحيات النسوة ومشاويرهن إلى محلات الكوافيرية ونوادي الأيروبيك والسناكات ولانوازيتات وشوارع الحمراء والصالحية والقصاع، ومناسبات... لا تنقطع في فنادق النجوم الخمسة والمطاعم الكبرى. وكان يجب أن يمضي زمن، لم يكن طويلاً، لتشفى من الصورة التي استسلمت لها، صورة الزوج الخائن والمطاع، ولتتعلم أن ندب حظها لن ينفعها، ولتدرك أن المرأة التي تسلس قيادها لرجل، سيدربها على أن تكون عمياء.

أصبح لها صديقات ثريات، علّمنها أن تحتقر زوجها، كما يحتقرن أزواجهن عن جدارة، الزوج بالنسبة إليهن مادة للتنكيت والخيانة المعاكسة. لا قيمة له ولا حساب، المكانة الأولى للأسرة، الأسرة مقدسة، الهجران: نعم. الانفصال: لا. الأولاد كل شيء في الدنيا. ينبغي تربيتهم وتعليمهم وإيجاد عمل لهم وتزويجهم بحفلة عرس مطنطنة، مع تأمين بيت لسكناهم. ولا بد من الزوج سواء كان طبعه خرا أو مغفلاً؛ ليوفر لهن المال للحفلات والسهرات والسيارات، وما دام الفراش يجمعهما في آخر الليل، فما المانع من تلبية حاجته. المرأة ولو كانت مدبرة حالها، تشتهي في لحظة ضعف أو رواق؛ أحياناً تكون مقطوعة. ونصحنها: أريحي حالك وبالك، كيف؟! لا ترحميه من طلباتك. فعملت بنصيحتهن، وأصبح عندها خادمتان في البيت، واحدة للتنظيف والطبخ والثانية للعناية بالبنتين. أراحت حالها، ولم يسترح بالها.

تلمّسها لحياة جديدة بدأ حينما أخذت الهدايا الذهبية: خاتم، إسورة، طوق، سلسال، وغيره، تنهال عليها مقابل أمور صغيرة. كانت صديقاتها يطلبن منها أن تستفسر زوجها عن صحة بعض الشائعات والأقاويل، متى سيخفضون جمارك السيارات، ما نسبة رفع إيجارات البيوت، هل سيتوفر الإسمنت والسيراميك والحديد المفقودان من السوق، ثمة أقاويل عن تصنيع بعض السلع محلياً، ما صحتها؟ هل سيسمحون باستيراد العطور والملاحم الكهربائية والأجواخ والجبنة الفرنسية؟ استفسارات تدور حول المتوقع وغير المتوقع، الممنوع والمسموح.

للهدايا روعتها، لكن المكانة التي تبوأتها بين النسوة صاحباتها كانت أروع، خاصة اللواتي يتبضعن ملابسهن من باريس ولندن، ويقضين

الصيف في موناكو، أو على شواطئ الريفييرا الفرنسية وماربيا الإسبانية. كانت تحسدهن على تقيدهن بالإتيكيت في الاستقبال وسخائهن في المجاملات، ومراعاتهن لآداب المائدة من الشوكة والسكين إلى المضغ بلا صوت، ومجاراتهن للموضة القصيرة والطويلة والألوان التي تلائم كل فصل من فصول السنة. فوجئت بحفاوتهن بها ومسارعتهن إلى مرضاتها. فيما كانت تسعى إلى تقليدهن والتشبه بهن!!

لم تتظاهر بالطيبة والوداعة، إلّا لأنهن كُنَّ يطلعنها، دون أن يدرين، على خبايا مهنة بدأت تستولي على مجامع أفكارها فيما كان رأسها ينفضّ عنه خمول سنوات الزواج وينبري للعمل. أم راما الذكية أدركت أن الدولة عندما تمنع الاستيراد تفتح أبواب الاستيراد للمهربين، وعندما يتعطل العمل في الدولة، لا يتوقف العمل فعلياً، بل تحل محل الدولة دولة أخرى صغيرة جداً تُسيّر أمور البلد. أي أن الدولة، بالأحرى الدولة المصغرة، غبية، وليست غبية. غبية عندما تقدم على منع الاستيراد، وغير غبية عندما تقوم بها ليستفيد منها بعض الناس، فتخلق أكثر من عمل ومهنة.

تبلورت في ذهنها وبأناة، أشكال متعددة وواسعة النطاق، أشكال هي شبكات، كل واحدة منها عبارة عن سلسلة مقفلة من الأعلى إلى الأدنى، متشعبة وعميقة ومتشابكة، ترتبط كلها بعقدة، تمسك أم راما بمفاتيحها. هل كانت تحلم؟!

حينما بدأت النسوة يتنافسن على الفوز بصحبتها، كانت قد اكتملت في ذهنها الطريق الطويلة المتعرجة والمتشعبة التي تبدأ من كواليس الحكومة وتمر من خلال زوجها، إليها، إليهن، إلى

المستفيدين، مشوار لا يكلفها شيئاً، ويحصد الملايين. صحت على نفسها: أيتها الحمقاء، كيف تبيعين أخباراً ثمينة ببضعة غرامات من الذهب؟!

حماقتها لم تكن شيئاً بالقياس إلى بغلنة زوجها، كان بوسع زوجها الجاهل، لقاء تفريطه بأسرار الدولة، أن يركب ملكات جمال عالميات، ويجني في الوقت نفسه ثروات طائلة، لكنه كان يمنحها لقحبات متنكرات بالفاقة والدلال، مضاجعتهن تحصيل حاصل، يستطيع ركوبهن ساعة يشاء، بلا مقابل على ظهر البيعة.

الدليل على بغلنته، أن رجال العمولات والوساطات أولاد الحرام كانوا يستأجرون شراميط من الدرجة الثالثة والرابعة، ويرسلوهن إلى الرفيق الدكتور صطوف، على أنهن: رفيقة محتاجة، صديقة عزيزة، مطلقة مسكينة، فتاة يتيمة، أرملة بائسة...؛ مع توصية: يرجى مساعدتهن! فيساعدهن ويتمتع بهن. كانت سعادته لا تجارى في امتطاء نسوة محترمات وبنات رقيقات الحال مال بهن الزمان!! ولم يسأل نفسه هذا السؤال: لماذا هؤلاء المتمدنات رغم العوز والفاقة يرتدين فساتين مكشوفة البطن والظهر، ويقدرن بسخاء كرمه، وعلى أكمل وجه؟! بل وبلغ به الاعتقاد أن ليس هناك امرأة تستعصي على جاذبيته. كان ينالهن بسهولة، دون أن ينتبه إلى أنهن كنَّ يستسلمن ببساطة، فيسبغ على جولاته إثارة بطولية، يُشبعها بالغل والقهر؛ ولكي تكتمل متعته يمنح لاقتحاماته بُعداً تاريخياً، فيتخيلها غزوات معاكسة يحقق فيها انتصاراً ريفياً؛ بإخضاع سيدات مهذبات وفتيات حييات، بنات عائلات شامية عريقة، لنزواته البهيمية القروية، مستعيداً ماضياً سلف، خلَّف لقطاء وأولاد حرام، استقاه من دروس الثقافة القومية المدرسية، سام فيه الإقطاعيون

الرجعيون العذاب والهوان للفلاحين البؤساء أيام الحكم العثماني ولم يتوانوا عن استغلال نسائهم بعد الاستقلال. تاريخ، يستكمله الآن، بعقاب من جنسه، يسجله مأثرة يضعها في نصابها الثأري، التاريخ يمهل ولا يهمل، المساواة تحققت. فيكتشف فيما بعد، أنهن، يا للخديعة، قحبات وافدات يمثّلنَ أدواراً تعريصية متحضرة.

لم يتعلم الرجل ذو المناصب المرموقة شيئاً من الشاب الريفي الفقير الذي كانه. ولم يتذكر الولد النابهة الذي أفنى عينيه في الدراسة ليلاً على ضوء فتيل الكاز، ونال أعلى الدرجات، وكان الأول في الشهادة الثانوية، حتى أن الرفاق نَسَّبوه إلى الحزب عنوة، بحجة دامغة: على الأقل هذا الولد نجح بذكائه وعرق جبينه، وليس بدفع من الطلائع والشبيبة، لم تسقط عليه أسئلة الامتحان من السماء. ولم يركب هيلوكوبتر، أو يفتح مظلة، ومن غير واسطة. وعندما أرسلوه لمتابعة دراسته في باريس، كانت البلد بحاجة إلى كفاءات حقيقية. وعندما عاد إلى البلد لم يقبل رشوة. كان شراؤه عن طريق فحولته، أرخص.

****

بعد اطلاعها على خبايا الاقتصاد المخطط وخفاياه، هبّت أم راما توقف نزيف الأخبار الثمينة، ما طلبته منه لم يكن كثيراً، عدم تسريب القرارات الاقتصادية قبل إعلانها، أو تمرير أخبار الإجراءات الحكومية المفاجئة، إلّا عن طريقها. فرفض:

«امرأة، وفاسدة!! لم تتركي شيئاً للرجال».

كان صطوف متزمتاً، إذا كان لدى المرأة القدرة على أن تكون

عاهرة، ففي رحاب الفساد، لا محالة، ستتفوق على الرجل، ولن يردعها رادع. منع الرفيق صطوف زوجته من التجسس على نشاطاته، وحذرها من تقاضي الرشاوى بالوكالة عنه، أو استخدام اسمه تحت أي سبب، وحتى عندما جابهته بقباحاته الجنسية علق باشمئزاز:

«لا تقيسي نزواتي الحقيرة، بنهب قوت الشعب».

واعتقد أنه وضع حداً لأي نقاش. لكن النقاش بدأ، هناك من أطلعها على ما يكفي عن أمانته المزعومة، لم يكن شريك العمر نزيهاً، وإنما كانت عملياته محدودة جداً، يقوم عليها شخص مؤتمن ومضمون جداً، يستغشمه ويقتطع لنفسه عمولة كبيرة، لقاء التستر عليه، فكان العائد طوال السنوات الماضية زهيداً. بل ويقصر أحياناً عن صرف رواتب الخادمتين وتسديد تكاليف بعض المناسبات.

«أتحسب أن أحداً لا يدري؟».

قصمت الصدمة دعوى الرجل الشريف الذي انكشف وانهزم فوراً، لم يكن سوى جبان رعديد وفاسد رخيص، لم يستطع أن يكون أكثر من مرتش غبي قصير النظر، باع بآلاف معدودات أسرار الاقتصاد التي لا تقدر بثمن، لقاء الحفاظ على قنوات تحلله وفسقه. استعاض عن ملايين الليرات، بنساء لا يساوين قلامة ظفرها. رفضت المساومة على مصير العائلة، صبرت على حماقاته الجنسية، لكنها لن تصبر على التسيب المالي لعبقري الاقتصاد. هددته، سوف تسحقه إذا لم يتفاهم معها. ولن تتساهل معه، ولن تتورع عن تسليمه للجهات المختصة.

كانت طلباتها عادلة ومشروعة. خضع صطوف لها، بعد أن نظر بعين إلى الجهات المختصة، وبالعين الأخرى إلى المستقبل بمنظار واقع لا يرحم: أولاً، حماية الأسرة من الانهيار والتفكك بسبب تدني الدخل. ثانياً، لا بد من عمل حساب لنوائب المستقبل، قد يقعده المرض عن العمل، أو تفاجئه الأيام بعملية جراحية، معاش التقاعد لا يتحمل تكاليفها الباهظة، هل يذهب بأمراضه وجسده إلى القسم العمومي في مستشفى المواساة؟! ثالثاً، ما أدراه بما قد يحدث في القريب العاجل، المناصب لا تدوم، ولا ضمان لبقاء الحكم على ما هو عليه. رابعاً، إذا حدث ما لم يكن بالحسبان؛ إخبارية، تحقيق، تفتيش، محاكمة، واضطر إلى الهرب، ما مصيرهما ومصير البنتين، كيف يسد رمق العائلة؟ ثم على ماذا يأسف؟! على الضمان الصحي الذي لا يضمن الصحة، ووظيفة لا أمان لها، وحكم لا يدوم حتى لأصحابه. يوماً ما، لا مفر من مغادرة البلد، هل يتسول لقمته في بلاد الغرب؟

جرى الاتفاق بينهما على منحها وكالة حصرية بالأخبار الهامة والموثوقة للمتغيرات الاقتصادية المحتملة، على أن تتصرف بها ضمن دائرة ضيقة جداً؛ وبشرط أن تدعه يتصرف بالأخبار نفسها بعد أن تصبح بائتة؛ ودعماً لاتفاقهما، غضت النظر عن تهريباته النسائية. وكان في عودة علاقتهما سمناً على عسل، برهان على أن التفاهم أساس السعادة، جميع أنواع السعادة، حتى الزوجية منها، المستحيلة.

في داخلها، تعرَّفت إلى امرأة عملية مسيطرة وحديدية، امرأة كانت حيسوبيتها نابعة من تسيب الأب والزوج، وحرمان أدركته في بدايات وعيها أمام واجهات المحلات البراقة، عندما غدت الفساتين والألعاب للنظر فقط. فتعلمت ألا تفرط بأخبارها بثمن غال أو

رخيص، وإنما كبضاعة وفق تسعيرة محددة ومناسبة، خاضعة للعرض والطلب، وتتحكم بها المنافسة. وبلا شك تفوقت أم راما على الرفيق صطوف من الناحية الاقتصادية، أي الاقتصاد في النفقات، فقد علمتها تجاربها كراهية الهدر الذي أضاع على أبيها مؤسسة استهلاكية بكاملها، ولولا نعمة الحريق ورأفة الحزب لخرج منها مداناً ومديوناً؛ كذلك الاشمئزاز من تبذير زوج بدد الملايين في حين كانت الآلاف تكفي وتزيد. الآن، لكل شيء قيمته مهما صغر. ولهذا علاقة بما يدعى غريزة المرأة.

مع الوقت، لم تكتف أم راما بمصدرها الزوجي، ولم تجعل نشاطاتها موقوفة على أخباره. اقتحمت دوائر الحكومة وعقدت صلاتها مع رجالات الدولة ومديري المؤسسات والمعامل وشركات القطاع العام. فتحت معهم جسوراً لتبادل المعلومات، ومع أن معلوماتهم كانت في بعض الأحيان تبدو محدودة ولا تساوي شيئاً، كانت تكافئهم عليها، إذ، وهذا سر المهنة، عندما تُجمع إلى غيرها، تعني الكثير.

حازت مدام صطوف احترامهم، ومنحوا طلباتها الأولوية، ليس لأنها زوجة أخينا الرفيق الدكتور، مع أن اسمه كان له مفعول السحر الكاسح في البدايات، وإنما لشخصيتها القوية، واعتدادها بنفسها وابتسامتها الساحرة، وتقديرها لخدماتهم بخدمات مماثلة، بل وتنفحهم إكراميات كبيرة. بعد فترة لم تطل، بات الرفيق صطوف واحداً من مصادرها المتعددة.

لم تكن تسعيراتها توضع اعتباطاً، بل على القدّ، وأحياناً تنافسية. عموماً، الأعمال مكشوفة، والعمليات باتت معروفة، تتحكم بها حركة السوق، سواء في صعود التعرفة أو نزولها. العمليات الأخرى،

تُدرس كل واحدة على حدة، لا تُهمل فيها كبيرة ولا صغيرة، وفق جدول لا يعنى بالجهد أو رأس المال؛ وإنما بعدد الجهات التي ستصادق عليها وتُمرر من خلالها. ويُنظر إلى مقدار الفائدة التي ستعود على العميل، من ربحية منتظرة، تحسم منها التكاليف، ثم توضع التسعيرة، على أساس عمولة أو حصة، أيهما أفضل، وإذا كانت شراكة بالنصف؛ فنصف أم راما مدفوع دائماً، لقاء تمرير العملية في غابة الدولة، وتسليمها للزبون منتهية تماماً. تتابع أم راما إنجاز كل مرحلة، وتراقب سيرها خطوة بخطوة، ولا تتركها قبل أن تصل بها إلى بر الأمان. ونستطيع القول بأن أحداً لم يتجرأ على اللعب عليها. كانت علاقاتها، والجميع يعرف، جيدة مع أجهزة الأمن المدنية والعسكرية، الداخلية والخارجية. للعلم، لبعض العمليات جانب أمني لا يستهان به.

أعمالها المتوسعة باطراد، أبرزت حاجتها وبوقت مبكر، إلى معاونين أمناء، فأصبح لديها فريق عمل متجانس يشتغل تحت قيادتها، يتألف من مدير مكتب ينظم أمورها ومواعيدها، مستشارون يوجهون خطواتها في مجاهل القضاء والجمارك والعقارات، متعقبون للمعاملات يغطون الوزارات والأسواق ومرافق البلد، قانونيون اختصاصيون بمطمطة القوانين والإفلات منها، وشمامو أثر يتأثرون دروباً تؤدي بهم إلى مفاتيح إضافية، إذ بعد التجربة، لكل قفل أكثر من مفتاح يدخل فيه أو يركب عليه. هل هذا شيء شبيه بما طمحت إليه أو حلمت به من قبل، على غرار بنية الشبكات المغلقة والمتشعبة والعميقة؟! على التأكيد.

إذاً، لا عجب في تفوق خبراتها في أمور الدولة على خبرات موظفي الدولة أنفسهم، بدءاً بالقوانين الاقتصادية الاستثنائية إلى

قوانين الأحوال الشخصية، وكل ما يقع في دائرة اختصاصات أية وزارة أو مؤسسة، وما يطرأ على أوضاع الشمينتو والخشب والحديد والسيراميك وأذونات الاستيراد والتصدير والمصارف وتحويل العملة وتهريبها، والتهرب من الضرائب، والتنقلات وقوانين السجون وشؤون المحافظات.

لا تقبض أم راما أموالاً نقدية، أي ممنوع على الزبون أن يدفع إليها بيده، وبالتالي لا تمسك بيدها أوراقاً مالية. دائماً يجرى الدفع والقبض عداً ونقداً عن طريق وسطاء، هم أكثر موظفيها تكتماً. المشكلة في العمليات طويلة الأمد، مثل الشراكات الوهمية والشركات على الورق والمشاريع الواعدة وشراء الأراضي الزراعية لتحويلها إلى مزارع وفيلات وأراض للسكن، فتحسب أرباحها المتوقعة، وتطالَبُ بها قبل أن يحين أجلها، بآجال.

أما الهدايا فتسلم باليد، لأنها هدايا، والهدايا لا ترفض حسب الدين والعرف والتقاليد؛ حتى رؤساء الدول، لا يمتنعون تحت بصر وسمع العالم كله عن قبولها. الهدايا عموماً ثمينة جداً، وتقدمتها جزء من المقابل، إن لم تكن المقابل كله. يرغب الزبون عادة بتقديم هدية لها بمناسبة تعارفهما، أو باعتبارها تذكاراً، أو تقديراً مسبقاً لجهودها، وربما عربوناً أو مقدم أتعاب أو تسديد ما تبقى، أو ما يدعونه بحبة مسك فوق البيعة. عيبها، حين تحوَّل إلى سيولة نقدية، يخيس ثمنها، الهدية التي تساوي ثمانين ألفاً، لا يعيدها البائع بالقيمة نفسها، وإنما يشتريها بأقل من ثمنها بكثير. بحسبة بسيطة كان دخلها من الهدايا المعتبرة تحت بند النقديات المباشرة تسجل أربعين إلى خمسين بالمائة خسائر، لتباين الفروقات بين سعر الشراء والمبيع!!

هنا أيضاً، تتدخل غريزة المرأة التي لا تهمل الصغائر، ولا ترضى بالخسائر تحت أي زعم، فلم تدعْ جزءاً من دخلها عرضة لتقديرات البائعين وأهوائهم، ولا لكرم الزبائن وأمزجتهم. فاعتمدت ثلاثة باعة، الأول للمجوهرات، والثاني للتحف، والثالث للساعات الثمينة، واتفقت معهم على شروط الشراء والترجيع. من طرف، سهلت على الزبون قضاء حاجته، لن يحتار الزبون، سيتبرع الوسيط أو مدير مكتبها بنصحه، ويختار له أحد البائعين الثلاثة:

«هناك ستجد شيئاً يُرضي أم راما».

يذهب الزبون إلى البائع، ويسأله عن هدية راقية.

البائع: لمن؟

وهو سؤال وارد، ليختار ما يناسب المهدى إليه، من حيث السن والجنس والمكانة الاجتماعية.

الزبون: لسيدة محترمة وعزيزة.

البائع: ما المناسبة؟

الزبون: لا مناسبة.

البائع: هدية بلا مناسبة؟!

الزبون: إنها لأم راما.

عادة ما يُشير عليه الوسيط بذكر اسمها، ليتولى البائع اختيار الهدية اللائقة.

البائع: أم راما!! على عيني.

الزبون: توصَّ، أرسلوني إليك.

البائع: اطمئن، سأنتقي ما يرضيك ويرضيها، لكن..

فيتساءل الزبون: ماذا؟!

البائع: ما المبلغ المرصود للهدية؟

الزبون: خمسون ألفاً.

يريه البائع ما لديه من هدايا، الواحدة منها تعادل هذا المبلغ. ينتقي الزبون هدية.

يحذره البائع: لن تعجبها.

الزبون: لماذا؟!

البائع: ستردها إليك.

الزبون: هل أنت متأكد؟

البائع: أعرف ذوق أم راما.

الزبون: انتق لي واحدة على ذوقها.

عندئذ ينبري البائع ويختار لها هدية، فإذا كان:

بائع مجوهرات: طقم ألماس، أو خاتم سوليتير.

بائع تحف: طقم سفرة صيني، أو ثريا ماري تيريز.

بائع ساعات: ساعة بياجيه، أو رولكس، أو دنهيل.

والثمن وسطياً لا ينقص عن مائة ألف ليرة.

يشتريها الزبون ويقدمها إلى أم راما، فتشكره بابتسامة صغيرة لا أكثر، وترن الجرس لمدير المكتب ليأخذها قائلة، أرسلها إلى البيت. يأخذها مدير المكتب ويرسلها إلى البائع، ليعيد إليها ثمنها محسوماً

منه خمسة بالمائة فقط. وهكذا، لا يلطشها الزبون ويدعي أن ثمنها كذا وكذا، ولا يخدعها البائع ويقول أنها لا تساوي كذا وكذا.

****

ترى ما الذي ينقص أم راما؟ لا شيء، السعادة لا تنقصها، كما أن حياتها الزوجية، بعد نجاحها في العمل، باتت تسير على ما يرام، بل وحليت بعين أبو راما، وحاول تقريب ذات البين بينهما، بيد أنها لم تسمح له بتجاوز الشروط المرعية، وكانت قد أبدت مزيداً من الاستقلالية والأنفة في شروطها بعد ظهور أعراض التفكير العملي في حياتها؛ اجتماعاتهما لم تتأثر، لكن الجماع بينهما بات نادراً، بالمخاجلة، وبالتعبير الشعبي: كل حين ومين وعشر سنين. حتى أنها فكرت بالاستغناء عنه، لكن حفاظاً على وحدة الأسرة، أبقته، وحفاظاً على سمعتها، طلبت منه ضبط تصرفاته النسائية، فغطست علاقاته في غياهب السرية الشديدة.

ما طرأ على أم راما من تطورات كان هائلاً، حتى أنها أنكرت أم راما القديمة، كان إحساسها بالحياة مفعماً بالحيوية، وبذلك الشعور الذي لم تجربه من قبل: الحرية المطلقة، ما الذي ترغب في الحصول عليه بعد؟! كان كل شيء بمتناول يديها. شكراً للمال، المال منحها الحرية.

لكنها لم تتوقع أن تذهب بها الحرية إلى الحب.

الحب يطرق الباب

صَادَفَتْه في زيارة لإحدى صديقاتها. استرعى هندامه الأنيق نظرها. شاب وسيم، فارع الطول، شعره أسود لامع، وجهه متورد، زر قميصه الأعلى مفتوح. تمنت لو أن لديها ولداً مثله. لم تفلته عيناها، كان بائع الأقمشة الشاب يعرض على صديقتها وإلى جوارها ابنتها العروس الصغيرة نماذج لأقمشة نسائية. لاحظ أنها تراقبه، التفت نحوها بحركة رشيقة وحياها بانحناءة لطيفة، الابتسامة لم تفارقه، ورد على أسئلتها بلباقة. كان متحدثاً ماهراً، شاطر وابن سوق. عندما صافحها، احتفظ بيدها فترة طالت أكثر من مجرد مصافحة، عيناه العسليتان اخترقتا عينيها، وضغط على كفها، أو هذا ما تخيلته. لكن ملمس أصابعه الناعم لم يكن متخيلاً، فيما لفحتها رائحة عطره مثل نسيم حار.

بعد أيام اتصل بها، وقال لها بأن تشكيلة الأقمشة وصلته اليوم،

كانت قد سألته عن لون الشال الذي يلبق على فستان السهرة الأسود. اقترح اللون الأسود المطرزة أطرافه باللولو والسيلان، أو الأسود جاكار مع الذهبي؛ قريباً ستصله تشكيلة كاملة من المطرز والبروكار. ولم يخلف وعده: تفضلي، المحل بخدمتك.

وكان المحل كله بخدمتها مع صاحبه. بعدها، لم تفتقر إلى افتعال المبررات لرؤيته، تأتي وتنتقي قطعة قماش لمعطف أو فستان، بلوزة أو تنورة، وأحياناً يأتي إلى مكتبها يستعرض معها كاتالوكات الموضة لتنتقي موديلاً، ويساعدها على اختيار الأزرار المناسبة والبطانة الملائمة. عاملها معاملة خاصة، وفضلها على بقية زبائنه، وحلف ألا يأخذ منها سوى التكلفة فقط بلا أرباح. بعد زمن لم يطل، رفض تقاضي ثمن ما تأخذه، وعندما أصرت وضعهم على الحساب، وسيبقى هذا الحساب معلقاً ولن يُدفع أبداً. لم يعد القماش والموديلات والأزرار والبطانة سوى مقدمة لتبادل أحاديث عن كل شيء ولا شيء. في البداية أقنعت نفسها بأنها تروي فضولها من مجتمع دمشق وتتعرف على الشوام عن قرب. شد ما أعجبها هذا الشاب، لو كانت ابنتها راما أكبر بأربع أو خمس سنوات، لكان زوجاً لائقاً بها. عندما تكون معه تحرص على عدم إظهار لهجتها الريفية. اللهجة الدمشقية جميلة. سيطرت على نزقها القروي، ولهجت مثل الشوام، ترخي حنكها، وتمط الكلمات، أعجبتها الميوعة الشامية، دلالها مستحب، تحرك القلب، وتثير الغواية. أحست مع لهجتها الشامية المستجدة، بأنها صارت أحلى، وقدرتها على الإغراء أكبر.

الدلال جلاب العشاق. حام حولها الكثيرون من قبل، حتى من غير دلال، ورأت نظرات الإعجاب في عيونهم، لكن من يتجرأ، أو

يتكهن بعواقب التحرش بزوجة مسؤول؟ خاصة بعد أن فرزوا لزوجها عناصر مرافقة مسلحة، فصارت تتنقل بسيارتين واحدة مع سائق، والثانية لعناصر المرافقة، لو أسرَّ لها أحد بكلمة إعجاب، لبات ليلته في المستشفى أو السجن، إن لم يهدر دمه بلحظتها. ولم تستغن عن عناصر المرافقة، حتى بعد صدور أمر بإلغاء المظاهر المسلحة، أخذت تستأجرهم وتدفع لهم رواتبهم.

****

لم يعدم الوسائل ليظهر شوقه لرؤيتها، يبتكر كل يوم سبباً ليتكلم معها، صوته الناعم يثيرها. لم تتحمل أن يخاطبها بمدام صطوف، قالت له: اسمي رباب. فخاطبها: ست رباب. فقالت: رباب بس. في البيت تحوم حول الهاتف وتترصد رنينه بلهفة. ومثل أغاني الغرام، عندما يرن كانت دقات قلبها تعلو عليه. أهو الحب؟! إن لم يكن، فماذا يكون؟! لا، ليس الحب، كانت أكبر منه، هو في الثانية والثلاثين من عمره، وهي في التاسعة والثلاثين!! هل يعوقها فارق بضع سنوات عن ثرثرات خفيفة ومستحبة عن الشوام وقصصهم؟ على أنها ستتناسى فارق العمر بينهما، وتختلق أشياء تافهة ومسلية لسماع صوته. إذا كانت قد جهلت الحب، فهل تحرم منه؟ قد يكون الحب جميلاً!! حتى الآن لم تعرف سوى الخوف من الرجال وكراهيتهم. ربما كانت الكراهية ما يضطرم في داخلها!! لا، للحب إشارات لا تخطئ، للوجنات احمرار، وللصوت رعشات، وللقلب خفقات. لم تكذب على نفسها، كانت تحبه، وكان الزمن يدهمها.

تلك هي المقاومة الأخيرة التي أبدتها، وحتى عندما ألقت نظرة على

عالمها، عالم الأعمال، رأته لأول مرة سقيماً، مأفوناً بالمال، ومتخماً بالمساومات، وبارداً رغم تأججه بالمكاسب. وتركت نفسها تلج عالم العشق الجميل، المتخفف من الحسابات، الملتهب رغم شروده الساهم، والمتكاسل إلّا عن الحبيب.

قبل أن تصرخ مفتونة: ما أروع الحب!! تساءلت، ما الحياة التي عاشتها؟! مضى عمرها جزافاً وعاشته بغباء. وفي غفلة عنها، كانا القلب والحب، يتربصان بها، وانتصرا عليها بعدما أهملتهما عمراً. الدنيا من حولها، قصص غرام تترامى، وهي بطلة مغفلة في فيلم سينمائي يحفل بالنجاح والسلطة والمال والأعمال، عدا الحب. هل الأفلام السينمائية صادقة؟ الحياة أصدق، كانت حياتها، هنا، في داخلها، خواء مطبقاً.

على الطاولة انفرد حرير الساتان الأسود، كانت قد اختارته قماشاً لفستان سهرة، وكانا واقفين إلى جوار المرآة يتحدثان عما يلائم الأكمام. نصحها بالدانتيل المُفرَّغ أو الموسلين الشفاف، اقترحت الفرو حول الأكمام. قال لها: الفرو كان موضة السنة الفائتة. أردفت: إذاً الجالون بريم. فابتسم: لا يصلح إلّا للمعاطف والتايورات. فارتبكت خجلاً من جهلها. تابع: حتى الجالون دانتيل لا يمشي إلّا لداير الفستان. قبلت بنصيحته. بالنسبة للقبة، تساءلت، ما رأيك بتنزيل الساتان دوشيز؟ هتف: لا، يستحسن الدانتيل المفرغ الشفاف للأكمام والصدر بالكامل.

انسدل الحرير الساتان على كتفيها، قرَّبها نحو المرآة، تناول الدانتيل الشفاف ولبَّقه على الصدر. برز من خلفها، وهي بين ذراعيه، يد على صدرها، والأخرى حول رقبتها. السواد والبياض ملتحمان على

جسدها، أصابعه تلامس نقرتها وتحتك بعنقها، صدره ملتصق بظهرها. تنهدت، تمنت ألا يبتعد عنها. انسلت يدها، دون أن تشعر، ووضعتها فوق كفه. علا وجيب قلبها، تماسكت أصابعهما، وفي المرآة تلاقت عيونهما. لم ينبسا بحرف، أنفاسهما تلاشت، التفتت إليه، واحتضنته، مجرد أنها أرادت أن تضمه إليها وتحتفظ به. لم تنظر إليه، أخفت وجهها في عنقه، واستكانت مرتجفة بين ذراعيه. رفع رأسها إليه وألصق شفتيه على شفتيها. وأحست لأول مرة في حياتها بطعم القبلة؛ من قبل كان للشفاه طعم الطين ولزوجته. أما الآن فكان كطعم غزل البنات، حلو على الشفاه ويذوب على اللسان، ومن فرط حلاوته، كاد أن يغمى عليها. أغمضت عينيها، أهي متعة الغرام؟! ربما، إنه الحب، وإلّا ماذا يكون؟! وما الذي تحس به؟! لن تدري سوى أن للحب ملمس الحرير الأسود.

اندلع عشقها بجنون، لم تعد تحس بكيانها إلّا معه، تريده في كل لحظة إلى جوارها، لا يفارقها. ساعات يقضيانها على الهاتف ليلاً، وصباحاً تأتي إلى محله تشرب القهوة معه، وربما اختلسا عناقاً قد يدوم إلى ما لانهاية لولا قدوم الزبائن ورنين الهاتف. بعدها تغافل الموجودين، يحمر وجهها وترشقه بنظرات حارقة. أخيراً، في مكتبها، لم تدعه يمتلكها إلّا لأنها أرادت امتلاكه بالكامل ومعه الهواء الذي يتنفسه. أحاطته بذراعيها ضمته إليها وأطبقت عليه، وأبحرت معه في عماء لذيذ خارق، لم تتميز فيه روحها من جسدها، ترى أين تنتهي الروح ويبدأ الجسد؟! قبل أن يغادرها، أطلعته على سرها، منحتك روحي في اللحظة التي رأيتك فيها، الجسد لا يقاس بالروح.

اخترق حياتها وسرح بها إلى عالم من الخفة والروعة واللامبالاة، لم

تعد تمشي على الأرض، باتت تطير بين السحاب، أخذتها خفة الشباب وروعة الغرام ولامبالاة العشاق. الحب فرح وبكاء، نشوة طائشة وجنون لذيذ. أصبحت تعيش شخصيتين، واحدة خفية تسري معها في الخيال، تغلبت على الأخرى، القوية الحازمة والمهمومة بالعمل واحتقار الرجال. تأخذ عهود الغرام من الخيال، وتعيد تركيبها إلى حقيقة، الله أبدع الشباب والحب والإخلاص. عاشت لحظات الغرام مع الحبيب كما لم تخطر لها في أروع خيالاتها انطلاقاً وسحراً. مذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، لم تبارحها صورة الشاب طويل القامة، مرفوع الرأس، ومصعر خده للشمس، يمد إليها كلتا يديه، يُنهضها إلى عناق، على تخوم جبال شاهقة ورمال كالماء وغيوم بلون الشفق. ظهر فيما بعد على صقال المرآة واحتضنها، ألصق شفتيه بشفتيها، وغابت عن وعيها، سكرانة من غزل البنات.

استعادت فارسها الذي نقمت عليه لتخلفه عن القدوم خمسة وعشرين عاماً، وكان مجهول الملامح. استعادته مع ملامحه الجديرة به، جميلة فتية ونقية. قالت له، عندما أحببتك كنتَ ولداً في الثامنة من عمرك. ومنحته حناناً ضنت به حتى على ابنتيها. وأغدقت عليه أحلاماً فاتتها وتحققت، لا تني تهيلها عليه. يا إلهي، لا تجعلني أصحو.

صحت أكثر من مرة، على إحساس راودها: الحبيب لا يشتاق إليها مثلما هي تشتاق إليه. لكنها غالبت الصحو. ما الذي تبذله له أكثر من الجسد والروح؟! المال. رغبت في أن يحتاج لها، وأن يصير بأمس الحاجة إليها، ويطلب منها ما يريد لتمنحه أكثر مما يشاء. تمنت أن يفقد تجارته، لتعوضه عنها، لن تمنع عنه شيئاً، ستغرقه بما

ينقصه وتقيده بكل ما يرغب فيه. لكن المال لم ينقصه. فخشيت أن يتركها.

غمرته بحنانها، وصارت تتدخل في حياته، تريد أن تعرف عنه كل شيء، أين يذهب؟ متى يستيقظ؟ أين يسهر؟ وكل يوم تعيد أسئلتها ذاتها، مأكولاته المفضلة، المسلسلات التلفزيونية التي يتابعها، أهله أقرباؤه أصدقاؤه، أي شخص على صلة به، هل أحب امرأة قبلها؟ وسيقول لها بأنها المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته. لم يقلها إلّا بعدما أدرك ما يعنيه بالنسبة إليها، عرف بأنها لن تقبل بأقل من الوحيدة والأولى والأخيرة.

****

فاجأته العلاقة معها، لم يتصور أنها ستتطور وتحتدم خلال أيام، وتستمر شهراً، شهرين، ثلاثة... إلى ما لانهاية! لم تكن تعتقد بمدة أقل من اللانهاية. أذهلته تعبيراتها، قالت له بأنها تحبه أكثر من ابنتيها. لم يجرب من قبل مثل هذا الحب، اعتاد العلاقات التي تأخذ وقتاً طويلاً لتبدأ، وتنتهي في وقت قصير. كانت المشاعر الجياشة والعواطف المتلاطمة تبرد بعد عشرات المكالمات المسترقة على الهاتف، ومضاجعات تتم على وجه السرعة، يليها الإحساس بالذنب، ثم وعود لا تنفذ، ومواعيد يتخلف أحدهما عنها، ثم كلاهما. علاقات لا تدوم، تنتهي بلا خصام. يعبرن حياته بلا ألم، مثلما يعبر حياتهن بلا مآس، مجرد خطايا طريفة وتسال جميلة، سرعان ما تصبح مجرد ذكريات.

يختارهن من الزبائن المترددات على محله، ينجذبن إليه، ولا يثقن به، إلّا بعد زمن من البيع والشراء والأسعار المتهاودة والدفع على

الحساب؛ يسلمنه أسرارهن، ويشكين له همومهن من نكد الحموات والسلايف إلى تقصير الزوج أو إفراطه ليلاً. لا يحيد عن تعامله المهذب، سواء بالترحيب والمديح، أو بالتودد والغزل. ويواظب على افتعال ثرثرات لا تخلو من تلميحات تحتمل أكثر من معنى، تنتقي الزبونة المعنى الذي يروق لها. بعد رفع الكلفة، تدور أحاديثه عن جمالهن ورشاقتهن ونحولهن، أو امتلاء أجسادهن وخفة دمهن؛ يتخللها تبادل النكات البذيئة والتلميح إلى نعيم الفراش وأطايبه.

تلك مظاهر حياتهن السعيدة؛ خلفها، تكمن تعاستهن، مصائب وأتراح ودموع، الزوج مصدرها، إن لم يكن مزواجاً، فخائناً، إن لم يكن هاجراً، فبخيلاً، إن لم يكن سافلاً، فعديم الشخصية؛ وغالباً، ما تكون المرأة قد قطعت شوطاً في أربعينياتها، فتبدو الخيانة حلاً مثالياً يجمع شمل العائلة ولا يشرد الأولاد، وقد تكون الرغبة في العبث والترويح عن النفس، والتنزه بعيداً إلى الخلف، في ماضي الجسد، استيقافاً لعمر يمضي حثيثاً نحو الشيخوخة، ساعات تعيد الشباب، على أنها مهما طالت، لن تتعدى لحظات.

عندما انجذب إليها، تصور علاقتهما على هذا النحو، مغامرة ما، ومع أن مقدماتها لم تأخذ وقتها بالكامل، اقتحمته في الصميم بعواطفها الملتهبة والعاصفة. فاجأته، لم تصادفه امرأة لديها القدرة على إبداء هذا القدر الوفير من الغرام الخالص!! لم يعتد هذا النوع من الهيام الجامح، حاول أن يهدئ من تدفق مشاعرها الرومانتيكية، لكن فات الأوان، كانت قد استأثرت به. لم تكن مغامرة عابرة، وإنما مغامرة سينذر لها وقته وأعصابه وعواطفه كلها. لم يفته أنها كانت تغامر بحياتها وسمعتها وزواجها وأمومتها. ولم يفته أنه يخاطر بمستقبله، إن لم يكن بحياته. لم يرغب في أن يكون أقل

منها جسارة، كان العشق، أو عدواه قد أخذه.

لن يأخذه طويلاً، رغم أن حبها كان في ازدياد، كل يوم أكثر من اليوم الذي قبله، تهاتفه عدة مرات في النهار، لتتأكد من أنه لم يغادر المحل، تباغته بمجيئها، تنبش بعينيها أرجاء المحل ودخاليجه، كأنها ستضبط إحداهن مختبئة بين الأقمشة، وتضطرب لو وجدته يتبسط في الحديث مع النسوة، تصيبها نوبة بكاء، وتهاجمه بأسئلتها، عن هذه وهذه، ثم من كان عندك؟ مع من كنت تتكلم؟ لماذا تأخرت؟ أين كنت؟

في البداية، راقت له غيرتها، الغيرة دليل محبة. لكنها ستخنقه بمحبتها، ويضيق بهذا الحب الغامر الكبير العظيم الهائل. لم تعد عواطفها المتأججة تسعده بل تحرقه. كانت على استعداد لارتكاب أية حماقة بدعوى أنها تحبه، حبها يأكل أعصابها ويعمي عينيها. كل يوم تبوح له بمشاعرها، وتعترف بعشقها وكأنه لأول مرة. وأحياناً، عندما تظن بأنه على علاقة مع إحداهن، تقيم الدنيا وتقعدها، تنسى نفسها وتهدده بأنها ستقتله لو خانها. بعد انتهاء حفلة البكاء والعتاب، تعتذر. فيما بعد، لم تعد تعتذر.

أخذت تتدخل في أعماله، تسهل أموره مع الجمارك ومديرية التموين، من دون طلب منه. وتلح عليه، اسألني أي شيء من أية وزارة في الدولة. لم يسألها. كان يحل أموره بنفسه. لا تكف عن تحذيره من الغرامات الضخمة التي تفرض على المخالفين، أو ما قد يتعرض إليه من مساءلات وأهوال في فروع الأمن لمجرد أن شخصاً حقوداً رماه بتهمة ما...حتى لو كانت كاذبة وأنت بريء، لن تخرج من السجن إلّا بعد قضاء أشهر وربما سنوات. وتطمئنه: ما دمت

على قيد الحياة لا يمكن لمخلوق أن يمسّك بأذى. تكرر قولها وتؤكده، فيفهم قصدها، مثلما بمقدورها إنقاذه من السجن، بإمكانها أن ترميه فيه، وتجعله لا يرى النور أبداً. وحينما تعاودها خيالاتها السوداء المعتادة، وتتصوره في الفراش عارياً مع امرأة عارية، تقول مهمومة: ليتك تموت ولا أسمع أنك خنتني. فيقول لها مازحاً: أرسليني إلى السجن أفضل. فتقول جادة: لا أقل من الموت، ثم تعابثه: لا تخف، سأحميك بروحي. أي غزل، وأي حب؟!

عدا الهدايا الثمينة، تولت شراء قمصانه الداخلية التي ستلامس جسده، وانتقاء ربطة العنق التي سيضعها حول رقبته، والساعة التي ستحيط بمعصمه، والخاتم الذي سيطبق على إصبعه، والرائحة التي ستفوح منه. تغرقه بأغراض صغيرة، تشتريها وتبعثرها في محله وسيارته وبيته؛ نظارات شمسية، منديل، منظر شتائي، قداحة، ساعة حائط، ديودوران، مبسم سيجارة، مسبحة، حمالة مفاتيح، معطر جو... ليتذكرها كيفما أدار وجهه.

توقع أن هوسها به لن يطول أكثر من شهر آخر، ويفرغ مخزونها العاطفي، لكن بعد ستة أشهر، كان حبها العتيد محافظاً على زهوته الأولى، بل وعرضت عليه فكرة الزواج، ستطلب الطلاق، وتعطي زوجها البنتين، تصفي أعمالها في دمشق، ويسافران إلى أميركا، يتزوجان هناك، ويبدآن حياة جديدة من الحب والعمل. لا شيء سيحول بينهما، حب لا يرضى بأقل من الأبد. وكانت جادة في الزواج والسفر والأبد.

اختلق المعاذير، بيع المحل سيأخذ وقتاً طويلاً ليظفر بمشتر معقول، وأمه مريضة لا يستطيع أن يتركها وحدها، وسألها تأجيل الفكرة

عدة أشهر، وكانا في أول الخريف، ووعدها بتسفير أمه لعند أخيه في باريس في الأسبوع الأول من الصيف. وكان مطمئناً إلى أنه خلال الشتاء، لا بد أن يحصل أمر ما ينهي قصتهما، عندئذ يتحرر، ويذهب كل منهما في سبيله.

حصلت أشياء كثيرة، غيرتها تفاقمت، وشكوكها تكاثرت، وطلبت منه أن يغير مهنته إلى أخرى لا يتعامل فيها مع النساء. قال لها بأنه لا يتقن غيرها، ولا يرغب في تغييرها. سكتت على مضض، وتشددت في مراقبته، كان مرافقاها الاثنان يرصدانه بالتناوب. اشتكى غاضباً: هل يعقل أنك لا تثقين بي؟! فاستأجرت غيرهما. كانت تعد عليه أنفاسه، وتلاحقه على الدعسة، تهاتفه أحياناً كل نصف ساعة، ترسل سائقها ليأتي به في أوقات استراحته، ظهراً أو بعد منتصف الليل. أصبح للغرام مذاق العلقم في حياة أخذت شكل الجحيم. بدأ يفقد زبائنه، يفقد حريته، يفقد ابتسامته، يفقد روحه. تريده لها وحدها، تريده تعيساً، كان أجمل عندما يكون بائساً، ولا نظير لجماله عندما يكون في أقصى حالات اليأس؛ أمنيتها ألّا يستطيع العيش من دونها. فأصبح يكرهها، يكرهها إلى حد أنه تمنى لو يموت، ليؤلمها. وموعد السفر يقترب، لا مفر، كان عليه أن يتخذ قراراً.

في الأسبوع الأول من الصيف، اتصل بها مساء، قال بأنه سيضطر إلى تأخير سفر أمه عدة أيام، أسبوع على الأكثر، لأنه مريض بالتهاب القصبات، وأخذ يسعل. في الصباح، اتصلت لتطمئن عليه، لم يرد عليها. اعتقدت أنه ما زال نائماً بتأثير الأدوية المهدئة للسعال. اتصلت ظهراً، لم يرد. بعد الظهر عاودت الاتصال دون مجيب. ذهب رجال المرافقة إلى بيته، لم يفتح لهم الباب. راودتها

الظنون، ذهبوا إلى المحل، وجدوه مغلقاً. سألوا الجيران. قالوا لهم باع المحل.

للوهلة الأولى، لم تدرك ما حدث، ماذا عن مرضه؟! هل مازال يسعل؟ لماذا لم يُعلمها ببيع محله؟! ماذا عن أمه؟! لكنها سرعان مارمت بالماذات واللماذات البلهاء، واتصلت مع المطار وشركات الطيران. وعرفت بأنه سافر مع أمه على طائرة الخطوط الهولندية الـ«ك.إل.إم» المغادرة مطار دمشق الدولي في الساعة ٢,٤٥ ليلاً، ووصلا إلى أمستردام الساعة السادسة صباحاً، وهناك توقفا حوالي ساعة من الزمن، أخذا طائرة أخرى، حطت بعد حوالي الساعتين في لندن. أي عندما نامت بعد منتصف الليل قلقة عليه، كان قد حمل حقائبه واتجه صوب المطار. في ذلك الوقت، كانت مستغرقة في النوم، وصحت بغتة على حلم مفزع، كانت تهوي من حالق، فيما الطائرة تصعد به إلى حالق. أما حين استيقظت صباحاً، وكان الجو صحواً تماماً، ورفعت السماعة لتطمئن عليه، كان يحمل حقائبه خارجاً من مطار هيثرو، ليختفي مع أمه في مدينة الضباب. ما آلمها أنه لم يأخذ الرحلة الأسرع والأقصر، طائرة الخطوط البريطانية، التي ستنطلق صباحاً في الساعة ٧,٤٠. بل غادر ليلاً ليضمن رحيله وهي نائمة، وعندما فتحت عينيها، كان كل شيء قد انتهى.

أطفأت الأضواء كلها، وتلمست طريقها إلى غرفة النوم، تمددت على الفراش، وغرقت في العتمة، لم تفكر في شيء، سوى بالموت، ناشدته المجيء لينقذها من العذاب. الموت لم يأت، جاء ما هو أقسى منه، لوعة الفقدان، وهوان الغرام، وقهر الزمان. لم تقاوم، استسلمت لهستيريا الدموع والصراخ وشد الشعر.

زوجها صطوف يأتي لها بصينية الطعام، يجالسها في العتمة، ثم يعود بالطعام، كما هو لم يمس. بعد أيام بدأت تتغلب على مصيبتها، بللت شفتيها بالماء وازدردت كسرة خبز، فقال لها وهو يكظم غيظه:

«يا مجنونة».

على درب الشفاء، أخذت بتناول حساء مع بضع لقيمات من الطعام. عندما ستتناول وجبتها العادية، وتستقبل زوجها في وضح النهار، بخدين مصفرّين وعينين غائرتين وجبين متورم، سيصارحها بأن الذي أحبته وكادت أن تخرب بيتها من أجله، قد خدعها.

«لا تزعلي، ستعوضين الأموال التي سرقها منك».

كان قد نكأ جراحها، استعادت ذل الهجران، فانفجرت بالبكاء، لطمت وجهها وصرخت من صميم عقلها:

«ليته سرقني، لقد هرب مني».

ذكرها بمأساتها، دون أن يستوعب عظم مصيبتها، لكنها وهي تعيد الكرّة، تطفئ الأضواء، وتغيب في العتمة، وتعاف نفسها الطعام والشراب، كانت قد ابتدعت نوبات دورية لكآبة مضنية، لن تفلتها. بعد النوبة، تخرج إلى عملها ومراجعيها وزوارها. على أنها ستلازمها في الخفاء، وتعاودها كل فترة من الزمن، تعتزل البشر، تفرغ أحزانها، وتخرج أكثر نقمة على الرجال دون استثناء.

توعدت أم راما حبيبها الغادر بأنها ستمسحه من على وجه الأرض،

لكنها لن تمسحه، ربما لأن الوصول إليه صعب؛ ولن تنساه، كان قد ترك لها ما يجعلها تتذكره وتحن إليه، لم تعد تحس بلذة تدفق المال، تواظب على العمل لتسري عن نفسها، أكثر مما تستمتع به. ودائماً ما تواجهها الحقيقة، حقيقة يعرفها العشاق جيداً، وإن كانوا ينكرونها، وهي أن الذي يحب لا يكره. كانت في سرها تدعو الله أن يعيده إليها. وربما لهذا يقول المقربون منها، بأن أم راما لا تفعل الخير لوجه الله، وإنما ليجيب دعواتها بعودة الحبيب الغائب.

****

فلا تزعل يا صديقي أحمد، تصرفها نحوك لا غبار عليه. أم راما عاشت قصة حب حزينة، ذاقت منها الويل، لم تقصد إهانتك بالذات، بل تقصدنا جميعنا، الشبان الشوام، دون تمييز، وربما جنس الرجال قاطبة. أنا احتياطاً أزعم بأنني غير شامي، إن أقل ما تقوله عنا، بأننا أولاد حرام، وبناديق تيمورلنك.

وهكذا انتهت قصة أحمد مع أم راما في اللحظة التي كادت أن تبدأ فيها.

عالَم صغير

ارتد أحمد إلى قصته مع أولاد جادور، فوجدها ما زالت على حالها، وهو ما زال على حاله، دونما تقدم خطوة واحدة فاستعاد تحذيرات جميل عجنوني، وقال لنفسه: من أنا؟! أي: من أنا بالمقارنة بهم؟ إذا كان نصف مسؤولي البلد معهم، والنصف الثاني مع نظرائهم، يديرون معاً الدولة في السر، ونالوا رضا الدول الأجنبية في العلن. وبمعنى أضيق: من أنا حتى أضع رأسي في رأسهم وأكاسرهم؟! إذا كان المحقق، رجل القضاء الرقيب على المجتمع والدولة، بما لديه من سلطة، وما تحت يده من شرطة، لا يستطيع أن يطالهم بجرم صغير أو كبير. الأحرى ألاً يستطيع فرد مثلي وحيد وأعزل، محاسبة بناة المستقبل، الجبابرة أولاد جادور.

وإذا كان قد تراجع عن عزمه على التصدي لهم، فلأن الدول الأجنبية أيضاً كانت له بالمرصاد!! ما الذي بوسعه فعله إزاء دول

كبرى متقدمة في كل شيء، حتى في حبك المؤامرات واسعة النطاق؟! لم يطرح هذا السؤال إلّا بفعل حصر نفسي أسبابه ذاتية، فراوده الشك، واعترف لنفسه: ربما عزوت جبني إلى أطراف خارجية لأهرب من الأطراف الداخلية؛ ومع هذا لن أنجو منهم، ولن أهنأ بحياتي.

لم يستغرب المنحى الذي اتخذته أفكاره، ولا الأسلوب غير الاستنتاجي واللاعقلاني الذي انتهجه، أسلوب يلجأ إليه العوام ولا يُستثنى منه المثقفون، رغم أنهم أول من ينكرون المؤامرة ويسخرون منها، لكنهم يؤمنون بها، وعندما يضيق بهم الحال، يزعمون بأن هناك من يعمل على تسريحهم من وظائفهم، ويكتب عنهم التقارير المسيئة، ويحشرهم مع الخونة. ولقد تخيل أحمد في لحظة إحباط قاتمة تزايدت فيها شكوكه، أن دولة عظمى وضعته على قائمة أهدافها في الشرق الأوسط، وأرسلت عملاءها للقضاء عليه، ولم يستبعد أن يدسوا له النساء للإيقاع به، أو السم الزؤام لقتله. ما الذي جعله يفكر بهذه الترهات المؤامراتية، ربما لأن بعضاً ممن أصيبوا بمثل هذا الإحباط تحققت أغلب وساوسهم من التسريح إلى التخوين، وأحياناً السم الزؤام، أو ما يشابهه، سواء بمؤامرة أو دون مؤامرة؟!

عطّلت حالته المقبضة آلية محاكماته البسيطة، والتجأ إلى الغيبيات الدولية، رغم أن رصانته العقلانية لا تستسهل التعميمات المثيرة الدارجة كاعتماد الدسائس مادة طيعة لتفسير ضربات القدر وانهيار الدول وانحطاط الحضارات؛ هذه المرة خذلته، لم يسخر من المؤامرة، وإنما تبناها. وجد في الفكرة التي طالما استهجنها، عذراً قوياً يُنزل عن ظهره أعباء معركة ضروس غير أهل لها، فطاب له أن

يتصور العالم يقف ضده سداً منيعاً. فقال: أنا في حِلٍّ من المقاومة؛ الأسلم، الاستسلام حتى لو انطبقت الدنيا فوق بعضها بعضاً، لماذا أتحرش بعالم يترصدني ويسعى إلى إيذائي، بل وقتلي شر قتلة؟! المستغرب في انهزاميته هذه، تشبيهه أولاد جادور بالعالم!! فعلاً ما أصغر عالمه إذا كان أولاد جادور يحتلون مساحته كلها!!

لا شك في أن التواضع هو الخصلة الحسنة في طبائع بعض الشخصيات، ومن ميزاتها أنها تجنبهم إسباغ أهمية على أنفسهم لا يستحقونها. أحمد من هذا النوع، لا يعطي شخصه أهمية زائدة، هذا الجانب من شخصيته انتفض وتحرك للعمل فاستعاد نظرته الواقعية والصارمة إلى الحياة، وأبطل تصاعد قصة تافهة قد تمتلئ سريعاً بالمراقبين والمتنصتين والمطاردين إن لم توقف قبل أن تبدأ. وبادر من فوره إلى نبذ فكرة سعي أحد إلى إيذائه وقتله شر قتلة. كانت مخاوفه الكبيرة مترهلة على شخصه الضئيل، من هو حتى تفكر القوة الأعظم بالقضاء عليه؟! فاسترد جأشه، واستعاد روح المنافحة عن الصواب. وليس ثمة من ابتعاد عن الحقيقة، إن بدا عليه وكأنه تقمص شخصية أحد المحرضين الراديكاليين، فوقف وكان في وقفته الدراماتيكية معبراً أصدق تعبير عن المواطنين المغلوبين على أمرهم الذين يهبون بشجاعة، وهم لا يملكون من أمرهم شيئاً، فلا يتورعون عن توجيه إصبع الاتهام نحو المسؤولين الحقيقيين عن الخراب القديم والقادم. وصدح صوته الجهوري بخطبة ملتهبة وجسور. بالطبع لم يسمعه أحد، تابع صراخه، وعندما وصل إلى أزمته الشخصية، تهتك دفاعه، وبات دفاعاً عن النفس، أو تنصلاً مما اعتزم عليه. وأخذ يتساءل، وليس من باب المصادفة أن يسمع من يرد عليه:

لماذا أنا بالذات، محشور في أوضاع ومواقف غير سليمة؟ كأنني أنا

وحدي المعني بهذا الفساد، ما علاقتي، لم أشارك به ولم أكن سبباً في حصوله؟!

القدرة الإلهية اختارتك.

للوهلة الأولى، لم يدر صوت من أجابه، وبما أنه كان وحده، فقد أدرك بأنه يتكلم مع نفسه، فأعطى نفسه أذناً صاغية، فأردف الصوت:

لم ينجم ما وقعت فيه من مآزق، عن خطأ منك. تذكر أنك استُدرجت إليها. فمثلاً، لم تسأل نفسك، ما وراء تسلمك دعوة بالبريد إلى المسرح؟! اعتقدت أنها دعوة اعتباطية، أوَليس تفكيرك هذا اعتباطياً؟! في المسرح تجلس إلى جوارك سيدة تَغَيَّب مرافقها، تتبادل معها الحديث، تحذرك من الماضي، لم تأخذ تحذيرها على محمل الجد، ما الذي حصل؟ الاتهام لم يتأخر!! قُبض عليك، ماذا كانت حصيلة احتجازك؟ لا تدري، ومهما يكن اطلعت على أساليب الشرطة في كشف المجرمين، وإجراءات القضاء في تحري العدالة. ثم تلتها النقلة إلى عالم المال. لماذا؟! كل هذا لم يكن عبثاً.

هل أنا مكلف بشيء؟

نعم، هناك ما هو مطلوب منك.

لم يأخذ اقتراح الصوت على محمل الجد، أولاً لأنه صوته. وثانياً، لم يكن أكثر من تجديد ضعيف على أسلوب التحاور مع النفس، توخى من خلاله تكليف نفسه بمهمات بطولية وخيالية معاً. ومع هذا قال:

بودّي أن أعتقد هذا، لأجد تبريراً مقنعاً يريحني.

هل تحسب أن التسلسل كان عشوائياً؟

أحسب أن التسلسل لم يكن متسلسلاً، ولا أدري إن كان عشوائياً.

مهما حاولت ضبط التسلسل، فلن تنجح إلّا إذا أمسكت بطرف الخيط الذي أهملته.

ما الذي تقصده بطرف الخيط؟

السيدة التي قابلتها في المسرح.

****

مضى سارحاً في الشوارع وراء مهمة قد تكون مختلقة، القدرة الإلهية لن تختاره وتغفل المؤمنين الصالحين، الفكرة برّمتها منتحلة من عالم الخيارات الربانية والنضاليات الإيمانية، وليس هذا الواقع المخاتل الضنين بالآمال والأحلام. للأسف، استمال نفسه بتهيؤات. ما يقترحه الخيال ينفيه الواقع؛ لكن على الرغم من الخيال والتخيل، ثمة ما هو مطلوب منه، وهو أمر قابل للتصديق، شرط ألا يمنح نفسه شرف اهتمام أية قدرة به، وعلى رأسها الإلهية، سيرضى بإحساس غير موثوق، ماذا لو كان التسلسل صحيحاً؟! أهو ضائع، أم أراد تضييع نفسه، أم كلاهما معاً؟ إن كان ثمة سلسلة، فهي تفتقر إلى الإحكام! ثم ما شأنه بالمستقبل، إذا كان لا يحس بالحاضر؟! وما الذي يعنيه من مستقبل يلوح مختطفاً؟!

أفكاره تتباطأ، وقدماه تتسارعان، كان يتجول في أزقة عين الكرش، على مقربة من مسرح القباني، يمشي في الدخلة المؤدية إلى فرن

الخبز وبائع الحلويات، يحاذي محل النوفوتية، فبائع القرطاسية والجرائد.

على امتداد الرصيف تتالت عربات وبسطات باعة الخضرة. انعطف في الزقاق ومشى إلى البقعة التي كانت مظلمة عندما احتوته مع السيدة التي صادفها في المسرح وحذرته مما سيحصل. فاستعاد وقفتهما المسائية الهادئة تحت جنح الظلام، والطرق الخالية من العربات، فيما كانت الدخلات بمحلاتها المغلقة، ترسل روائحها الليلية المتخمرة. وقف مقابل البناء، حيث تركها عند مدخله. لعله يراها داخلة أو خارجة؛ قد يجد لديها الخبر اليقين.

طال وقوفه، فأخذ يتمشى جيئة وذهاباً، اشترى سندويشة فلافل من المطعم القريب، وشرب زجاجة عصير أناناس ابتاعها من السوبر ماركت الصغير، مع باكيت دخان ليُقَطِّع الوقت بالتنفيخ.

توقع، سيحدث شيء ما.

بيد أن إحساساً سيتولد في داخله، إحساس لا يجهله، توجسٌ شتت له تركيزه، ثمة ما سيظهر فجأة، مع أن ما حوله يكذبه. كان خواء الشارع الصريح والهدوء المستسلم مجرد مظهر مخادع لا يؤتمن، يعكره غموض، بدا كلي الغموض. أودى به إلى شعور بالارتجاج وعدم الثبات، مع خوف هيأ له بأن مصيبة ستحل به!! علقت به كوسواس مرهق أخذ يتخثر إلى يقين. أين تكمن المصيبة، هل ستأتيه من هذا البناء، أو الناصية التي يقف عليها، أم ستدهمه عندما ينزل عن الرصيف، أو في وسط الشارع، ربما في طريق العودة! مخاوفه اشتعلت، فتخيل شخصاً يراقبه، وسوف ينقض عليه لحظة يغض

الطرف ليشعل سيجارة. الطريق أخذ يفقر من المارة والليل يرخي أستاره ظلالاً داكنة، فيما إحساسه بالخطر يكبر.

حلَّ المساء منذ أكثر من ساعة، واشتد البرد، أحس به ثقيلاً يمزق لحمه وينقر عظامه، تمنى لو يترك المكان، مرَّ أكثر من خمس ساعات على مجيئه، لم يرها تدخل أو تخرج، ولم تظهر على شرفة. لا فائدة من بقائه، أصابه الملل منذ وقت طويل، وتعب من التمشي. توقف ليريح قدميه، فتسمر في مكانه، لم يستطع الإتيان بحركة. هل يعقل أنه مصاب بالجنون. هل هذا هو الخطر الذي أُعِدَّ له؟!

انتفض مذعوراً، ومع هذا اتسع له الوقت ليفكر لو أنها جاءت، ما الذي سيسألها عنه؟! لن يتجرأ على الاستفسار منها عن حديث تبادلاه منذ عدة أشهر ونسيته. بل ما الذي تعرفه؟! ستستغرب رؤيته، هذا إذا تذكرته. وأسرع يحث خطاه نحو البيت.

عند مدخل الحارة، انفتح باب أحد المحلات، لم يخرج أحد منه، سمع صوتاً هامساً:

«اهرب، الشبيحة يسألون عنك».

الشبيحة

تلفت في الحارة باحثاً عن منفذ، وقد اختلط في ذهنه الشبيحة بالأشباح، رغم ما يعرفه من فوارق كبيرة بينهما؛ فالأشباح تظهر في الليل والشبيحة في الليل والنهار، الأشباح مشكوك في وجودهم، الشبيحة لا شك في وجودهم. الأشباح يظهرون للقلة، الشبيحة يظهرون للجميع. الأشباح تخايلات غير حقيقية، الشبيحة واقع حقيقي.

أحمد مثل غيره من الدمشقيين سمع عن الشبيحة ولم يصادفهم، أما الأشباح فسمع عنهم وخيل إليه بأنه رآهم عندما كان طفلاً. بعدما كبر أدرك أن الأشباح مجرد أقاويل. بعدما اختلط عليه، مال إلى التخمين بأن جاره حذره من الشبيحة.

على أن الخلط سيعاوده بانعكاس ظهور الشبيحة على أرض الحارة

على شاكلة الأشباح، وكان لمنظرهم الشبحي مصداقية، وهم يشقّون قلب العتمة، خارجين من تحت الأرض، وهابطين من السماء، يحيطون به ويغلقون في وجهه مداخل الحارة ومخارجها؛ فتاه عنه، هل هم أشباح أم شبيحة؟! بالنظر إلى خفتهم اعتقد أنهم أشباح، فارتجفت قدماه وتقصفت مفاصله، بتأثير الرعب الشديد. عندما اقترب أحدهم منه، وتبين أنه رغم الظلام من لحم ودم، وكانت ملامحه من الجسارة والوقاحة، بحيث لا يروق لشبح مهما كان شريراً تقمص هذه الملامح الحقيرة، لا سيما عندما فتح فمه وتكلم بالعامية، قائلاً له:

«وْلَكْ حيوان»

أيقن أحمد بأن المتكلم من بني البشر، فاطمأن، الأشباح في حال تكلمت لن تبلغ بها الصفاقة التعدي السفيه على الناس بكلمات منفرة، وإنما تستدرجه بمعسول الكلام. لم يطل ارتياحه سوى بضع ثوان: بما أنهم شبيحة، فالهول أعظم!! فتسمر في أرضه هلعاً كحيوان مذعور.

واضطر بالتالي إلى ترجمة كلماتهم ليستوعبها على طبيعتها ويفهم المقصود منها، وعلى هذا كانت «وْلَكْ» العامية تعني «أنت» بالفصحى، وتستعمل للتحقير، فتصبح «وْلَكْ» شتيمة. وبما أن مراده نقل ما دار بينهما «على حبته» كما يقول العوام، أو «على سجيته» كما يقول المتعلمون، فسوف ترد بعض الكلمات، دونما تشذيب أو تهذيب وتبقى على حالتها الوقحة حفاظاً على جلافة المعنى وخشونته، مما يساعد على تصوير الموقف على حقيقته وتقريبه إلى الأذهان بعاميته الفاحشة المتدنية التعبير، وكان في استخدامها من قبل

الشبيحة، مزية لا تنكر، تُهيئ الضحية نفسياً لعدم المقاومة واستقبال الصفعات والركلات كأمر طبيعي تحتمه الظروف القاهرة. بينما لا تحقق الفصحى المهذبة، الحيوية المطلوبة في تدفق الكلمات من الخواطر إلى الأفواه، خاصة عندما تتحلل البذاءة من الضوابط. عدا عن امتياز العامية بأنها أسلس وتجري على الألسنة بسهولة أكبر، وفي هذا الميدان أوقع أثراً وأبلغ تأثيراً.

تابع الشبيح، وقد كان طويل القامة، عريض المنكبين، نافر العضلات، تقدمه نحوه بخطى موزونة ومنقرزة، مستعرضاً جسده الرياضي الضخم. دنا منه، وأصبح على بعد خطوات ونعره بسبابته المعقوفة بقوة على صدغه، نعرة خضت دماغه، ونشفت ريقه، فتحشرج الألم في حلقه وغص به كحطبة جافة.

«فهمت يا حيوان ولاً ما فهمت؟».

لم يفهم إلّا أنه حيوان، فقال:

«فهمت».

«ولَكْ ممحون، لأ ما فهمت».

الممحون، حسب معناها المتداول بين رعاع العامة، هو الذكر المصاب بداء المحن، وأعراضه اشتهاء الرجال بلا حياء ومحاولة إغرائهم بشتى الوسائل لدفعهم إلى مضاجعته. وهي شتيمة تهون إزاءها بقية الشتائم، ومع هذا قال صاغراً:

«ما فهمت».

«قرد، ما فهمت؟».

المقصود هنا تشبيهه بالقرد، أو أن يُمسخ قرداً، وهي أيضاً شتيمة، باتت من فرط تداولها، لا تعد شتيمة، وإنما كلمة أشبه بالمرحبا.

«متل ما بدك».

لا يدري هل ينبغي له التراجع عما فهمه، ويبدي عدم الفهم انصياعاً لملاحظته. أم يفهم ليكف بلاه عنه. نظر إليه ببلاهة تنبئ عن رضوخه للاحتمالين.

«قرد كيف بدي فهمك؟»

«ما بعرف».

فجعر الشبيح:

«خراي عليك، فهمت هلق؟»

«فهمت».

وهز رأسه على الفور موافقاً، لأن «هلق» تعني الآن. أما ما سبقها فقد كان الشبيح يناغشه متحرشاً به بالخراء عليه. ويحاول استفزازه بتصيد كلمة لا تعجبه لينقض عليه بالضرب، فأخذ حذره منه. بينما تابع الشبيح استفزازه.

«شو مفكر حالك وْلا؟»

«ولا»، تعني «ولك» وتستعمل للتحقير كسابقتها التي تعني أنت. فيصبح معنى الجملة: ماذا تعتقد أنت عن نفسك؟ أي من تكون أنت؟ وما يرمي إليه الشبيح من سؤاله: إذا كنت تعتبر نفسك

رجلاً، فلست برجل على الإطلاق، والدليل أنه تابع قائلاً:

«إذا كنت مفكر حالك رجّال، بدي لَحّسَكْ طيزي».

هذه لا تُشرح عدا أنها مشروحة، وأي إضافة تزيد بذاءتها بذاءة.

«مالي مفكر حالي شي».

«فرجيك شو قيمتك؟».

أي هل يريه ما يساويه بين الرجال؟

«مثلما تريد».

«لا تتمسكن، بعرفك منيح».

فاستجمع أحمد شجاعته وجرأته وأعصابه، وقال:

«يا أخي، أنت غلطان، إذا كنت لم أرك أبداً، فكيف تعرفني؟»

«أنا غلطان يا كلب؟»!

«لا، أنا الغلطان».

«مو أنت الخرا أحمد ربيع؟».

نزل اسمه على رأسه كصخرة حطها السيل من علٍ... ومخمخه. فخرس.

«شفت، ماني غلطان، على كل حال، سأكتفي بتنبيهك هذه المرة، بخصوص الآنسة دنيا، إياك والاقتراب من بيتها، وإذا رأيتها في أي مكان، بتعمل حالك ما شفتها، وبتتخبى منها. بتعرف شو بيصير فيك، إذا ما عملت هيك؟».

«راح أعمل هيك».

«شايف هدول» أشار بيده إلى الصناديد الستة «بخليهم يشلحوك ويبطحوك على الأرض، بدك تعرف شو بيساوو فيك؟».

ما سيفعلونه به، تعبر عنه كلمة فاحشة، أصلاً هي فصيحة. أحمد فهمهما تماماً فنبقت عيناه من شدة الخوف، وأحس بجسده قاب قوسين أو أدنى من الافتراس.

«فهمت».

«وإذا مانك مصدق، هلق بهالثانية، بيشبحوك على الأرض وبيفرجوك شو بيعملوا فيك».

أي إذا لم تصدق، ففوراً، خلال أقل من ثانية، يحصل المحظور، والمحظور تدل عليه تلك الكلمة البذيئة غير الملفوظة وما ينجم عنها من فعل منكر ومرعب. هنا أيضاً نبقت عينا أحمد أكثر مما نبقتا قبل قليل، لأن تنفيذ التهديد آني وعملي، ولم يعد قاب قوسين، بل أقرب، وأقل من أدنى.

«والله مصدق».

هذا الحوار الركيك والبذيء، انتقل بحذافيره إلى ذهن أحمد وصدقه. ومع أنه أعلن عن تفهمه لتهديدات زعيم الشبيحة، وأبدى تعاونه معه بالعمل طبقاً لأوامره، وتعهد بعدم الإخلال بما التزم به، هجم الشبيح عليه وصعقه بصفعتين أطارتا صوابه، ثم شده من شعره، دافعاً رأسه نحو الأسفل، ليفاجئه بضربة من ركبته في

وجهه، فنفر الدم من أنف أحمد.

كانت تلك إشارة لتبدأ الحفلة، تحاوطه الشبيحة الستة، وكانوا تشكيلة متنوعة منهم طويل القامة وقصيرها، وذو الرقبة الثخينة، والمنتفخ الأوداج، والقميء الهيئة. الأول يسلمه للثاني، والثاني للثالث، وهكذا دواليك، بصفعة على خده، أو لكمة على أنفه، أو خبطة على رأسه، وكلما وقع يوقفونه، ومن جديد يجري الاستلام والتسليم فيما بينهم، إلى أن وقع وقعة لا وقفة بعدها، فلم يستطيعوا إنهاضه.

انحنى عليه قائد الشبيحة وهمس في أذنه، المرة التالية، سنفعل بك ما وعدتك به، فهمت. فهز أحمد رأسه، أي أنه فهم؛ وليته لم يهز رأسه، لأن قائد الشبيح أدرك أنه ما زال فيه رمق. فأمر شبيحته، بمعاودة الكرة، فهبوا هبة شبيح واحد وهجموا عليه بأقدامهم، فرفسوه رفساً، ودعسوه دعساً، وفعسوه فعساً، ومعسوه معساً.

بعد ساعة من الزمن لما حاول الصعود إلى بيته، تلمس طريقه على الدرج زحفاً على ركبتيه وكوعيه.

ختام الموسم

لم يشبه الصباح الغائم جزئياً ذاك الصباح المشرق كلياً حينما تسلم قبل أشهر بطاقة الدعوة إلى مسرح القباني. اليوم، بعد هذا الزمن، استلم بطاقة أخرى، استوقفته التفاصيل الصغيرة المطابقة؛ المظروف الأبيض، الورقة الصغيرة زرقاء اللون، الكلمات البسيطة المكتوبة بخط دقيق وجميل، والدعوة غير المذيلة بتوقيع، يخاطبه صاحبها برسمية ويسأله بألفة شديدة التفضل بقبول دعوته. بدا ما سيعقبها، في سبيله إلى التكرار على نحو مشابه، ولولا أن عنوان المسرحية «الوئام»، لاعتقد أنه يدعوه إلى مسرحية «عودة الزمن المجنون». كانت الدعوة الثانية إعلاناً باختتام الموسم المسرحي.

في المرة الفائتة، نسي ولم يذهب إلّا بعد تلقيه اتصالاً هاتفياً. في هذه المرة سيتقيد بهذا الترتيب، سينسى وينتظر، وإذا كان لما جرى أن يتكرر مرة أخرى، فسوف يماشيه ولن يخرقه. لم يطل الأمر أكثر

من ثلاثة أيام، عندما اتصل به، وكان الرجل نفسه، قال بأنهم حجزوا له مقعداً اليوم في المسرح، ويتمنون حضوره. وحسب الاتفاق الضمني، لم يسأله من هو، أو من هم. وعده بتلبية الدعوة.

****

المقعد المحجوز هو المقعد الذي جلس عليه من قبل، إلى جواره جلست السيدة المحيرة ذاتها، يليهما المقعد الفارغ لشخص لن يأتي. المخطط لم يتغير، بات على أهبة الإقدام على تصرفات محسوبة والتحرك وفقاً لما رُسم له. بدا التقيد بهذا التنظيم المسبق جائراً. لا، لن يكون مغفلاً، لن ينصاع لهم بسهولة. سيعبث بهم قليلاً، فلم يبادرها بالكلام، وكأنها علمت بنواياه، بادرته قائلة:

«ألم نلتق من قبل؟».

رمقها بنظرة طويلة، هل تسخر منه؟! كانت جادة في قولها، وتعيد ما أوحت له به في ذلك المساء تحت أضواء الصالة، الرصانة والوقار والجمال الهادئ، يخالطهما سحر بات مركزاً، شعر بوطأته، لا لن يصبح طعماً له. قال:

«التقينا هنا في هذا المكان بالضبط».

«إذاً، لم أخطئ».

وأظهرت عجبها من هذه المصادفة الطريفة، تذكرت المقاعد التي جلسا عليها، وحديث الذكريات والتعاسة. ابتسم ولم يشاركها التعجب.

أتاح له برود أعصابه تأملها ملياً، كان عمرها الذي حيره، وقدره في ذلك الوقت بأنه يراوح بين الخامسة والثلاثين والأربعين، قد انفرط. بدت أصغر بما لا يقل عن عشر سنوات؛ لم تبلغ الثلاثين بعد!! سابقاً تلاعبت بوجهها برسم غضون تحت عينيها، لابد أنها على دراية بألعاب الماكياج، تستعمله بمهارة فائقة، تُصغِّر عمرها وتُكَبِّره حسب الظرف والمناسبة. راوده الشك بأنها ممثلة غير معروفة، تمثل أدواراً صغيرة، في تمثيليات تجري في أمكنة ضيقة، بشكل محدود جداً، بين اثنين؛ كما الحال الآن.

ربط بشكل تلقائي بين لقائهما والحوادث التي تعرض لها. استأجروها لتلعب دوراً أمامه، وتنبهه من أمر سيقع، ليتحوط منه؛ وهم يعرفون أنه لن يتمكن من تفاديه. وكاد أن يسألها عن جدوى تحذيره، لكن الستار كان قد ارتفع عن الفصل الأول.

ارتدّ ببصره إلى خشبة المسرح، قصة المسرحية تدور حول التسامح والغفران. الموضوع لا يهمه، ولا يقاس بالتمثيلية الحيَّة لقصة غرام وانتقام دفع ثمنهما باهظاً. لم يتابع الفرجة، تابع ظنونه، صاحب الدعوة أخطأ هذه المرة، الرسالة المتوخاة من المسرحية، لا صدى لها، ولن تكون أكثر من رجاءات حمقاء تلغو بفضائل الغفران والتسامح، وهذه السيدة الصغيرة التي أرسلها إليه، ليس لديها ما تبلغه إياه، أو تحذره منه.

«التسامح من شيم النفوس النبيلة».

علَّقت في الاستراحة. فخابت ظنونه من مقولة كانت تقليدية جداً ومدرسية. ملامح وجهها لم تخيبه؛ التعبير المرسوم عليه يُظهر امرأة

صغيرة السن والتجربة، تتساءل ببراءة عن فكرة أخلاقية عادية، وترغب في مناقشتها. سارع يكشف سرها قبل أن يخذله فضولها:

«الستِ ممثلة؟»

«لا، التمثيل لا يستهويني».

لم يكن إنكارها كافياً ولا مقنعاً، لاسيما أنها تمارس التمثيل خفية في هذه اللحظات بالضبط. التقط من فحوى ابتسامتها الباردة التي رشقته بها قبل أن تخفيها، إشارة إلى أنها مذ التقت به كانت تمثل عليه، وتمثيلها حالياً لا يهم إذا انفضح، طالما يسير على ما يرام طبقاً للتعليمات، وبشكل محدد، بينهما فقط. تابعت الكلام بتساؤل لا يحتاج إلى تفسير:

«ألا يُبرز فعل الغفران عظمة الإنسان؟».

كانت تمثل على المكشوف، والرسائل ترسل إليه جهراً.

****

ساعده الفصل الثاني من المسرحية على تمحيص الرسالة، وستفاجئه الفكرة نفسها باستدعائها لفكرة الانتقام في المسرحية الأولى، فربطها بالثانية: الغفران، فأصبح طلب الغفران هذا يلي فعل الانتقام ذاك!! هل المطلوب منه التقدم برجاء يلتمس به غفرانهم؟! ألم يحصل عليه بعد؟! لقد برَّ بوعده لهم، ولم يخرق اتفاقه معهم، لم يثر قضية ضدهم، وابتعد عن دنيا ولم يعد يفكر فيها، واختفى عن أنظارهم أملاً بأن يسامحه أولاد جادور، وما زال محل نقمتهم، رغم ما أصابه من ضيم على أيديهم!! حياة تسير بالمقلوب، يسعى ليعيش فحسب، دون أن يسأل أو يتساءل؛ يبدو أنهم لن يضنّوا عليه

بالغفران، لكن ليس قبل عرفانه بالجميل نحوهم، وعلى أن يبقى مديناً لهم به إلى الأبد. بعد ذلك يبلغونه قرارهم: لقد غفرنا لك، انطلق إلى الحياة. أية حياة تلك التي سينطلق إليها؟!

أجال بصره حوله، كان قد مضى زمن على الاستراحة، بينما كانت تنتظر. فسألها:

«هل صفحوا عني؟».

نظرت إليه مستغربة، وحاولت توضيح ما قالته قبل بدء الفصل الثاني، بسؤال آخر:

«لو أنك وضعت نفسك في مكانهم، هل تغفر؟».

تحاول الاختباء وراء المسرحية، وتقلب الأدوار. أما هو فلن يختبئ.

«أنا؟»!

«نعم، لو كنت أنت».

«تقصدين هم».

«هم؟! أقصدك أنت».

بلحظة طاش صوابه، وتاه بين مسرحية ما زالت مشاهدها تتوالى ومسرحية تأبى أن تنتهي. تخيل من إصرارها أن الطلب يمسه شخصياً، وهم يطلبون منه المغفرة!! هل انعكست الأمور؟! بدا الطلب حقيقياً تماماً، وهي تقول:

«ألا تغفر، ألا تتصالح؟».

فأحس بكل ما اختزنه في داخله من هوان، فانتفض وعلا صوته متسائلاً:

«لماذا أتصالح معهم؟»!

ارتدت عنه فزعة. وأردف غاضباً:

«لا. لن أغفر».

أصبحا محط الأنظار. صمتت مذهولة، وهو على وشك البكاء. لم يكمل، نظراتها المندهشة أوقفته، ليس فيها ذرة من تمثيل، تفحصته مستغربة، ونبست بقلق:

«أرجو ألا أكون قد نكأت لك جرحاً قديماً».

ضبط انفعاله، هل أخطأ في تخميناته؟ اقترب برأسه منها:

«لقد أهانوني، استباحوا حياتي، هددوني ولاحقوني، يكفي، فليدعوني لشأني. ليس هناك ما أريده لنفسي، أو أرغب في فعله».

ما أنقذه من انفجار أشجانه، ارتفاع الستارة عن الفصل الثالث.

****

لم يستسغ ردة فعله المتهورة، كأن أحدهم تصرف بالنيابة عنه. ولم يتوقف تدفق مشاعره العنيفة، ويدرك من ذلك التعاقب المريع لفصول حياة مهينة، عاشها منطوياً وخائفاً؛ أنه وقبل القبض عليه واصطدامه بأولاد جادور، كانت الأمور محسومة بينهما، من طرفه تقبل هيمنتهم واعتداءاتهم دونما استياء، واختار الاختباء منهم لا التوسل إليهم. لكن ماذا عن غيره الذين اضطروا إلى التعامل معهم وسخروا قدراتهم لهم؟ هل بوسعهم ألا يكونوا منافقين أنذالاً ومرائين أوغاداً؟!

اليوم، يرسلون له هذه السيدة الصغيرة الجميلة ويطالبونه بالغفران، وقبل أشهر، أرسلوها هي نفسها، ثم نكلوا به!! يسألون الضعيف التنازل عن حقوقه، لمن يغفر، هل غفرانه مقبول؟! وعن ماذا يتنازل؟! سيقال له: الحلم سيد الأحكام، وعفا الله عما مضى!! بينما القوي لا يغفر ولا يعتذر. المصالحة تعني عودة الوفاق القديم، وهل كان ثمة وفاق؟

كانت لديه وجهة نظر مختلفة، كخاتمة أخيرة غير مجدية لكنها معبرة، مثل هذا الستار النازل مؤذناً بانتهاء المسرحية، المتفرجون يتركون مقاعدهم ويتوجهون صوب باب الخروج. السيدة الصغيرة تأخرت عنه، ربما لكي لا تخرج معه، فتباطأ، كان مصمماً على إسماعها دفاعه، أو على الأقل وجهة نظره.

في الشارع، أسرعت بخطواتها، تحاول أن تسبقه. لحق بها، رجاها ألا تأخذ عنه فكرة سيئة، وسألها أن تستمع إليه لدقيقة واحدة فقط.

«لم أقصد أن أكون فظاً، صدقيني، سؤالك أثار في داخلي تكهنات، قد تبدو لك غريبة».

هل أحست بالرثاء نحوه؟ على التأكيد، وإلّا لما سمحت له بالمشي معها. تابعا طريقهما في أزقة عين الكرش. أراد الكلام، ففوجئ بأن الفكرة المعبرة عن وجهة نظره، قد تبخرت من ذهنه. فسكت.

تعجبت من صمته، ونظرت إليه تستحثه على الكلام. فقال لها: ربما كان ما أريد قوله لا يهمك. لقد انسحبت من الحياة مبكراً، لم أرد المشاركة في ما يجري، أردت أن أكون واحداً من هؤلاء الذين لا

يسترعون الأنظار، مجرد رجل عادي تماماً، لكنني لم أفلح، كان بإمكانهم اقتحام حياتي ساعة يشاءون. اليوم لن أكذب، ليس بوسعي فعل شيء، ليس بمقدوري. أنا شخص بلا إرادة، الأمر لا يعنيني وحدي، ولن أتكلم عن غيري، اعذريني. بالنسبة إلي، أقول لقد خسرت، لا أحد يستطيع أن يعوضني عن حياة بطولها.

كانت المسافة التي تفصل بينهما واسعة لا يمكن تجاهلها ولا تجاوزها. كانت نظراتها تدعوه إلى فتح صفحة جديدة، ولا تدري أنه في هذه اللحظة، لم يعد شيئاً، لا شيء على الإطلاق. قال ملخصاً مأزقه:

«لا أعرف من أنا؟»!

«إنس الماضي».

«لا تسأليني أمراً فوق طاقتي».

«لديك قصة مؤلمة؟».

«قصة!! بل قصص».

«فكر بها كمشهد عابر».

«قد تبدو لك مشهداً عابراً. أما بالنسبة إليّ، فمشهد طويل، طويل جداً».

«ألم ينته؟».

ترددت كلماتها في أذنه، كم هي بعيدة عنه، رغم أنه أخذ يراها بشكل أفضل، لا تحجبها العتمة، قريبة وواضحة جداً، كانت أكثر شباباً، لم تعد تقارب الثلاثين، إنما وبشكل قاطع في حوالي العشرين

من عمرها!! فتاة مثلها لن تحس أبداً بما يعتمل في داخله، وبغنى عن الآلام التي قاساها، لن تجد فيه سوى رجل صغير خائف ومشوه الروح. لن يدعها تعرف عنه أكثر، لماذا يطلعها على مآسيه، لن تستوعبها ولن تشاركه بها، وهي بغنى عنها. هل يقول لها بأن لا مكان له في المستقبل، لأنه لم يحرص على أن يكون له مكان في الماضي. كان عليه أن يكون واحداً منهم، أو من أتباعهم!! الآن يرى نفسه على حقيقتها، مسكينة خنوعة ومخاتلة. صحيح أنه يتحكم بها، لكن ليس دائماً. وصحيح أنه يقودها أحياناً، لكن إلى أين؟ لن تدرك الآنسة الصغيرة حجم مصيبته، ولن تصدق ما يعتمل في داخله من لامبالاة وحنق وسقم، هذه حقيقته، أم هو مجرد واهم يتوهم زمناً لم يرحل، بينما هو رحل ويخشاه؟!

توقفا في البقعة التي سيفترقان فيها. بينهما الصمت. قال لنفسه: لقائي سينتهي في هذا الظلام الشامل، ليس ثمة بديل عنه. وأشار إلى الظلام باستسلام:

«مشكلتي أنني ابتعدت عن الواقع».

ابتسمت قائلة:

«أرجو ألا تكون قد ابتعدت كثيراً».

«لم أعد أرتجي العودة».

«ستعود، وأصادفك في الموسم القادم».

لم يعقب، عادة ما تترك اللقاءات المسدودة بصيصاً من شيء ما، وهي حيلة يلجأ إليها السياسيون، فاستدرك قائلاً:

«لقد بالغت قليلاً، لا أرغب في أن أكون يائساً، ثمة ضوء في نهاية النفق».

وكان متيقناً أنه لا ضوء ولا نفق.

تراجعت صوب البناء، لم تقل شيئاً، الحيرة على ملامحها.

غابت في المدخل المتلفلف بالظلام، وتركته في يقظة مسرحية مبهرة؛ نموذجية في سوداويتها. تمنى رغم الشقاء الذي عاوده؛ إن كانت قد فهمت مأساته، أن تنساه وتنساها.

المؤلف

ولد في دمشق.

حصل على إجازة في الحقوق من الجامعة السورية.

تنقل بين عدة أعمال لفترات بدت أنها مؤقتة لكنها امتدت إلى سنوات طويلة.

قبل سنوات تفرغ كلية للعمل الروائي.

صدر له:

موزاييك «دمشق ٣٩»، رواية، دار الأهالي، ١٩٩١.

تياترو «١٩٤٩»، رواية، إصدار خاص، ١٩٩٤.

الرسالة الأخيرة، قصص، وزارة الثقافة، ١٩٩٤.

صورة الروائي، رواية، دار عطية، ١٩٩٨.

الولد الجاهل، رواية، دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠.

الضغينة والهوى، رواية، دار كنعان، ٢٠٠١ ـ طبعة ثانية، ٢٠٠٤.

مرسال الغرام، رواية، دار الريّس، ٢٠٠٥.

فواز حداد

مشهد عابر

لم تثر غضبها فضائح زوجها الجنسية التي أدت إلى إقالته. بالنسبة إليها، لم يكن في توصيف أفعاله بالخيانة الزوجية مفاجأة، كان قد خانها في شهر العسل في فندق يقع على شاطئ البحر، في مدينة تدعى الإسكندرية، نزلت تتسبح، لم ينزل معها، ادعى أنه نسي المايوه في الغرفة، لحقت به بعد أن تذكّرت أنها نسيت شيئاً يخص أمورها النسائية، فتحت الباب وضبطته مع الشغالة السمراء يسبحان في عرقهما.

عندما ضبطته على سريرهما في الفندق، شدهتها مؤخرته العارية المقببة، طالعة نازلة فوق امرأة بلون البن، نائمة وربما متعبة. كأنما استغل نعاس المرأة أو استراحتها، فانبطح فوقها. التفت ورأى زوجته الصغيرة مخطوفة اللون، تنظر إليهما برعب، قفز حانقاً ودبدب كالغوريللا، عارياً مغطى بالشعر الكثيف، لبست روبها الخفيف، أخذت كيلوتها، دعكته وأخفته في صدرها وخرجت دونما كلمة.

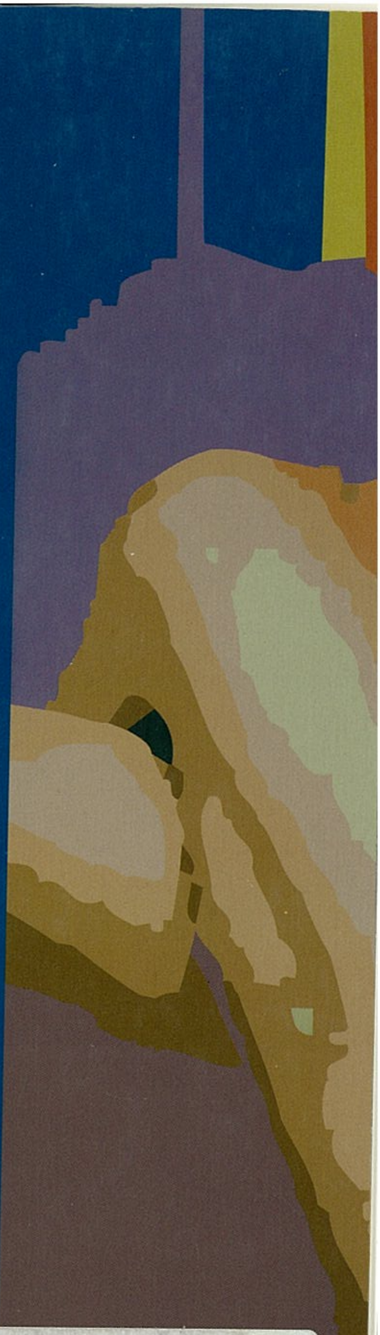

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

EL SHOROUK الشروق
9 789953 212463
L.E 60.00